

الأكاديمية

مجلة

أكاديمية المملكة المغربية

العدد الأول

فبراير 1984

جمادى الأولى 1404

الأكاديمية



الأكاديمية

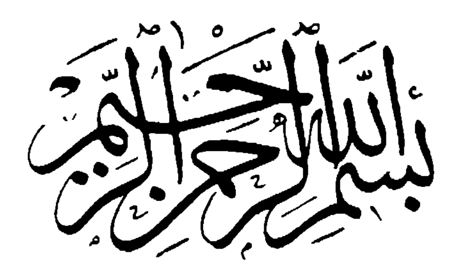
مجلة
أكاديمية المملكة المغربية

العدد الأول

جمادى الأولى 1404 فبراير 1984

أكاديمية المملكة المغربية

ترسل المقالات إلى أمين السر الدائم
لأكاديمية المملكة المغربية، طريق زعير ـ الرباط
ص. ب : 1380
ـ المملكة المغربية ـ



صدر قبل هذا العدد الأول، «العددُ الافتتاحي» من مجلة الأكاديمية، وهو عدد وثائقي، فيه عرض لوقائع افتتاح صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله للأكاديمية يوم الإثنين 25 جمادى الثانية عام 1400 هـ، الموافق 21 أبريل عام 1980.

ترجمت خلاصات النصوص العربية إلى الفرنسية والإسپانية والإنجليزية، وترجمت خلاصات النصوص غير العربية إلى اللغة العربية وحدها.

رقم الإيداع القانوني بالخزانة العامة وحفظ الوثائق 1982 / 29

تم الطبع بمطابع فضالة، المحمدية، المملكة المغربية

الفهرس

البحوث

وقائع الأكاديمية

1) ملخص للنص الأصلي الفرنسي، فلينظر إلى هذا النص في مكانه.

القسم الأول

البحوث

إحياء الاجتهاد
باعتباره قاعدة
من قواعد التفكير في الإسلام

محمد إبراهيم الكتاني

وهو عرض لأصل الإجتهاد، ومنشئه، وميادينه وأنواعه ولمحة من تاريخه-خصوصاً على عهد الرسولْ والخلافة الراشدة ـ وفلسفته، وشروطه، وأسباب انقطاعه، والدعوة لإحيائه، وأسباب هذه الدعوة.ويليه ثلاثة ملاحق بها نصوص في الموضوع.

1 ـ إن هذا النشاط الثقافي الجديد، الذي قررت أكاديمية المملكة المغربية القيام به ـ إلى جانب نشاطاتها المختلفة ـ وهو تنظيم حوار دوري بين أعضائها، حول موضوع من المواضيع التي تتطلب الحوار الهادىء الرزين، ليعتبر خطوة بناءة تهنأ عليها أكاديميتنا.

2 ـ فهو ـ إلى جانب ما يرجى من ورائه من إثراء لثقافتنا في مختلف الميادين ـ لأمر من شأنه أن يساعد على زيادة تمتين روابط الزمالة الفكرية، وتعميق التفاهم بين (إخوان الصفاء) هؤلاء الذين اصطفاهم مؤسسها وراعيها الملهم جلالة الملك الحسن الثاني، زاده الله توفيقاً وتسديداً لقيادة الحركة الفكرية بهذه البلاد، وتوجيهها الوجهة الصحيحة للتفتح السليم على التيارات العالمية. في

نطاق أصالتنا الإسلامية العربية المتطلعة إلى المستقبل الزاهر، في ظل الانبعاث الإسلامي المنتظر، الذي يرد المسلمين الضالين إلى حظيرة دينهم الإلهي الحنيف، وينقذ البشرية مما تتردى فيه من كفر وإلحاد وظلم وطغيان وحيوانية مدمرة.

وإنها لمسؤولية عظمى تنوء بحملها شوامخ الجبال إلا إذا أمد الله بعونه وتوفيقه.

3 - وإن من الصدف الطيبة أن يكون موضوع الحديث الأول في هذه السلسلة هو التوصية التي أقرتها ندوة أكاديميتنا في دورتها الثانية لسنة 1981، والمتعلقة «بالأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر» تلك التوصية التي تدعو إلى «إحياء الاجتهاد باعتبار كونه قاعدة من قواعد التفكير في الإسلام».

4 - فأي وقت أنسب للحديث عن الاجتهاد من هذا الوقت الذي يتوقف فيه المغاربة عن التضحية في عيد الأضحى إلى أن تتحسن الحالة الاقتصادية في البلاد، وتعكف فيه لجنة خاصة على مراجعة بعض القوانين الوضعية التي ورثناها عن العهد الاستعماري لإلغاء ما يخالف الإسلام منها، تحقيقا لمطلب حيوي من مطالب الشعب المغربي المسلم، الذي يرى في استمرار العمل بالقوانين الاستعمارية إهانة لكرامته وتنكراً لأصالته.

وممن طالب بذلك اللجنة الوطنية للاحتفال بحلول القرن الخامس عشر الهجري، التي تأسست إذ ذاك بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وقد كان من بين أعضائها بعض الأكاديميين.

ومن المؤكد أن لجنة المراجعة ستجد نفسها لا محالة مضطرة للاستنجاد بالاجتهاد لمواجهة بعض الحالات الخاصة.

5 ـ وتعكف في نفس الوقت لجان في الجامعة العربية على وضع قوانين موحدة للبلاد العربية في كثير من الميادين، وبذلك تحقق هدفاً عظيماً من الأهداف الإسلامية العربية، ولن يتحقق هذا الهدف إلا بواسطة الاجتهاد.

6 ـ وقد أعلن في المدة الأخيرة أن اللجان المختصة بمراجعة القوانين المصرية لجعلها مطابقة للشريعة الإسلامية، قد أشرفت على إنهاء عملها الذي استمر سنوات عديدة.

7 ـ وأصدرت الأردن قانونها المدني الإسلامي منذ مدة [1].

8 ـ وتقوم حكومة الباكستان بجهود كبيرة لإحلال الشريعة الإسلامية محل القوانين الوضعية.

9 ـ وفي المملكة العربية السعودية، تصدر «رابطة العالم الإسلامي» بمكة فتاوي شرعية ـ وخصوصاً في موسم الحج ـ غير متقيدة بمذهب معين من مذاهب أهل السنة.

10 ـ وكثير من الجامعات الإسلامية في مختلف البلاد تدرس الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بين مختلف المذاهب، وأحياناً حتى مع الدراسات القانونية.

11 ـ ونظراً لتخلف الفكر المغربي على العموم في هذا الميدان لأسباب عديدة فإن الأمل معقود بهذه الأكاديمية بمساهمة أعضائها المقيمين في سد هذا الفراغ، بالعمل

1) وصدرت في المدة الأخيرة قوانين إسلامية محل القوانين البريطانية في جمهورية السودان.

على نشر التوعية بالثقافة الاجتهادية، وخصوصاً في الكليات والمعاهد، وعقد الندوات، ونشر الدراسات وغير ذلك.

12 - ويقتضي الحديث عن «إحياء الإجتهاد» تناول الموضوعات التالية :

1 - المجتمع الإسلامي (الفقرة 13).
2 - ضمان استمرار هذا المجتمع (الفقرة 14).
3 - حق التشريع (الفقرة 16).
4 - فقه القرآن والسنة (الفقرة 22).
5 - الاجتهاد البياني (الفقرة 30).
6 - الاجتهاد الفردي في عهد الرسول (الفقرة 31).
7 - الاجتهاد الجماعي فيما لا نص فيه في عهد الرسول (الفقرة 37).
8 - اهتمام الإسلام بضمان آفاق المستقبل (الفقرة 47).
9 - عهد الخلافة الراشدة (الفقرة 48).
10 - ما أجمع عليه الصحابة وما اختلفوا فيه (الفقرة 59 ـ 60).
11 - فقهاء التابعين وتابعيهم (الفقرة 61).
12 - اختفاء الاجتهاد الجماعي (الفقرة 64).
13 - نشأة الثقافة العربية لخدمة القرآن وتمكين دارسيه من فهمه واستنباط الأحكام منه (الفقرة 67).
14 - موطأ الإمام مالك، ورسالة الإمام الشافعي (الفقرة 68 ـ 78)
15 - مقاصد الشريعة (الفقرة 93).
16 - وانقطع الاجتهاد (الفقرة 100).
17 - الدعوة إلى الاجتهاد ومحاربة التقليد (الفقرة 110).
18 - وجاء الاستعمار (الفقرة 116).
19 - كيف نحيي الاجتهاد (الفقرة 135 ـ 153).

20 ـ مشاكل تنتظر الاجتهاد (الفقرة (154 ـ 175).
21 ـ الاقتصاد الإسلامي (الفقرة 162 ـ 175).

13 ـ المجتمع الإسلامي

جاء الإسلام لكي يقيم مجتمعا إسلاميا متكاملا له نظمه الاقتصادية والسياسية والقانونية والاجتماعية، ولكي ينشىء حضارة متكاملة لها كما هو الحال في كل الحضارات، جانبها المادي بالإضافة إلى الجانب الروحي، الذي يتمثل في نسق المعتقدات والقيم والأخلاق كما يقول كاتب معاصر.

14 ـ ضمان استمرار هذا المجتمع

وفي الوقت الذي كان القرآن يضع فيه الأسس الثابتة لقيام هذا المجتمع الإسلامي وضمان استمراره، والتي تتسم بالاتجاه الجماعي، كان الرسول يبذل جهوداً خارقة لإقامة هذا المجتمع وتطبيق تعاليم القرآن وتوجيهاته في ميدان الواقع عن طريق الممارسة، ويكون الأطر اللازمة لاستمرارية مسيرة المجتمع، بعد انتقال الرسول (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى.

15 ـ وكان النجاح الذي حققه الله لرسوله ـ ولا أقول حققه الرسول ـ أمراً لا يمكن التعبير عنه إلا بكلمة واحدة لا ثاني لها هي المعجزة، فأساس هذا المجتمع هو القرآن، وهاهو القرآن ـ على نطاق المجتمع الإسلامي ـ محفوظ في الصدور، مكتوب في الصحف، لا يختلف اثنان ولو في آية واحدة منه، تحقيقاً لوعد الله الصادق : ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾.

16 - **حق التشريع**

من يقينيات الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، أن حق التشريع إنما هو لله وحده، وذلك ما كرر القرآن القول فيه، وأعاده بمختلف الأساليب في كثير من الآيات مكية ومدنية.

17 - ومن ذلك ـ مثلاً ـ ما جاء في سورة النحل :

﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُم الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَيُفْلِحُون (116)﴾.

18 - وفي سورة يونس :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُم مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُل اللهُ أَذِنَ لَكُم أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُون (59)﴾.

19 - ووصف في سورة التوبة اليهود والنصارى بالكفر بالله، إذ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير الطبري وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، وابن مردودية، والبيهقي في سننه وغيرهم من عدة طرق : أن عدي بن حاتم دخل على رسول الله (ﷺ) وهو يقرأ هذه الآية، قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم.

20 ـ راجع الآيات التالية : الشورى 10، 15. الأنعام : 57، 87، 88، 118، 119، 138، 150. يوسف : 40. المائدة : 1. البقرة : 216. التحريم : 1. النحل : 56. التوبة : 29، 37، 115، الشورى : 215.

21 ـ والقرآن إذ ينكر تقليد الآباء، واتباع الرؤساء، والقول بغير علم، واتباع الظن والهوى ويطالب باستعمال الحجة والاعتماد على البرهان، يلزم الناس باتباع ما أنزل إليهم من ربهم والوقوف عند حدوده وعدم تعديها، والتحاكم إليه عند التنازع والاختلاف، مع الرضى بما به قضى، والتسليم لما به حكم. وآيات القرآن في هذه الموضوعات لا تكاد تعد.

22 ـ **فقه القرآن والسنة**

لقد تضمن الوحي الخاتم للرسالات الإلهية الدليل على أحكام كل ما يحتاجه الناس في دينهم ودنياهم، قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله في كتابه «الرسالة» :

«فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها» (ص20) ط. الحلبي 1358 هـ، مصر.

23 ـ وتتناول آيات القرآن التي تتعلق بما يصدر عن المكلف :

1 ـ العبادات، وما ألحق بها من الأيمان والذكاة.
2 ـ والمعاملات وهي :
أحكام الأحوال الشخصية.

والأحكام المدنية.
والأحكام الجنائية.
وأحكام المرافعات.
والأحكام الدستورية.
والأحكام الدولية.
والأحكام الاقتصادية والمالية.

وذكر حجة الإسلام الغزالي في المستصفى أن عدد آيات الأحكام نحو خمسمائة آية (ص 101) ط. المكتبة التجارية 1356، مصر.

24 - وينقسم التشريع القرآني من حيث الإجمال والتفصيل إلى أربعة أقسام :

أ) تشريع مجمل، لم يبين من أحواله وصفاته إلا القليل.
ب) تشريع مبين بعض البيان، فصلت بعض أحواله، وترك الباقي للسنة واجتهاد علماء الأمة.
ج) تشريع تفصيلي، فصل تفصيلاً ولم يترك منه إلا القليل. لبيان السنة واجتهاد المجتهدين.وذلك في موضوعات ليس من شأنها التطور ولا الاختلاف باختلاف الأزمان والأمم.
د) تشريع القواعد والأصول العامة.

25 - وراجع أمثلة هذه الأقسام في كتاب «فقه الإسلام»، ص 15 ـ 66 تأليف حسن أحمد الخطيب 1371 هـ = 1952م، مطبعة سيدي علي حافظ، القاهرة.

26 - وأسند الله إلى رسوله ـ إلى جانب تبليغ ما أوحاه الله إليه ـ تبيينه للناس : بأقواله وأفعاله. وعدم إنكاره. وتلك هي السنة. وهي تنقسم أقساماً كثيرة، خصوصاً من جهة ثبوت نقلها عن الرسول.

27 ـ أ) بيان الرسول العملي والمستمر المنقول نقلا متواتراً، مثل هيئـة الصلاة والحج فهذا بمنزلة نقل القرآن، سواء بسواء.

28 ـ ب) وما نقل نقلاً صحيحاً عن طريق الآحاد، فهذا على العموم حجة مقبولة. وفيه أحياناً مجال للاجتهـاد واختلاف الرأي حسب تفـاصيل عنـد علمـاء الحديث والأُصول.

29 ـ ولا تكون السنـة حجـة تشريعيـة إلا إذا صـدرت عن رسول اللـه بوصف أنـه رسول الله وكان مقصوداً بها التشريع العام والاقتداء.

أما ما صدر عنه بمقتضى طبيعته الإنسانيـة، ولم يـدل دليل على أن المقصود بـه الاقتداء فليس تشريعاً، وكذلك ما صدر عنه بمقتضى الخبرة الإنسانية والحـذق والتجارب في الشؤون الدنيوية، فليس تشريعاً.

وكذلك مادل الدليل الشرعي على أنه خاص به (ﷺ) أو من خصه (ﷺ) به. فلا يكون تشريعاً لغيره.

30 ـ الاجتهاد البياني

وألفاظ اللغة العربية تنقسم إلى :

أ) ألفاظ قطعية الدلالة على معناها بحيث لا مجال لفهم معنى غيره ولا تحتمل تأويلاً.

ب) وألفاظ ظنية الدلالة على المعنى المراد منها، وهي اللفظ الـذي يحتمل أكثر من معنى ويحتمل أن يـؤول ويصرف إلى معنى آخر، وفي هـذا القسم مجـال للاجتهاد في فهم النصوص.

ج) وتنقسم الألفاظ إلى واضحة وغير واضحة، والواضح يشمل الظاهر، والنص، والمفسر، والمحكم. وغير الواضح يشمل الخفي، والمشكل، والمجمل، والمتشابه.

د) ودلالة اللفظ تارة تكون بصريح العبارة، وهي المنطوق، وتارة بطريق الإشارة وهي المفهوم، وكل ذلك تناوله بالدراسة علم أصول الفقه.

31 ـ الاجتهاد الفردي في عهد الرسول (ﷺ)

ويتجلى مما سبق، أن الاجتهاد يمتزج بالنص امتزاجاً عضوياً، بحيث لا يكاد ينفك عنه.

32 ـ وقد سجل القرآن وكتب السنة والسيرة حوادث كثيرة من اجتهادات الرسول نفسه واجتهادات صحابته على عهده (ﷺ).أصاب المجتهدون في بعضها وأخطأوا في بعضها الآخر، كما هي طبيعة الاجتهاد التي لا تتغير.

33 ـ راجع الآيات : الأنفال : 67، 68. التحريم : 1. آل عمران : 127. التوبة : 3. الأحزاب : 37. عبس : 1.

وراجع موقف عمر يوم صلح الحديبية، وحديث الصحيحين : «لا يصلين أحد **العصر إلا في بني قريظة».وحديث أبي داود وغيره عن الرجلين اللذين سافرا** وتيما ثم وجدا الماء فأعاد أحدهما ولم يُعد الآخر.

34 ـ وكان الناس على عهد رسول الله يستفتون أهل العلم في نوازلهم فيفتونهم. ووردت تسمية أربعة عشر من هؤلاء (راجع التراتيب الإدارية ج 1 ص56 ـ 58).

35 ـ وذكر الإمام أبو محمد ابن حزم في «الإحكام في أصول الأحكام» (ج 5 ص 92 ـ 94). أنه لم ترو عن الصحابة الفتوى ـ في العبادات والأحكام ـ إلا عن مائة ونيف وثلاثين منهم فقط، من رجل وأمرأة، بعد التقصي الشديد وهم بين مكثر منها، ومقل، ومتوسط. فالمكثرون سبعة، ويمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم سفر ضخم. والمتوسطون منهم فيما رُوي عنهم من الفتيا ـ رضي الله عنهم ـ ثلاثة عشر، ويضاف إليهم سبعة آخرون. والباقي منهم مُقلون في الفتيا، لا يُروى عن الواحد منهم إلا المسألة والمسألتان، ونقله الإمام ابن قيم الجوزية في «أعلام الموقعين عن رب العالمين» (ج 1.ص 9 ـ 11).

36 ـ وعن اجتهاد القاضي يقول النبي (ﷺ) في الحديث الصحيح الذي رواه كثير من الصحابة، وأخرجه البخاري ومسلم، وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عشر مرات : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم ثم أخطأ فله أجر».

37 ـ الاجتهاد الجماعي فيما لا نص فيه على عهد رسول الله ﷺ

وإذا كان هدف الإسلام هو تكوين مجتمع إسلامي ـ كما سبق القول ـ والعمل على ضمان استمراره عبر الأجيال والأمم والأقطار، فمن الواضح البين أن يكون للجماعة دور أساسي في هذا الميدان.

38 ـ وهكذا أنزل الله على رسوله ـ وهو ما يزال في مكة ـ سورة الشورى، ومدح المومنين فيها، **بأَنَّ أَمْرَهُم شُورَى بَيْنَهُم** (الآية 38).

39 - وجعل نظام الأسرة قائماً على الائتمار والتشاور، فقال في تحديد أجرة إرضاع الوالدة ولدها : ﴿**فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُم فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ**﴾ .(الطلاق : 6).
وقال في مدة الرضاعة : ﴿**فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا**﴾ (البقرة : 233).

40 - وأمر رسوله في سورة آل عمران بمشاورة أصحابه فقال : ﴿**وَشَاوِرْهُم فِي الامْرِ**﴾ (الآية 159).

41 - وذكر في سورة النساء أن مع الرسول «أولي أمر» وأمر برد الأمر إلى الرسول وإليهم فقال : ﴿**وَإِذَا جَاءَهُم أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أو الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الامْرِ مِنْهُم لعَلِمَه الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم**﴾ (الآية 83).

42 - وأمر في نفس الصورة بطاعة الله، وطاعة الرسول وأولي الأمر منّا فقال : ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأوْلِي الامْرِ مِنْكُمْ**﴾ (الآية 59).

وأخرج ابن عدي والبيهقي في «شعب الايمان» بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿**وَشَاوِرْهُم فِي الامْرِ**﴾، قال رسول الله (ﷺ) : «أما إن الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي. فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيا».

43 - وقد روت كتب الصحاح والسنن والسيرة كثيراً من أخبار استشارته (ﷺ)، لأصحابه، حتى روي عن أبي هريرة قوله : «ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من النبي (ﷺ)».

44 ـ وذكر المحب الطبري في «الرياض النضرة» أن الإسماعيلي أخرج في «معجمه» عن معاذ بن جبل، أن النبي (ﷺ)، لما بعثه إلى اليمن استشَارَ أُنَاساً من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، وطلحة والزبير وَأسيد بن حضير، فقال أبو بكر : «لولا أنك استشرتنا ما تكلمنا». فقال (ﷺ) : «إنِّي فِيمَا لَمْ يُوحَ إلَيَّ كَأَحَدِكُم. فَتَكَلَّمَ القَوْم، فتكلم كل إنسان برأيه قال : ما ترى يا معاذ»... الحديث.

45 ـ ولأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي (تـ 370 هـ) في «أحكام القرآن»، كلام جيد في آية ﴿**وَشَاوِرْهُم فِي الامرِ**﴾، فقد ذكر قول بعض أهل العلم : «إنما أمره بالمشاورة فيما لم ينص له فيه على شيء بعينه. وان القائلين بذلك اختلفوا، فمنهم من يقول إنما هو في أمور الدنيا خاصة»، وقال آخرون : «كان مأموراً بمشاورتهم في أمور الدين التي لا توقيف فيها عن الله تعالى.وفي أمور الدنيا مما طريقه الرأي وغالب الظن».

46 ـ ثم أفاض القول في الاحتجاج للقول الثاني، «وأن مشاورة النبي (ﷺ)، كانت فيما لانص فيه.ولما لم يخص الله تعالى أمر الدين من أمور الدنيا في أمره بالمشاورة، وجب أن يكون فيهما جميعا»، «وأن محاربة العدو ومكايدة الحروب هي من أمر الدين، ولا فرق بين اجتهاد الرأي فيه وبين أحكام سَائِرِ الحوادث التي لانصوص فيها» (ج 2.ص 48 ـ 50).

47 ـ اهتمام الإسلام بضمان آفاق المستقبل

أخرج الخطيب البغدادي في «رُواة مالك»، والطبراني في «الأوسط»، وأبو سعيد في «القضاء» وأبو عمر بن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»

(ج. 2 ص. 59)، عن علي بن أبي طالب قال : «يارسول الله، الأمر ينزل بنا بعدك، ولم ينزل به القرآن. ولم نسمع منك فيه شيئاً ؟ قال اجمعوا له العابدين - وفي رواية العالمين - من المومنين، واجعلوه شورى بينكم، ولا تقضوا فيه برأي واحد».ومع أن ابن عبد البر عقب عليه بأنه لا يعرف له إلا سند واحد فيه راويان ليسا بِالقَوِيَيْنِ وَلا مِمَّنْ يُحتجّ وَلاَ يُعَوّل عليه، فإن السنة النبوية - كما تقدم - وسنة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، قامت على هذا الأساس.

48 - عهد الخلافة الراشدة

فقد أخرج الدارمي والبيهقي والبغوي وأبو عبيد في «كتاب القضاء»، عن ميمون بن مهران قال : «كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم - وفي رواية الخصوم - نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقْضِي به قضى به. وإن أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله (ﷺ) قضى فيه بقضاء ؟ فربما قام إليه القوم فيقولون : قَضَى فيه بكذا وكذا. فإن لم يجد سنة سنها النبي (ﷺ) جَمَعَ رؤساء الناس واستشارهم. فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به. وكذلك كان يفعل عمر».

49 - ونقل القاضي عياض في «المدارك» أن الإمام مالكاً قال - أثناء كلام - وأن عمر ابن الخطاب وعلياً، وعلقمة - خيار الصحابة - كانت ترد عليهم المسائل - وهم خير القرون الذين بعث فيهم النبي (ﷺ) - وكانوا يجمعون أصحاب النبي (ﷺ)، ويسألون ثم حينئذ يفتون فيها» (ج 1.ص 179 - 180).

50 - وقال السرخسي في «المبسوط»:
كان عمر يستشير الصحابة - مع فقهه - حتى كان إذا رفعت إليه حادثة قال : «ادعوا لي علياً، وادعوا زيداً... فكان يستشيرهم، ثم يقضي بما اتفقوا عليه».

51 ـ واستشارات عمر للصحابة عديدة، ومن أروعها ما ارتآه من عدم قسمة أراضي الشام والعراق على الفاتحين، وقوله لمن استشارهم من المهاجرين والأنصار : انه يريد أن يشتركوا معه فيما حمل من أمورهم، «فإنني واحد كأحدكم ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي.معكم من الله كتاب ينطق بالحق. أرأيتم هذه الثغور ؟ لابد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام ؟ لابد لها من أن تشحن بالجيوش وإدْرَار العطاء عليهم...».

52 ـ وقد كان عمر يظن ـ وهو يخوض هذه المعركة الفكرية الحامية ـ أنه ليس في القرآن ما يدل لما أرتآه، ولكن الله ألهمه آية في القرآن، وهي قوله : ﴿**والذين جاءوا من بعدهم**﴾ : «فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم ؟».

53 ـ ومنها استشارته الصحابة في الدخول للشام عندما بلغه أن بها الوباء، ورواية عبد الرحمن بن عَوْفْ له الحديث عن رسول الله بعدم دخولها.

54 ـ وقد كان عمر بن الخطاب قمة في الاجتهاد تتضاءل دونها قمة «الهِمَلاَيَا».ولست أريد هنا أن أتحدث عن اجتهادات عمر، ولكني أريد فقط أن ألفت النظر إلى منهج عمر ابن الخطاب في التشريع :

«دراسة متنوعة لفقه عمر وتنظيماته»، بقلم الدكتور محمد بلتاجي، مدرس الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة ص 532، دار الفكر العربي 1390 هـ = 1970م.

وقد رجى في تصديرها أن تقدم لقارئها ـ من خلال فهم عمر بن الخطاب لنصوص الشريعة الإسلامية ومقرّراتها العامة ـ تصوراً موضوعياً وحقيقياً

لبعض ما يحتويه التشريع الإسلامي من خصوبة وثراء وإعجاز تجعله مُهيئاً ـ بصورة لا مثيل لها ـ لتحقيق مصالح الناس في كل عصر.

وختمها بأنه ليس من المستحيل أن يوجد الرجل العمري الذي تتحقق فيه بعض صفات عمر، وتواتيه ظروفه. فيصلح الله به شأن الأمة، وتستعيد على يديه أمجادها، كما صلحت شؤونها على يد عمر، وما كان إلا رجلاً عربياً من خلق الله ! بيد أننا نومنُ بما قاله عمر بن الخطاب : «من أن آخر هذه الأُمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها».

55 ـ وقد أثبت ـ عن طريق الدراسة والبحث ـ أن عمل عمر على تحقيق مصالح الناس، إنما كان في ضوء التزامه ابتداء ـ والمسلمين معه ـ بالنصوص الدينية في القرآن والسنة (ص 65).

56 ـ وقد ذكر من بين مصادره :
«عمر بن الخطاب الفقيه المجتهد» للأُستاذ الشيخ محمد أحمد السنهوري، محاضرات ألقيت على طلبة الدراسات العليا بكلية الحقوق، جامعة القاهرة، دبلوم الشريعة في العام الجامعي 1962 ـ 1963.

57 ـ وهكذا كان عصر الخلافة الراشدة امتداداً طبيعياً للعصر النبوي حيث واصل الصحابة رضوان الله عليهم المسيرة التي بدأها الرسول (ﷺ)، ودرّبهم وربّاهم على السير بها في الطريق الذي حدّده الله لها.

58 ـ وإذا كان العهد النبوي تحيطه هَالَةُ قَدَاسة الوحي الإلهي وجلال النبوة، فإن الصحابة في عهد الخلافة الراشدة تحملوا بأنفسهم مسؤولية «الإمامة» الدينية

«والخلافـة» عن اللـه في تطبيق «المنهج» الإلهي، محققين في ميـدان الواقع صبـغ الحياة الجديدة بالصبغة الإسلامية، مثبتين بذلك صلاحية هذا النظام للتطبيق عملياً في كل زمان ومكان عن طريق الاجتهـاد الـذي يحتمل الخطـأ والصواب، غير محتاجين إلى «إمام معصوم» !.

59 - ولم تكن اجتهاداتهم «البشرية» تحمل صفة القداسة التي يجب على بقيـة المسلمين اتباعها إلا إذا وقع إجماع الصحابة عليها، فإذ ذاك فقـط تصبح بمنزلـة مـا ورد في القرآن والسنـة النبويـة، وهو مـا عرف عنـد علمـاء الأُصول بـالإجمـاع وهو المصدر الثالث للتشريع.

60 - أما اجتهاداتهم التي لم يتفقوا عليها، فهي من جهة حجة على أن موضوعاتهـا مـا تزال ميادين فسيحة للاجتهاد في المستقبل، وهي من جهة أُخرى إضافات قيمة للنصوص الشرعية يستطيع المجتهدون أن يستنيروا بهـا في تفهم روح الشريعـة، ومحاولة تحقيق مصالح الناس المتجددة في نطاقها الشرعي.

61 - **فقهاء التابعين وتابعيهم**

ولم يكن فضل فقهاء الصحـابـة قـاصراً على المسـاهمـة في تنظيم المجتمع الإسلامي والاجتهاد في التوفيق بين مصالحه المستجـدة وبين النصوص الشرعيـة، بل كان من فضلهم أيضاً تكوين جيل من فقهاء التابعين يواصلون بدورهم حمل الأَمانة إلى من بعدهم، فكان فقهاء في كل من : المدينة المنورة، ومكة المكرمـة، واليمن، واليمامة، والكوفة، والبصرة، والشام، وخراسان، ومصر، والقيروان، والأَندلس.

62 - وأغنى فقهاء هذه الأَمصـار الثروة الفكريـة الإسلاميـة بعملهم واجتهـاداتهم التي جمع بعضها في عدة مجلدات.

63 ـ ويعكف كثير من طلبة الدراسات العليا في مختلف الجامعات الإسلامية على دراسة كثير من جوانب اجتهادات هذه المرحلة ـ قبل نشأة المذاهب ـ، بل إن بعض هذه الدراسات قد تم طبعها مثل موسوعة فقه ابراهيم النخعي (ص. 158 و 867 ضمن سلسلة فقه السلف، فقه اثنين وسبعين فقيها، ما بين صحابي، وتابعي، وتابع تابعي عدا الأئمة الأربعة وتابعيهم (جامعة مكة).

64 ـ اختفاء الاجتهاد الجماعي

وما أن انتهت أيام الخلافة الراشدة حتى اختفى الاجتهاد الجماعي، لأن بني أمية ألغوا الشورى. فعكف الفقهاء في المساجد على الاجتهاد الفردي النظري، بعيدين عن الحياة اليومية التي كان لتفاعل الاجتهاد معها في عصري النبوة والخلافة الراشدة دور فعال في إغنائه وحيويته.

65 ـ قال المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف في كتابه «مصادر التشريع الإسلامي فيما لانص فيه» : «وكان من الحكمة والمصلحة أن يستمر هذا النظام، وأن يكون إلى جانب كل خليفة أو والٍ من خلفاء المسلمين وولاة أمورهم «جماعة تشريعية» مكونة من رؤوس المسلمين وخيارهم يرجع إليهم في حكم ما يجد من الحوادث مما ليس فيه قرآن ولا سنة، ويعمل بما اتفقوا عليه.

66 ـ وأن يتطور هذا النظام بوضع نظام لاختيار أعضاء هذه الجماعة ممن يوثق بعلمهم بالدين وبصرهم بشؤون الحياة، ونظام لكيفية اجتماعهم وتشاورهم وقانونية الحكم الذي اتفقوا عليه. ولو وقع ذلك لما جمد التشريع الإسلامي، وَوَقَفَ عن مُمَاشاة الزمن وعن التطور بتطور المسلمين» (165 ـ 168).

67 ـ **نشأة الثقافة العربية لخدمة القرآن وتمكين دارسيه من فهمه واستنباط الأحكام منه**

فجُمِعَ الأدب العربي واللغة العربية، ووضع النّحْوَ والبَلاَغَة، وجُمِع الحديث النبوي وآثار الصحابة.

68 ـ وألف إمام أهل المدينة مالك بن أنس كتاب «الموطأ»، وهو أقدم كتاب وصل إلينا في فقه أهل السنة، جمع فيه ما صح عنده من الحديث النبوي وفقه أهل المدينة وما عليه عملهم.

69 ـ «وفي ترتيب المدارك» (2 / 73) أن أبا جعفر المنصور هو الذي أشار على مالك بتأليف الموطأ ونصحه بأن يتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر ورُخَص ابن عباس وَشَوَاذّ ابن مسعود. ويقصد أواسط الأُمور، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة. وفي خبر آخر (2 / 72) أن أبا جعفر المنصور أراد أن يجمع الأُمة عليه فقال له مالك : «إن أصحاب رسول الله تفرقوا في البلاد فأفتى كل في مِصْره بِما رأى».

70 ـ وممن أخذ الموطأ عن مالك إمام الأَحناف ومؤلف الكتب العديدة في مذهبهم محمد بن الحسن الشيباني. وروايته للموطأ من أهم المصادر المعتمدة عند الأَحناف، وَشَرَحَها الكثير منهم. وهي مطبوعة.

71 ـ وممن أخذها عنه أيضاً تلميذُه العظيم الإمام محمد ابن إدريس الشافعي. وكثير من أحاديث مسنده مروي عنه، وهو مطبوع في القاهرة.

72 ـ كما أن كثيراً من أحاديث الموطأ، مروية في صحيحي البخاري ومسلم ـ وهما أصح كتب الحديث النبوي ـ ومسند أحمد، وبقية كتب السنن.

73 ـ أصول الفقه

وكانت القفزة الصاروخية الجبارة التي حققتها الثقافة العربية الإسلامية في ميدان الدراسات الاجتهادية، هي تأليف الإمام الشافعي رحمه الله لكتابه «الرسالة» التي وضع فيها مِنْهَجاً علمياً محدّداً مضبوطاً لتنظيم عملية الاجتهاد تنظيماً محكماً.

74 ـ وقد لاحظ الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه الرائد : «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» أن موضوع الاجتهاد بالرأي الذي ينظم أُصول الفقه ويقرر قواعده، هو أول ما نبت من النظر العقلي عند المسلمين. وأن هذه الناحية هي أقل نواحي التفكير الإسلامي تأثّراً بالعناصر الأَجنبية (ص 123). وبين ما في «الرسالة» من مظاهر التفكير الفلسفي (ص 244 ـ 245).

75 ـ كما أفاض الدكتور علي سامي النشار في «مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي» في الحديث عن صلة «الرسالة» بالبحث الفلسفي، واعتبار الشافعي في العالم الإسلامي وفي الدراسات الإسلامية، مقابلاً لأَرسطو في العالم الهِلِّيني وفي الدراسات اليونانية (ص 64).

76 ـ كما اعتبر هذه الناحية هي الناحية الْمُعَبِّرة عن الحضارة الإسلامية كلها، والتي يمكن أن يُستَمَدّ منها الطابع الأَساسي المميز للحضارة الإسلامية (ص 237).

77 ـ وإذا كان قول النشار عن الشافعي أنه أعظم شخصية أنجبها الإسلام، قابلاً للمناقشة فإن الأَمر الذي لاشك فيه أن الشافعي كان عبقرية غير عادية، وأن الإسلام يستطيع أن يُبَاهِيَ به كبار عباقرة الدنيا في كل العصور.

78 - وقال النشّار في «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام» (ج 1. ص 54) عن علماء الأُصول إنهم انتجوا تفكيراً منطقياً جديداً، وكشفوا عن المنهج التجريبي، الذي عرفته أوروبا بعد ذلك وسارت في ضوئه إلى حضارتها.

79 - شروط الاجتهاد

ونظرا لهذه القيمة العظمى للإمام الشافعي بصفته «فيلسوف الاجتهاد في الإسلام» فإني أنقل هنا عن «الرسالة» ما قاله عن الشروط التي يجب توفرها فيمن يمكنه ممارسة الاجتهاد، سواء من الناحية العلمية أو التكوين العقلي :

80 - «ولم يجعل الله لأَحد بعد رسول الله أن يقول إلا من جهة علم مضى قبله، وجهة العلم بعد الكتاب والسنة والآثار، وما وصفت من القياس عليها».

81 - «ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها، وهي العلم بأحكام كتاب الله فرضه وأدبه وناسخه ومنسوخه، وعامه وخاصه، وشاذه».

82 - «ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله، فإذا لم يجد سنة فإجماع المسلمين، فإن لم يكن إجماع فالقياس».

83 - «ولا يكون لأَحد أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى قبْلَه من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم، ولسان العرب».

84 - «ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل، وحتى يفرق بين المشتبه ولا يعجل بالقول به دون التثبيت».

85 ـ «ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه لأنه قد ينتبه بالاستماع لترك الغفلة، ويزداد به تثبيتاً فيما اعتقد من الصواب».

86 ـ «وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه، حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك».

87 ـ «ولا يكون بما قال أعنى منه بما يخالفه حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك إن شاء الله».

88 ـ «فأمَّا من تمّ عقله ولم يكن عالماً بما وصفنا فلا يحل له أن يقول بقياس. وذلك أنه لا يعرف ما يقيس عليه».

«كما لا يحل لفقيه عاقل أن يقول في ثمن درهم ولا خبرةَ له بسوقه».

89 ـ «ومن كان عالماً بما وصفنا بالحفظ لا بحقيقة المعرفة، فليس له أن يقول أيضاً بقياس لأنه قد يذهب عليه عقل المعاني، وكذلك لو كان حافظاً مقصر العقل أو مقصراً عن علم لسان العرب، لم يكن له أن يقيس من قبل نقص عقله عن الآلة التي يجوز بها القياس».

90 ـ «ولا نقول يسع هذا ـ والله أعلم أن يقول أبداً إلا اتباعاً، لا قياساً».

91 ـ وقد علق محقق «الرسالة» العلامة الكبير أحمد محمد شاكر، رحمه الله على هذا النص بقوله : «وهذه الدرر الغالية، والحكم البالغة، والفقر الرائعة، هي أحسن ما قرأت في شروط الاجتهاد» (ص 509.ط الحلبي 1358 هـ، الفقرات 1468 ـ 1479).

92 ـ وفي الملحق (1)، نص حديث في نفس الموضوع للمرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف.

93 ـ **مقاصد الشريعة**

واستمر الأُصوليون والمتكلمون حوالي ستة قرون بعد الإمام الشافعي عاكفين على ترديد ما قاله الشافعي وشرحه والتعليق عليه، إلى أن بدأ بعض المجتهدين حواليْ القرن الثامن الهجري يحومون حول اتمام ما ظهر من نقص في منهاج الشافعي. وجاء إكماله من أقصى الغرب الإسلامي على يد الإمام الكبير أبي إسحاق الشاطبي الأندلسي الغرناطي في كتابه العظيم «الموافقات».

94 ـ وهنا أترك الكلمة لصديقنا العلامة الشيخ محمد أبو زهرة ـ الذي أغنى المكتبة الاجتهادية بثمانية كتب عن الأئمة المتبوعين، فقد قال في كتابه : «الشافعي، حياته وعصره، آراؤه وفقهه» (ص 346، ف 230) : «...إن علماء الأُصول ـ من لدن الشافعي ـ لم يكونوا يتجهون إلى بيان «مقاصد الشريعة» وما تتجه إليه في جملتها وفي تفصيلها من أغراض ومعان، وإن ذكروا حكماً وأوصافاً مناسبة في بيان القياس أقلوا في القول ولم يستفيضوا فيه، لأنهم يعتبرون الأحكام منوطة بعللها لا بأوصافها المناسبة وحكمها. وبذلك كان بيان «المقاصد العامة للشريعة» التي جاءت من أجلها الأحكام، وارتبطت بها مصالح الناس بالمحل الثاني عندهم، فكان هذا نقصاً واضحاً في «علم أصول الفقه» لأن هذه المقاصد هي أغراض الفقه وهدفه».

95 ـ ولقد وجد في عصور إسلامية مختلفة علماء يسدون ذلك النقص، ويجلون هذه الناحية في بحوث كتبوها ورسائل دونوها.

96 ـ فكان لابن تيمية في هذا جولات صادقة.

97 ـ ولابن القيم ـ تلميذه ـ كتابات مستفيضة في هذا في شتى كتبه. وخصوصاً «أعلام الموقعين عن رب العالمين».

98 ـ وللعز ابن عبد السلام في «قواعده» اتجاه صادق، فجلى جزءاً كبيراً من أغراض الشارع ومقاصده وسار في ذلك خطوات شاسعة.

99 ـ ولقد حمل العبء كاملاً، وأوفى على الغاية أو قارب، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الفقيه المالكي، المتوفى سنة 790 هـ = 1388م في كتابه «الموافقات». فقد بين مقاصد الشرع الإسلامي بياناً كاملاً، وربط بينها وبين قواعد الأُصول، وتكلم في مصادر ذلك الشرع على ضوء مقاصده وغاياته، وبذلك فتح طريقاً جديداً في علم الأُصول، وهو الطريق الذي يجب أن يكون.

100 ـ **وانقطع الاجتهاد**

إذا كان إلغاء نظام الشورى الإسلامي لم يحل بين الفقهاء المجتهدين من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وبين مواصلة اجتهادهم الفردي، فإنه قد أثر أثراً بالغاً على عملهم نفسه.

101 ـ ذلك أن النظام الإسلامي مرتبط ارتباطاً عضوياً بالممارسة اليومية، كما سبق أن لاحظنا عند الحديث عن المرحلتين النبوية، والراشدية. وإقصاء المجتهدين عن ميدان التوجيه والمواءمة بين النصوص الشرعية وبين تحقيق

مصالح المجتمع الإسلامي الذي هو الهدف المقصود من شريعة الإسلام، جعلهم يتجهون بصفة خاصة إلى الميدان النظري، والبعد شيئاً فشيئاً عن ميدان الممارسة.

102 - وكثرت المناهج الفقهية وتنوعت. وأهمها فقه الحجازيين وفقه العراقيين. وشَعَر أهل كل جهة أنهم في حاجة إلى معرفة ما عند الآخرين، ومن أصول منهج مالك في الاجتهاد مراعاة الخلاف.

103 - وقد جاء حماد وَلَدُ أبي حنيفة للأخذ عن مالك، وكان مالك يسأله أحيانا: «هل سمعت من أبيك في هذه المسألة شيئاً ؟»، وقضى محمد بن الحسن بالمدينة حوالي ثلاث سنوات يأخذ عن أهلها ويناقشهم ويحاورهم. واجتمع أبو يوسف مع مالك بالمدينة وذاكره ورجع عن بعض آراء شيخه أبي حنيفة إلى رأي مالك.

104 - وألف محمد بن الحسن «كتاب الحجة على أهل المدينة». وقد طبع في الهند القطعة الموجودة منه في أربعة أجزاء - مع شرح - ويقول ناشره إنها نحو نصفه.

كما ألف الشافعي «الرد على محمد بن الحسن»، دافع فيه عن رأي مالك في مسائل انتقدها عليه ابن الحسن.

105 - وكان الأئمة المجتهدون حريصين على أن يُكَوِّنوا في أنفس طلبتهم ملكة الاستقلال الفكري. فكانوا، وهم يدربونهم على الاجتهاد، يَنْهونَهُم عن تقليدهم ويلحون عليهم في وجوب الاعتماد على الدليل والبرهان. والأقوال المروية في

هذا، عن مالك وأبي حنيفة، ومحمد بن الحسن والشافعي، وأحمد بن حنبل وغيرهم متواترة.

106 ـ ونشأت جماعة من المجتهدين المختارين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كما أمر الله، فيتبعون ما قام لهم الدليل على صحته من غير التقيد برأي إمام واحد، على أساس أن الاجتهاد الإسلامي متكامل، مصدره واحد، وهدفه واحد، وهو محاولة تحقيق مصالح الجماعة الإسلامية في نطاق التوجيه الإلهي في القرآن والسنة. وذلك هو منهج جميع فقهاء أهل السنة والجماعة رحمهم الله.

107 ـ ولكن بعض الطلبة بهرتهم شخصية أستاذهم، فتجاوزوا في تعظيمه الحد المشروع، وصاروا يعتبرون كل ما قاله حجة. وكونوا تكتلاً فيما بينهم، فكانت المذهبية وكان التقليد والتعصب.

108 ـ وكان للمذهبية إيجابياتها وسلبياتها. فمن إيجابياتها في المغرب العربي، أنها كانت حركة شعبية ساعدت الشعب على مواجهة التيارات الهدامة الهادفة إلى تفريق كلمة الجماعة، والانحراف بها عن الاتجاه السُّني الصحيح، مثل الشيعية الغالية والخارجية وغيرها.

109 ـ وكان من سلبياتها الخطيرة أن التعليم في نطاق المذهب أبطل واجباً شرعياً، وهو اشتراط الاجتهاد في القاضي ـ مثلا ـ فاعتبره الفقهاء شرطاً ملغى لانعدام المجتهدين.

110 ـ الدعوة إلى الاجتهاد ومحاربة التقليد

واستمرت الدعوة ـ طوال العصور ـ للاجتهاد ومدارسة الشريعة في مصادرها الأساسية، وتجلت بصفة خاصة في دراسة الحديث النبوي، والعمل بالأحاديث التي خالفها المذهب.

111 - وكان للحملة الشرسة التي أثارها في الأندلس الإمام الحافظ أبو محمد ابن حزم الظاهري ضد التقليد أثرها العميق في الفكر الأسلامي مغرباً ومشرقاً، فانتعشت الدراسات الحديثية والأصولية. وقد ساعدته عبقريته الجبارة وثقافته الموسوعية، على أن يفرض نفسه على تاريخ الفكر البشري، فهو واضع علم تاريخ الأديان الذي أثر تأثيراً عميقاً على زعزعة سلطان الكنيسة في أوروبا في القرون الوسطى، (راجع محمد ابراهيم الكتاني : هل أثر ابن حزم في الفكر الأوروبي في القرون الوسطى ؟ مجلة «البينة» العدد 2. دو الحجة 1381 هـ. يونيه 1962. ص 68 - 87).

112 - وكان شيخ الإسلام ابن تيمية أعظم مجتهد أنجبه الإسلام بعد أئمة المذاهب، وكان عميق المعرفة بتفسير القرآن، محدثاً حافظاً أصولياً ناقداً، فقيهاً عارفاً بآراء الفقهاء من مختلف المذاهب إلى جانب معرفته بآراء مختلف الفرق، وهو ناقد المنطق الصوري، من وجهة نظر عقلية، بعدما بقي العلماء سنين طويلة يقتصرون على إصدار الفتاوي بتحريمه.

وقد اضطُهد رحمه الله من أجل دعوته لإحياء الاجتهاد حتى إنه توفي في السجن لرفضه التخلي عن آرائه الاجتهادية.

113 - وكان له فضل عظيم على الدعوة للاجتهاد في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وخصوصاً في العصر الحديث.

114 - وبذل السلطان محمد بن عبد الله العلوي رحمه الله، بالمغرب، جهوداً كبيرة في العمل على نشر دراسة الحديث في مدينة مراكش وغيرها، وألف بنفسه التآليف. وندب الفقهاء لشرح كتب الحديث. وأرشد للرجوع إلى كتب

115 - وفي عصره، أنجبت جامعة القرويين بفاس، الإمام محمد بن علي السنوسي دفين جغبوب، داعية العمل بالحديث النبوي وصاحب التآليف المهمة في هذا الموضوع.

116 - **وجاء الاستعمار**

وكان الهدف الأساس للاستعمار الصليبي في جميع أنحاء العالم الإسلامي هو تحويل المسلمين عن دينهم إلى النصرانية أو الإلحاد واللائكية وأشباهها، بدعوى أن الإسلام لا يتناسب مع العصر الحديث.
وساعده على ذلك ما كان عليه الفكر الإسلامي في جميع أنحاء العالم الإسلامي من تخلف وانحطاط. كما كان لجمود الفقه الإسلامي وتحجره وعجزه التام عن مواجهة المرحلة الخطيرة التي يوجد فيها الإسلام هدفاً للإبادة المنظمة بعد أن أصبح أعداؤه يقتلعون جذوره من نفوس الأطفال والشباب.

117 - وارتفعت صيحة الانبعاث الإسلامي هذه المرة - بعد موت حقيقي استمر عدة أجيال - من أفغانستان، حيث دعا موقظ الشرق جمال الدين الأفغاني جماهير المسلمين إلى أن يواجهوا الاستعمار الصليبي مجتمعين، فيثوروا ثورة واحدة من أقصى العالم الإسلامي إلى أقصاه. مستمدين القوة والتوجيه من القرآن الذي خلق أمتهم من العدم.

118 - وألف رسالة «الرد على الدهريين» بين فيها خطر الإلحاد واللائكية على المجتمعات البشرية. وقد ساعدته معرفته باللغات الأوربية وجولاته فيها، وفي الولايات المتحدة، وروسيا على معرفة حقيقة مبلغ التخلف الفكري الذي يتردى فيه المسلمون. فاهتم بالدعوة إلى محاربة التخلف، واكتساب أسباب القوة الفكرية والاجتماعية، فدعى إلى إحياء الاجتهاد وإحياء نظام الشورى

الإسلامي، واعتبر أن النظام البرلماني الأُوروبي أقرب الأنظمة إلى الشورى الإسلامية. وعلى العكس من ذلك لا حظ خطر الدعوة الاشتراكية الحديثة، ودعى إلى إحياء تقاليد الاشتراكية العربية والعدالة الاجتماعية الإسلامية.

119 ـ وأسس مع تلميذه ومريده محمد عبده جمعية سرية للعمل على تحقيق هدف التحرير الذي يعمل له، هي « جمعية العروة الوثقى» تضم أعضاء منبثين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأصدر مع محمد عبده بباريس مجلة باسمها كان لها تأثير عظيم في أفكار قرائها في مختلف البلاد العربية،مع أنها لم تصدر منها إلا أعداد قليلة، لعجزهما عن الإنفاق عليها.

120 ـ ولم يلبث أن اختلف مع محمد عبده، الذي رأى أن المسلمين عاجزون عن الاستجابة لهذه الدعوة، بعد أن انقطعت صلتهم بالعمل بالقرآن والخضوع لتوجيهاته، وأنه يجب العمل أولا على ردهم إلى القرآن، وتعريفهم بالإسلام الصحيح الذي يجهلونه، ونفذ بنفسه الخطة التي اقترحها فجدد في الدراسات القرآنية، ودعا إلى تحكيم القرآن وعدم التحكم عليه. ودرس جيدا «الموافقات» واستفاد منها على نطاق واسع، وألف وحاضر وكتب المقالات والفتاوي. ودعا إلى نبذ كتب المتأخرين، والاستعاضة عنها بما كتبه علماء عصور النهضة الإسلامية، ودافع عن الإسلام، ولخص منهجه كله في كلمة واحدة هي التربية الإسلامية العملية، فاتجه إلى إصلاح الأزهر. وفكر في تأسيس «دار الدعوة والإرشاد» لتكوين الدعاة والمرشدين. ـ وقد أسسها بعده تلميذه رشيد رضا، وتعلم فيها بعض المغاربة.

121 ـ ودعا إلى نشر كتب المجتهدين، وكتب للسلطان المولى عبد العزيز رحمه الله، ولقاضي فاس يطلب مخطوطات «المدونة» لنشرها.

122 ـ وساهم السلطان عبد الحفيظ في المغرب وبعض الناشرين المغاربة بنشر بعض الكتب داخل المغرب وخارجه.

123 ـ كما نشر بطل التحرير محمد الخامس رحمه الله، على عهد الحماية، ووزارة الأوقاف بعد استقلال المغرب ـ وما تزال ـ بعضاً آخر.

124 ـ كما أسس تلميذ محمد عبده السيد الإمام محمد رشيد رضا رحمه الله مجلة «المنار» لتواصل عمل «العروة الوثقى».وقد استمرت في نشاطها إثنتين وثلاثين سنة، وقد اهتمت بموضوع إحياء الاجتهاد إهتماماً كبيراً، ونشرت من كتب التراث الاجتهادي عدداً كبيراً.

125 ـ وحمل هذه الدعوة إلى المغرب شيخنا الشيخ أبو شعيب الدكالي رحمه الله. فأحيا دراسة تفسير القرآن بعد انقطاعها مدة طويلة، ودرس صحيح البخاري في فاس ومراكش والرباط. وساعده علمه الواسع بتفسير القرآن وعلومه، وبعلوم الحديث والفقه والأدب العربي على أن جمع حوله نخبة من الطلبة، كما ساعده ترؤسه للدروس السلطانية على عهد السلاطين، المولى عبد الحفيظ، والمولى يوسف ومحمد الخامس رحمهم الله، على تبليغ الدعوة للعلماء الذين كانوا بعيدين عنها.

126 ـ وعلى يديه تكون شيخنا محمد بن العربي العلوي رحمه الله، وتثقف ثقافة اجتهادية متينة. وكان رحمه الله علامة موسوعياً، فقيهاً متين الثقافة، محدثاً ناقداً مفسراً لغوياً أديباً مصلحاً داعيةً، مجتهداً مجاهداً بطلاً.

127 ـ ويقتضيني واجب الوفاء بالجميل، أن أعترف ـ بهذه المناسبة بفضله الكبير علينا بتحريرنا من ربقة الخرافة والجمود والتقليد والتعصب للمذهبيين، وما

بذله معنا من جهود مضنية لتدريبنا على الاجتهاد الشرعي السليم، وإرشادنا إلى قراءة مؤلفات سلفنا الصالح من رجال العصور الإسلامية الزاهرة، ورجال الانبعاث الإسلامي الحديث وتنبيهنا لعيوب مؤلفات عصور التدهور والخرافة والتقليد والتعصب. فجزاه الله عنا وعن دينه وبلاده وأمته خير الجزاء.

128 - ورحم الله أصدقاءنا وزملاءنا الذين استفادوا معنا من تربيته في هذا المجال : محمد غازي وعلال الفاسي وعبد العزيز ابن ادريس العمروي ومحمد المختار السوسي والصديق العلوي.

129 - راجع لعلال الفاسي :

1 - النقد الذاتي.
2 - دفاع عن الشريعة.
3 - مقاصد الشريعة.
4 - معركة اليوم والغد.

وراجع عن فكر علال :

1) أحمد حماني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر : «محمد علال الفاسي المجدد المجتهد». («الأصالة»، مجلة تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائر)، السنة الثانية العدد 20، ربيع 1394/2 هـ.ماي 1974م، ص 153-190.

2) فهمي جدعان دكتور الدولة في الآداب (السوربون)، وأُستاذ الفلسفة والفكر العربي بالجامعة الأُردنية :

«أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث» ص 333 ـ 338 ص 372 ـ 379.

130 ـ وأسمح لنفسي بهذه المناسبة ـ أن أتحدث عن مجتهد مغربي متأخر، لم ينشر عنه شيء إلى الآن، مع أن دواعي الحديث عنه كثيرة. كما سنرى.

ذلك هو الشيخ محمد حسنًا ـ بتشديد النون ـ دفين مدينة فاس، ابن الشيخ محمد ماء العينين الشنقيطي الشهير ـ دفين تزنيت.فقد كان الشيخ حسنّا ينكر تقليد أي مذهب من المذاهب الأَربعة ويرى العمل بالحديث وحده.في ذلك يقول :

لست لمالك، ولا للشافعي   ولا لحنبل ولا للرابع
بل اتباعي للنبي الشافع   وأسأل العفو لكل تابع

131 ـ وكان لوالده الشيخ ماء العينين ميول اجتهادية تنبيء عنها بعض مؤلفاته المطبوعة بفاس.

132 ـ وكان الشيخ ماء العينين ممثلاً لسلطان المغرب في الصحراء، وعندما هجم الجيش الفرنسي على إقليم شنچيط جنّد الشيخ متطوعين من الصحراء بقيادة ولده محمد حسنّا هذا ليقاوموا المعتدين، مع الجيش المغربي الذي وجهه السلطان المولى عبد العزيز رحمه الله. ثم جاء إلى فاس في طريقه إلى الحج ولما احتلها الجيش الفرنسي سجنه، وأدركه أجله بعيد إطلاق سراحه ـ فيما

أظن ـ بقليل 1334 هـ أو 1335. وهو مدفون بزاوية والده بدرب السراج بالطالعة، رحمه الله .

133 ـ وأذكر بهذه المناسبة أنه زارني مرة أحد الحزْميين، وأثناء المذاكرة وجه إليَّ سؤالاً إنكاريا بأنه يلاحظ علي أني لا ألتزم بجميع آراء ابن حزم. فأجبته بأن هذه ليست مسألة مطروحة بل المسألة المطروحة على المسلمين اليوم هي إحلال قوانين إسلامية مكان القوانين الوضعية الأجنبية التي فرضها الاستعمار على الأمم الإسلامية، بحيث تكون هذه القوانين محققة لمصالح المسلمين المستجدة، وهم يستطيعون أن يحققوا هذا الهدف الإسلامي الملح والمستعجل، عن طريق الاستفادة من اجتهادات الفقهاء المسلمن الأقدمين، من جهة، بما فيهم ابن حزم نفسه أو من اجتهادات جديدة لمواجهة الحالات التي جدت اليوم في الدنيا ولم تكن معروفة من قبل، في نطاق النصوص والقواعد الشرعية الخالدة.

134 ـ أي أننا اليوم في حاجة إلى تطبيق منهج الاجتهاد الشرعي الذي قننه الشافعي والشاطبي ومارسه ابن تيمية وابن قيم الجوزية وأمثالها ودعا إلى إحيائه عشرات المفكرين المسلمين المحدثين. وهو اجتهاد مضبوط بالقواعد المحددة، وفي نفس الوقت متفتح على مختلف التجارب الاجتهادية السابقة، وقابلٌ في نطاق المستقبلية الاجتهادية، لإضافة تجارب جديدة لانهاية لها. وتلك هي، بدون استثناء، أعظم معجزة خالدة للقرآن العظيم، الذي تضمنت خمسمائة آية منه احكام كل ما يجد في الدنيا إلى آخر الدهر من حوادث ومستجدات، والتي أوجب الله على المجتهدين المسلمين أن يستنبطوا من القرآن أحكام كل ما يستجد منها في كل زمان.

وتلك هي الضرورة الشرعية الحتمية المستعجلة لإحياء الاجتهاد الذي تطالب به توصية «ندوة الأكاديمية».

135 ـ كيف نحيي الاجتهاد ؟

والآن : كيف نحيي اجتهاداً انقطع منذ قرون ؟ ولعلنا بعد هذه الجولة الطويلة القصيرة في نفس الوقت، في علم الاجتهاد وآفاقه وميادينه وشروطه ومناهجه، نستطيع أن نرسم بوضوح معالم محددة للعمل على السير بخطى ثابتة لإحيائه من جديد بعدما حنَّطناه قروناً طويلة.

136 ـ فآيات الأحكام معروفة باعيانها، محفوظة ضمن القرآن الذي حفظه الله لنا غضّاً طرياً كأنما أُنزل الآن. والسنة النبوية المبينة له معروفة مضبوطة بفضل التوفيق الإلهي الذي هيأه لأئمة الحديث ـ رحمهم الله وجزاهم أحسن الجزاء ـ فهي الآن بين أيدينا «ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك» كما قال (ﷺ).

واللغة العربية التي كتب لها الخلود بفضل القرآن، قد تضافرت جهود الأجيال المتعاقبة، من العرب والعجم قديماً وحديثاً، على خدمتها واستحداث الوسائل لتسهيل تعليمها لغير العرب. ومناهج الاجتهاد الإسلامي العلمية العقلية المضبوطة ما تزال بين أيدينا في مصادرها الأُولى ـ بما فيها مقاصد الشريعة ـ قبل أن تمسخها وتشوهها عصور الانحطاط والتقليد والجمود والتخلف في المختصرات والأنظام المعقدة التي لا حياة لها، وفي المؤلفات الحديثة العديدة التي ألفها أنصار إحياء الاجتهاد في العصر الحديث، وتجارب المجتهدين من فقهاء الإسلام ـ قبل نشأة المذاهب وبعدها ـ عبر الأجيال والعصور، محفوظة يستطيع الدارس أن يتعرف عليها ويستفيد منها في مسايرة الخط الإسلامي السليم في الاجتهاد. والموهبة العقلية الخاصة التي اشترطها الإمام الشافعي فيمن يجوز له ممارسة الاجتهاد شرعاً ما تزال موجودة بين المتعلمين من المسلمين على نطاق واسع، ولله الحمد.

137 ـ ومن الواضح أن هذه الحصيلة الثقافية المحددة في كلام الشافعي وعبد الوهاب خلاف مثلا ـ تتطلب إعدادا خاصا وتكوينا فنيا، وتلك مسؤولية الدولة

التي تكوِّن الأطر التي تحتاجها في كثير من الميادين. فيجب عليها ـ شرعا ـ أن تولي هذه المسألة التي وضحنا مبلغ أهميتها القصوى من الناحية الدينية والحضارية والفكرية « والمستقبلية » بالنسبة لحياة الجماعة الإسلامية وحيويتها وفعاليتها وضمان مستقبلها، ما هي جديرة به من عناية واهتمام، وذلك بتكوين فئة من الطلبة تكوينا تقنيا على أساس البرنامج المحدد، وهو تكوين يتطلب عدة سنوات ـ كما هو واضح. ولعل ذلك يتطلب ـ فيما يبدو ـ تأسيس مركز دراسي خاص : معهدٍ أو مدرسةٍ أو غير ذلك من الأسماء بحيث يكون هدفها هو هذا التكوين.

أما المؤسسات التعليمية بالمغرب فهي مرتبطة ارتباطا وثيقا ببرامج التعليم الأجنبية، وذلك ما يجعلها بعيدة عن أن تقوم بدور مساعد في هذا الموضوع. ولعل من الممكن ـ على المستوى البعيد ـ أن تحور الوزارة برامج تعليمها بحيث يتعلم التلميذ ثم الطالب أجزاء من البرنامج المحدد، يستطيع بعدها في مرحلة لاحقة أن يتم تخصصه في هذا الميدان.

ومن شأن تحديد الآيات والأحاديث التي على طالب الحصول على مَلَكَةِ الاجتهاد أن يدرسها دراسة مستوعبة ومتعمقة، بصفتها مصدرا للتشريع، أن يقْصِيَ عن التحكُّك بهذا الميدان، كثيرا من الدارسين لنواح أخرى من الدراسات القرآنية والحديثية ونواح أخرى غير هذه الناحية المحددة. دعك ممن تخصصوا في نواح أخرى لا صلة لها بهذا الميدان.

138 ـ وأعود مرة أخرى إلى الشيخ عبد الوهاب خلاف رحمه الله، فأنقل قوله : « الذين لهم حق الاجتهاد بالرأي هم «الجماعة التشريعية» التي توافرت في كل واحد منهم المؤهلات التي قررها علماء الشرع الإسلامي، فلا يسوغ الاجتهاد

بالرأي لفرد مهما أوتي من المواهب واستكمل من المؤهلات، لأن التاريخ أثبت أن الفوضى التشريعية في الفقه الإسلامي كان من أكبر أسبابها الاجتهاد الفردي. ولا يسوغ الاجتهاد لجماعة توافرت في كل فرد من أفرادها شرائط الاجتهاد ومؤهلاته، إلا بالطرق والوسائل التي مهّدها الشرع الإسلامي للاجتهاد بالرأي والاستنباط فيما لا نص فيه ».

« فباجتهاد الجماعة التشريعية المتوافرة في أفرادها شرائط الاجتهاد، تُنْفَى الفوضى التشريعية وتشعب الاختلافات. وباستخدام الطرق والوسائل التي مهّدها الشرع الإسلامي للاجتهاد بالرأي يؤمن الشطط، ويسار على سنن الشارع في تشريعه وتقنينه.

139 - ومن الواضح أن قول الشيخ عبد الوهاب خلاف إنه لا يسوغ الاجتهاد بالرأي لفرد، معناه أنه لا يسوغ العمل باجتهاد فرد. أما الاجتهاد النظري فإنه لا يمكن لأحد المنع منه. فمن جهة لا يمكن لطالب العلم أن يصير مجتهدا إلا بعد أن يمارس الاجتهاد مرات عديدة، يخطئ في بعضها ويصيب في بعض آخر، كما هو أمر بديهي. ومن جهة أخرى فإن من درَس مسألة وأدّاه اجتهاده إلى حكم مُعيَّن لا يمكن لكائن منْ كان أن يحوِّل فكره عما اقتنع به. نعم، إذا تدارست المسألة هيئة محترمة، جميع أفرادها ممن توفرت فيهم شروط الاجتهاد، واتفقت على رأي مغاير، فإذ ذاك ينبغي له أن يتخلى عن رأيه احتراماً لرأي الجماعة.

140 - وممن أيد وجوب الاجتهاد الجماعي خاتمةُ أئمة فقهاء المالكية غير منازع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور التونسي رحمه الله. فقد قال في كتابه «مقاصد

الشريعة» : «وإن أقل ما يجب على العلماء في هذا العصر أن يبتدئوا به من هذا الغرض العلمي أن يسعوا إلى عقد مجمع علمي يحضره أكبر العلماء بالعلوم الشرعية في كل قطر إسلامي على اختلاف مذاهب المسلمين في الأقطار. ويبسطوا بينهم حاجات الأمة ويصدروا فيها عن وفاق فيما يتعين على الأمة عمله، ويُعلموا أقطار الإسلام بمقرراتهم، فلا أحسب أحداً ينصرف عن اتِّباعهم. ويعينوا يومئذ أسماء العلماء الذين يجدونهم قد بلغوا رتبة الاجتهاد أو قاربوا، وعلى العلماء أن يقيموا من بينهم أوسعهم علماً، وأصدقهم نظراً في فهم الشريعة فيشهدوا لهم بالتأهيل للاجتهاد في الشريعة».

«ويتعين أن يكونوا قد جمعوا إلى العلم العدالة واتباع الشريعة، لتكون أمانة العلم فيهم مستوفاةً، ولا تتطرق إليهم الريبة في النصح للأمة» (ص 139 ـ 141).

141 ـ وممن نادى بوجوب الاجتهاد الجماعي الدكتور محمد سلام مذكور في موسوعته الضخمة الحافلة ـ التي قال إنه لم يسبق إليها «مناهج الاجتهاد في الإسلام»، فقد قال : «غير أننا نرى ـ مقاومة للهوى والادعاء غير الصادق الذي ينبني عليه التلبيس في أحكام الشريعة والتضليل في عرض الكلام ـ أن يكون ذلك الاجتهاد في ظل الاشتراك بين اولي الأمر من العلماء مما يسمى اجتهاداً جماعياً» (ص 425).

142 ـ ومنهم الشيخ مصطفى الزرقاء في كتابه «الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد» ـ المدخل الفقهي العام ـ وسماه «اجتهاد الجماعة» على طريقة الشورى العلمية في مؤتمرات فقهية تضم فحول العلماء من مختلف المذاهب والأقطار، ثم ذكر أن الاجتهاد المالكي قد أخذ تبدأ هذه الشورى العلمية بين علماء كل زمن في

تعديل الأحكام الفقهية عندما يتبدل فيها عرف الناس ومقاصدهم العلمية، ثم أحال في التعليق على محاضرة للمؤرخ الكبير رفيق بك العظم رحمه الله عن قضاء الجماعة وقضاء الفرد. (ج 1 ص 192 ـ 194).

143 ـ وكان تفسير المنار بدأ القول في ذلك وأعاده في تفسير آية ﴿**وَأُوْلِي الامْرِ مِنْكُمْ**﴾ (ج 5 ص 180 ـ 194 ـ 227) وقال : «فأهل الحل والعقد من المومنين إذا أجمعوا على أمر من مصالح الأُمة ليس فيه نص عن الشارع، مختارين في ذلك غير مُكْرَهِين عليه بقوة أحد ولا نفوذه، فطاعتهم واجبة».

144 ـ وتأييداً لما ذكره الأُستاذ الزرقاء عن الاجتهاد المالكي أشير إلى :

أ) هيئة الفقهاء المشاورين بالأندلس. وكان من بينهم أحياناً من ليسوا بملتزمين مذهب مالك.

ب) أن ملوك المغرب لم يكونوا يتصرفون إلا استناداً إلى فتاوي كبار الفقهاء من علماء القرويين.

145 ـ ولعل ذلك لم يتخلف إلا في بعض ظروف استثنائية.

146 ـ ولعل آخر استفتاء صدر عن القصر الملكي هو ما وجهه وزير العدل شيخنا سيدي عبد الرحمن ابن القرشي رحمه الله ـ عن أمر المولى يوسف رحمه الله إلى علماء القرويين يستفتيهم عما ورد في كتاب طبع في مصر منسوب لأحد المغاربة، وفيه عن إحدى صيغ الصلاة على النبي (ﷺ). أنها من كلام الله القديم ! وكنا إذ ذاك طلبة صغاراً بالقرويين فجلسنا بباب مقصورة القرويين ننتظر ما يجيب به العلماء، وعندي صورة شمسية للجواب وبأسفله تواقيع العلماء رحمهم الله.

147 ـ أمة واحدة

ورد في كلام المرحوم الطاهر ابن عاشور السابق، عن المجمع العلمي ـ ولعل الأولى تسميته بالمجمع الفقهي الذي اقترحه، انه يحضره أكبر العلماء بالعلوم الشرعية في كل قطر إسلامي على اختلاف مذاهب المسلمين، وكذلك قال الشيخ الزرقاء. ـ وهو كلام وجيه جداً، لأسباب عديدة منها :

أ) ان شريعة الله واحدة، وما أوجب الله مشاورة أولي الأمر ـ حسبما قدمناه ـ إلا لتوحيد الرأي.

148 ـ ب) ان الثقافة الإسلامية كانت طوال التاريخ الإسلامي ثقافة متكاملة بين مختلف أنحاء العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، كما هو معروف، ولم تكن بأي حال من الاحوال ثقافة إقليمية أو محلية. ويكفي استعراض مصادر ومراجع الفقه المالكي الأساسية في المغرب، حيث ترجع إلى المدينة ومصر وبغداد والقيروان وتونس وصقلية وبجاية وتلمسان وقرطبة وغرناطة وفاس وغيرها، إلى جانب كتب التفسير والحديث والنحو واللغة والأدب وغيرها.

149 ـ ج) إن تثبيت الاختلاف المذهبي كان من بين أسبابه ظروف محلية ووقتية خاصة. ومن بينها قلة وجود مراجع بعض المذاهب في بعض المراكز العلمية.

150 ـ د) ان مراعاة الخلاف من بين أصول مذهب مالك ـ كما تقدمت الإشارة إليه. وما زال كبار الفقهاء يشيرون في كتبهم إلى آراء أصحاب المذاهب الأخرى بمنتهى الاحترام والتقدير.

151 ـ ومن أمثلة ذلك أن الإمام شهاب الدين القرافي المالكي، صدر كتابه «الذخيرة» ـ وهو من أمهات كتب الفقه المالكي المعتمدة ـ بمقدمة طويلة في بيان مزايا المذهب المالكي، وعند ذكر منهجه في كتابه قال : «وقد آثرت التنبيه على مذاهب المخالفين لنا من الأئمة الثلاثة ومآخذهم في كثير من المسائل، تكميلاً للفائدة، ومزيداً في الاطلاع. فإن الحق ليس محصوراً في جهة. فيعلم الفقيه أي المذهبين أقرب للتقوى، وأعلق بالسير الأقوى (مخطوط خ.ع.ج. 852 ص 5).

ومع أن هذا أمر معلوم من الدين بالضرورة، فإن الضرورة دعت للتذكير به .

152 ـ هـ) وقال الدكتور محمد سلام مذكور في «مناهج الاجتهاد في الإسلام» : «وليس هناك ما يدعو إلى القول بأن معنى الاجتهاد المذهبي يتحقق الآن، مع أنه ليس هناك ما يوجبه ولا يقتضيه . فإن الدراسات الفقهية في هذا العصر دراسات تقارنية، ولا تقتصر على مذهب معين، مهما كان الدارس في أصل دراسته متخصصا في مذهب واحد، إذ مجال المقارنة الآن فسيح ميسور، وفي كل هذه الفسحة وذلك اليسر تخصب الملكات، وتتحدد النظريات، ويمكن استخراج الأحكام الشرعية من مصادرها الأصلية أو الفرعية» (ص 422).

153 ـ و) وان الوزن الثقيل جداً للمملكة المغربية في العالم الإسلامي نتيجة تاريخها الطويل والحفيل، إسلامياً وثقافياً وفكرياً وفقهياً وحضارياً، ونتيجة تاريخها المعاصر المليء بالأمجاد، يجعلها ملزمة إلزاماً أكيداً جداً بأن تتحمل مسؤوليتها الكاملة في المساهمة ـ بجانب فقهاء العالم

الإسلامي - بدورها في واجب إحياء الاجتهاد، لمواجهة المشاكل والتحديات المعاصرة، التي تعترض المسلمين في كل مكان، بما في ذلك المغرب، وتتلافى ما فاتها من ذلك وقتاً طويلاً. وليس بمعقول بأية حال من الأحوال أن يستمر المغرب في التغيب عن المساهمة في هذا الواجب المصيري للأمة الإسلامية، أو أن يحاول مواجهة نفس المشاكل التي يواجهها بقية العالم الإسلامي مواجهة محلية أو إقليمية، كأنه ليس عضواً رئيسياً في الجماعة الإسلامية، له وزنه الثقيل ودوره الفعال الذي ينتظره بصفته عضواً في جسم حي يتفاعل مع بقية الأعضاء.

154 - مشاكل تنتظر الاجتهاد

لقد كان من الآثار السلبية لعدم وجود جماعة من الفقهاء الذين تتوفر في كل واحد منهم شروط الاجتهاد معترف بها من جماعة المسلمين، تتولى إصدار الحكم فيها أن تعذر إصدار الحكم الشرعي في كثير من الأمور.

155 - ويستعرض الشيخ الطاهر ابن عاشور رحمه الله بعض المشاكل فيقول :

أ) «لم يبق للشك مجال يخالج به نفس الناظر في أن أهم مقصد للشريعة من التشريع انتظام أمر الأمة وجلب الصالح لها ودفع الضرر والفساد عنها.

156 - ب) وقد استشعر الفقهاء في الدين كلهم هذا المعنى في خصوص صلاح الأفراد ولم يتطرقوا إلى بيانه وإثباته في صلاح المجموع العام، ولكنهم لاينكر أحد منهم أنه إذا كان صلاح الأفراد وانتظام أمورهم مقصد الشريعة فإن صلاح أحوال المجموع وانتظام أمر الجماعة أسمى وأعظم، وهل يقصد إصلاح البعض إلا لأجل إصلاح الكل ؟ بل وهل يتركب

من الأجزاء الصالحة إلا مركب صالح... فعلينا أن نتخيل الأُمة الإسلامية في صورة الفرد الواحد من المسلمين، فنعرض أحوالها على الأحكام التشريعية كما تعرض أحكام الفرد، فهناك يتضح لنا سبيل واضحة من الإجراء التشريعي في أحوال الأُمة.

157 ـ ج) وان مما لا ينبغي أن ينسى عند النظر في الأحوال العامة الإسلامية نحو التشريع هو باب الرخصة.

فإن الفقهاء فرضوا الرخص ومثلوا لها في خصوص أحوال الأفراد، ولم يعرجوا على أن مجموع الأُمة قد تعتريه مشاق اجتماعية تجعله بحاجة إلى الرخصة، وليس القول في سد الذرائع ورعي المصالح المرسلة بأقل أهمية من القول في الرخصة بحيث لا يفرضان في أحوال الأفراد، بخلاف الرخصة».

وبعد كلام طويل عن «واجب الاجتهاد» ومسؤولية المقصرين في القيام به قال :

158 ـ د) «والتقصير في إيجاد الاجتهاد يظهر أثره في :

ـ الأحوال التي ظهرت متغيرة عن الأحوال التي طرأت، ولم يكن نظيرها معروفاً في تلك العصور. فهم بحاجة ـ في الأقل ـ إلى علماء يرجحون لهم العمل بقول بعض المذاهب المقتدى بها الآن بين المسلمين ليصدروا عن عمل واحد.

159 - هـ) وفي كل هذه الأحوال، قد اشتدت الحاجة إلى اعمال النظر الشرعي، والاستنباط والبحث عما هو مقصد أصلي للشارع، وما هو تبع، وما يقبل التغير من أقوال المجتهدين وما لا يقبله».

160 - و) ونستعرض هنا أمثلة إجمالية، منها :

أ) مسائل بيع الطعام.
ب) ومسائل المقاصة.
ج) ومسائل بيع الآجال.
د) ومسائل كراء الأرض بما يخرج منها.
هـ) ومسألة الشفعة في خصوص ما يقبل القسمة، ففي كثير منها تضييق مقاصد الشريعة الإسلامية.

161 - ويستعرض الدكتور محمد سلام مذكور في «مناهج الاجتهاد في الإسلام» أمثلة أخرى فيقول : «فهذه العقود المتنوعة التي جدت :

أ) كعقود التأمين بأنواعها.
ب) وعقود البورصة.
ج) واليانصيب.
د) وعقود المضاربات.
هـ) وأعمال الكمبيالات.
و) وهذه الشركات المساهمة، وما تطرحه من سندات.
ز) وصناديق التوفير.
ح) والعقود الحكومية، وشبه الحكومية.
ط) ونقل قطعة من جسم إنسان إلى آخر.

ي) والاستفادة بأجزاء من جسم الميت لمعالجة الحي وإصلاح شأنه، وغير ذلك.
ك) مما يتعلق بغزو الفضاء.
ل) والوصول إلى القمر، وكل ما يصل إليه العلم الحديث.

والواقع أن كل هذا يحتاج إلى بحث بما يتلاءم مع الشرع ومبادئه التي تساير مصالح الناس ولا تجعل الأمة الإسلامية متخلفة علمياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً».. («ص 52 ـ 53»).

الاقتصاد الإسلامي

162 والواقع أن المشكلة أعمق وأوسع من ذلك بكثير، إنها مشكلة «الاقتصاد الإسلامي» نفسه.لقد سبق أن ذكرنا أن من أهداف الإسلام إقامة حضارة متميزة، لها مقوماتها الخاصة ومنها «الاقتصاد الإسلامي» الذي وضع أسسه القرآن والسنة بما تضمناه من تشريعات جيدة وتوجيهات سامية تضمن من العدالة ما لم تعرفه لا الشريعة اليهودية ولا القانون الروماني. ووسع الاجتهاد والممارسة آفاقه لدرجة حققت مصالح أقاليم العالم الإسلامي الشاسع الأطراف، ومكّن أُمَماً أُخرى غير إسلامية من اقتباس كثير من النظم الاقتصادية الإسلامية.

163 وفي نطاق مداولة الأيام بين الناس، تقدمت أُمم وشعوب أُخرى وتولت القيادة بدلاً من المسلمين الذين تخلفوا وأصبحوا كغثاء السيْل، كما أخبرهم النبي (ﷺ).

164 وأصبحت اليوم تتنازع السيطرة على العالم قوتان جاهليتان طاغيتان، تتسابقان في جنون نحو القضاء على الحياة البشرية على الأرض، ولكل واحدة منهما نظامها الاقتصادي الذي لا صلة له بالله. وهما الاشتراكية والرأسمالية، موهمان الأُمم والشعوب أنه لا مناص لها من اختيار واحد من النظامين الذين لا بديل لهما. وَحَسْبُكَ من شَرَّيْن أَحْلاَهُمَا مُرّ.

165 - وتقدم الإسلام بنظامه الاقتصادي المتكامل الذي يستطيع البشر به عن طريق الاجتهاد في نطاق النصوص المقدسة، أن ينقذوا البشرية من الإبادة الحتمية التي تهوي نحوها.

166 - في سنة 1960م أصدر كاتب فرنسي اسمه جاك اوستروي كتاب «الإسلام في مواجهة النمو الاقتصادي» بتقديم أندره بياتر أستاذ الحقوق والعلوم الاقتصادية بجامعة باريس، وصدر في دمشق بتعريب الدكتور نبيل صخر الطويل باسم «الإسلام والتنمية الاقتصادية» بتقديم صديقنا العلامة الكبير المرحوم محمد المبارك عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق حينذاك، في صفحات 118، ويقول المؤلف في مقدمة كتابه : «وفيما يخص الإسلام، يظهر أن المشكلة الحاسمة للتنمية تواجه بأسلوبين ـ طبعاً بعد استبعاد النظرية المستحيلة في زوال الإسلام كنظام اجتماعي متميز، وَذَوَبانِه في مجتمع أكثر ديناميكية.

167 - ومستقبل الإسلام الاقتصادي ينفتح على نقطة فاصلة. هل يساير العالم الإسلامي العصر الحاضر بمجافاة القرآن، أم بالسير تحت لوائه ؟».

168 - ويقول أندره بياتر في تقديمه :

«كل اقتصادي مهتم بالمسائل التي يتعلق بها قدرنا وسلوكنا، سيكون شاكراً المؤلف على دراسته، وسيحمده بصورة خاصة لتأكيده وتركيزه على النقطتين التاليتين :

أ) كردّ فعل للتخطيط المبسط «كما يراه مردال». يظهر السيد أوستروي باقتناع أن هناك أكثر من مخططين إجباريين للنمو الاقتصادي في البلاد التي هي في طريقها لذلك : الرأسمالية والماركسية، فالإسلام لا يتوافق مع كليهما».

ب) والقسم الثاني ـ بالنسبة لنا ـ هو أكثر تأثيراً وهو الموضوع الذي يثبت فيه أن النمو الاقتصادي في الإسلام لن يتحقق إلا إذا صبت في الإطار التقدمي المتطور القوى الحية الهائلة التي يمده بها القرآن، ونقصد الروح القرآنية الحقة، بعد إزالة الأَغلفة اللاَّهوتية الزائلة التي علقت بها وغطت جوهرها، وخَنَقَت لأَجيالٍ طويلة رسالة القرآن الأَصيلة.

169 ـ ويقول الشيخ محمد المبارك، رحمه الله :

«وينتهي المؤلف إلى الفكرة الثالثة وهي التنبؤ باحتمال قيام نظام اقتصادي إسلامي في العالم، يقوم على أُسس مستمدة من الإسلام، وتتلخص بتنمية الحياة الاقتصادية وبالإبقاء على المِلْكِية الفَردِية ضِمْن وظيفتها الإجتماعية التي قررها الإسلام، أي محدودةٍ بحدود مصلحة الجماعة، وبإيجاد نظام يحل محلَّ الرّبا في النظام الرأسمالي، وفتح باب الاجتهاد في الفقه الإسلامي، ورعاية الأَهداف الأَخلاقية في النظام الإقتصادي، للحد من المآسي التي أوجدتها حضارة الآلة وماديتها الطاغية».

170 ـ والواقع أنه منذ بداية الغزو الأُوروبي ـ شرقيه وغربيه ـ للعالم الإسلامي، والمومنون الصادقون يتناولُون بالدّرس والبحث، مختلف جوانب الاقتصاد الإسلامي، ومحاولة بعثه من جديد وهم الذين سماهم علال الفاسي رحمه الله، رواد الاقتصاد الإسلامي.وقد ملأُوا المكتبة الإسلامية الحديثة بعشرات المؤلفات القيمة التي لا يخلو بعضها من ابتكار، أي اجتهاد، كما أن كثيراً من الجامعات والمؤسسات العلمية ساهمت بدورها في هذا الموضوع.

171 ـ وكان المرحوم علال الفاسي الرائد المغربي الأَول في هذا الميدان، بكتابه الخالد : «النقد الذاتي»، أولاً، وبكثير مما كتبه بعد ذلك.

172 ـ وكان المنظر الماركسي روجي جارودي عضواً في اللجنة العليا للحزب الشيوعي الفرنسي، ثم خرج منها، وكتب «البديل» يبحث عن «بديل» للماركسية، فكتب له علال الفاسي رحمه الله «بديل البديل» يلفت فيه نظره إلى الإسلام كبديل للماركسية، ولم يلبث أن كتب جارودي كتابه «بشائر الإسلام»، ثم أعلن إسلامه في المدة الأخيرة. ـ وقد كان ضيف ندوة أكاديميتنا التي تقرر فيها موضوع إحياء الاجتهاد ثم أصبح عضواً في الأكاديمية.

173 ـ كما أعلن ضيف الندوة الأستاذ إسماعيلوفك، من يوغوسلافيا، أثناء تدخله أن الماركسية قد أفلست على نطاق عالمي، ولم يبق شيء منها منفذاً في أي بقعة من البقاع، ولام الدول الإسلامية على عدم تطبيقها للشريعة الإسلامية لتقدم المثل الواقعي للباحثين عن الحقيقة. وكنا نحن قد طالبنا بالعودة لتطبيق الشريعة في بلادنا، كما كنا عليه قبل الحماية.

174 ـ وفي سنة 1396 هـ = 1976م، عقد المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي في جامعة الملك عبد العزيز التي يديرها زميلنا في أكاديمية المملكة المغربية الدكتور عبد الله عمر نصيف، وقد درس المؤتمر الموضوعات التالية :

- مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي.
- حصر المراجع المعاصرة في الاقتصاد الإسلامي.
- الزكاة والسياسة المالية.
- بنوك بلا فوائد.
- التأمين في إطار الشريعة الإسلامية.

175 ـ وفي الملحقين 2، 3 ملخص لبحثين للمؤتمر.

176 ـ وتنفيذا لقرار من المؤتمر تأسس «المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي» ومن بين نشاطاته طبع ونشر أبحاث المؤتمر العالمي الأول في مجلدين أحدهما بالعربية 606 ص. والآخر بالإنجليزية.

177 ـ وكانت مجلة «المسلمون» اللندنية المرحومة قد نشرت أن إحدى الجامعات الأمريكية، لعلها هارفارد ـ قد عقدت هي أيضا مؤتمراً عن الاقتصاد الإسلامي ونشرت أبحاثه في مجلد.

179 ـ والحمد لله رب العالمين.

ولعل في هذا العرض الطويل كفاية للذين لم تتح لهم ظروفهم من قبل التعرف على موضوع له هذه القيمة العظمى في حياة النظام الإسلامي واستمراره، حتى يتمكنوا من التعرف على كثير من جوانبه المختلفة، قديماً وحديثاً.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الملاحق

الملحق : 1) من لهم الاجتهاد بالرأي، لعبد الوهاب خلاف.
2) حول وجوب الزكاة في رواتب الموظفين، وأُجور العمال وصافي إيرادات المباني، وصافي إيرادات المِلْكِية الزراعية، للدكتور محمد سعيد عبد السلام.
3) النتائج التي ختمت بها دراسة حكم شريعة الإسلام في عقود التأمين، للدكتور حسين حامد حسان.

«فقرة 92» الملحق 1

من لهم حق الاجتهاد بالرأي ؟

لخص المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف في «مصادر الشريعة فيما لانص فيه» ما سبق له أن ذكره في كتابه «الاجتهاد والتقليد، والتعارض والترجيح» في بيان من هم الذين يجوز لهم شرعاً الاجتهاد بالرأي.

وهو في نفس الوقت منهج مدرسي لمن يريد أن يحقق لنفسه القدرة على الاجتهاد. قال الشيخ خلاف :

«1) ـ بما أن أول مصدر يرجع إليه في الاجتهاد هو القرآن، فيجب على من يتأهل للاجتهاد أن يكون على علم تام بأحكام القرآن. والمراد بهذا أن يكون على علم تام بأحكام القرآن والأُصول التشريعية العامة التي قررها.

فالعلم التام بتشريع القرآن الجزئي والكلي هو أول المؤهلات للاجتهاد.

ولا يلزم للمستأهل للاجتهاد في الأحكام العملية أن يكون على علم تام بجميع بما في القرآن من قصص وأخلاق وغيرهما. بل الواجب أن يكون على علم تام بالتشريع العملي في القرآن كلياته وجزئياته، أي أنه يكون على علم تام بآيات الأحكام في القرآن. وآياتُ الأحكام في القرآن نحو خمسمائة آية، على ما ذكره الغزالي وأكثرها في العبادات وما يلحق بها من الأحوال الشخصية والنذور والأيمان.

وليست آيات كل نوع متصلا بعضها ببعض، ولا مجموعة في سورة واحدة، بل الآيات الخاصة بالفرع القانوني الواحد مفرقة في عدة سور لأنها ما أُوحي بها إلى الرسول جملة واحدة ـ وإنما أُوحي بها إليه مفرقة حسب الوقائع. ودونت كل آية حسب مناسبتها. فليست آيات المجموعة المدنية في سورة واحدة، وليست آيات العقوبات في موضع واحد. وقد عني بعض المفسرين بآيات الأحكام، فمنهم من أفردها بتفسير خاص، ومنهم من جمع آيات كل نوع وضم بعضها إلى بعض. وآيات الأحكام في القرآن هي التي تكون «فقه القرآن» وأول واجب على من يستأهل للاجتهاد أن يحصي آيات الأحكام في القرآن، ويجمع آيات كل نوع منها، بحيث يكون بين يديه كل آيات القرآن في الطلاق، وكل آياته في الإرث، وكل آياته في البيع، وكل آياته في العقوبات وهكذا، ثم يدرس هذه الآيات دراسة عميقة، ويقف على أسباب نزولها، وعلى ما ورد في تفسيرها من السنة ومن آثار الصحابة والتابعين، وعلى ما فسرها به المفسرون. ويقف على ما تدل عليه نصوصها وما تدل عليه ظواهرها. وعلى المحكم منها والمنسوخ وما نسخه.

فإذا درس هذه الآيات التشريعية حق درسها، استطاع إذا عرضت له واقعة أن يبين عن علم ما حكم القرآن في الواقعة بنص من نصوصه، أو بظاهر من

ظواهره، واستطاع أن يحكم عن علم بأن القرآن لم يدل على حكم هذه الواقعة لا بنص من نصوصه، ولا بظاهر من ظواهره.

2) ـ وبما أن ثاني مصدر يرجع إليه في الاجتهاد هو السنة، فيجب على من يستاهل للاجتهاد أن يكون على علم تام بالسنة، والمراد بهذا أن يكون على علم تام بالسنن التشريعية العملية القولية والفعلية والتقريرية. أي بما صدر عن الرسول من التشريع جزئياته وكلياته.

وقد عني علماء الحديث بالسنة عناية تامة يسرت السبل لمن يريد العلم بها. فأولا ميزوا بين المتواتر منها وبين الآحاد. وميزوا بين الصحيح والضعيف. وصار العالم غير محتاج إلى بذل جهد في سند الحديث للوقوف على مرتبته، فكل حديث من الميسور معرفة أنه متواتر أو غير متواتر، وصحيح أو حسن أو ضعيف .وثانيا رتبوا الأحاديث على أبواب الفقه، وجمعوا أحاديث كل نوع في باب على حدة، فأحاديث البيع في باب البيع ـ وكذا أحاديث الرهن والربا والسرقة والزنا، والقذف، وكل فرع من فروع العبادات والمعاملات والعقوبات أو غيرها وثالثا، عمد العلماء إلى كتب السنن الصحاح الستة، وهي صحاح : البخاري ومسلم، وأبي داوود والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وجمعوا ما فيها بحيث يستطيع الباحث أن يقف على ما في هذه الصحاح كلها في البيع وما فيها كلها في الإجارة. وهكذا فمن رجع إلى كتاب جامع لهذه الكتب الستة مثل كتاب «التاج الجامع للأصول الستة» ورجع معها إلى كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس وكتاب «منتقى الأخبار» لابن تيمية ـ يعني جد شيخ الإسلام ـ وشرحه «نيل الأوطار» للشوكاني ترجح عنده أنه لم تغب عنه سنة تشريعية في الواقعة التي يبحث فيها.وأمكنه أن يحكم على علم بأن الواقعة التي عرضت، دلّ على حكمها نص في السنة أو ظاهر من ظواهرها، أو لم يدل على حكمها من السنة نص ولا ظاهر.

وإذا وقف على نص في السنة، بحث عن سبب ورود هذا النص، وهل هو محكم أو منسوخ وما ناسخه. وهل يعارضه نص آخر أو لا يعارضه نص. وإذا وقف على ظاهر فيها بحث أيضا عن سبب وروده وهل هو محكم أو منسوخ، وهل هو معارض أو غير معارض، وهل هو على ظاهره أو مؤول، وما دليل تأويله، وعلى ضوء هذه البحوث يستدل على حكم الواقعة من السنة إذا وجد.

3) - وبما أن ثالث مصدر يرجع إليه في الاجتهاد هو ما أجمع عليه مجتهدو المسلمين في عصر من العصور، فيجب على من يستأهل للاجتهاد أن يكون على علم بمذاهب المجتهدين السابقين، حتى يعرف ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه، ووجهات نظرهم فيما اختلفوا فيه، فإن وجد في الواقعة حكماً أجمع عليه المجتهدون في عصر من العصور التي سبقته أمضاه، فكما أنه لا مساغ للاجتهاد فيما فيه نص صريح، لامساغ للاجتهاد فيما انعقد عليه إجماع المجتهدين.

والظاهر أنه يكفي أن ينتج البحث الدقيق الذي بذل فيه أقصى الجهد أن هذا الحكم في الواقعة لا يعرف فيه خلاف بين المجتهدين السابقين فيحكم به ولا يفتي بخلافه».

ولم يذكر الشيخ خلاف مرجعا في «مسائل الإجماع».وللحافظ ابن حزم «مراتب الإجماع».ولشيخ الإسلام ابن تيمية تعقيبات عليها وهما مطبوعان معا. وفي فتاوي علّيش أن الأَشياخ يقولون : «أصح الإجماعات إجماعات ابن حزم».

«4) - وبما أن رابع مصدر يرجع إليه في الاجتهاد هو القياس. فيجب على من يستأهل للاجتهاد أن يعرف حقيقة القياس، وأركانه، والشروط الواجب توافرها في كل ركن وخاصة شروط العلة ومسالكها وقوادحها، وهذا يوجب عليه أن يدرس علم أُصول الفقه دراسة دقيقة شاملة. وأن يعرف المبادىء

التشريعية العامة التي بنيت عليها الأحكام، والمقاصد العامة التي قصدت بها، وأن يعرف علل الأحكام التي دلت عليها النصوص، وعلل الأحكام التي توخذ من القواعد الكلية. وبهذا تتكون عنده مَلَكَة تشريعية يقدر بها على استنباط الأحكام وفهم روح التشريع الإسلامي، وقياس ما لا نص فيه على ما فيه نص أو الاستدلال على حكمه بأية امارة من الأمارات التي اعتبرها الشارع للدلالة على أحكامه.

والوسيلة لفهم ما تدل عليه النصوص التشريعية في القرآن والسنة فهماً صحيحاً هي العلم باللسان العربي. فعلى من يستاهل للاجتهاد أن يكثر قراءة آداب العرب من منثور ومنظوم، وأن يدرس المبادىء اللغوية العربية التي توصل إليها العلماء من استقراء أساليب العرب، وطرق دلالة ألفاظهم وعباراتهم على المعاني، وأن يكون له من هذا مَلَكَة عربية سليمة يقتدر بها على فهم النصوص العربية وإزالة غموض ما فيه خفاء.

والوسيلة لاستنباط الأحكام فيما لا نص فيه بواسطة القياس أو بواسطة غيره من الأمارات الشرعية، هي العلم بالمصالح العامة التي قصدها الشارع بالتشريع، والعلم بأحوال البيئة وما تقتضيه من مصالح، حتى لا يَنْبو التشريع عن مصالح الناس.

5) - وبما أن سيّاج هذه المؤهلات هو خلق المجتهد ودينه وضميره، وجب أن يكون عَدْلاً، أي كاملا في دينه وخلقه، ولا يرتكب كبيرة ولا يصر على صغيرة، ولا يخشى في الحق لومة لائم، ولا بأس ذي سلطان ولا يبغي إلا المصالح الحقيقية العامة.

فإذا اختيرت جماعة متوفرة فيهم هذه المؤهلات، وضمت إليهم جماعة من العدول ذوي علم بشؤون الدنيا من قانونيـة واقتصـاديـة، وتجـاريـة واجتماعيـة وصحيـة وغيرها، تكونت من هاتين الجماعتين «جمعية تشريعية» «فيها الأهلية للاجتهـاد» (ص 13 ـ 17).

(ف 175) الملحق 2

حـول وجـوب الـزكاة في رواتب المـوظفين وأُجـور العمال وصافي إيرادات المباني وصـافي إيرادات المِلْكِيـة الزراعية.

من الدراسات التي قدمت للمؤتمر العالمي للاقتصاد الإسلامي بجامعة الملك عبـد العزيز، دراسة للدكتور محمد سعيد عبد السلام، الأُستاذ بكلية الاقتصاد والإدارة بجامعة الملك عبد العزيز بجدة (ص 327 ـ 352).

دور الفكر المالي والمحاسبي في تطبيق الزكاة

ومن جملة الموضوعات التي تناولتها الدراسة :

الاجتهاد في استنباط الأَحكام بالنسبة للصور المستحدثة في الأَموال. فـذكر أن من بين القضايا المستحدثـة المعروضـة ننتقي قضيـة زكاة كسب العمل، وقضيـة الزكاة على النماء من العقارات المبنية، ومن ملكيـة العقـارات المزروعـة، وذلـك باعتبـار أن هـاتين القضيتين متعلقتـان بـالزكاة على النماء وحـده، دون تخـالـط الأَصل معـه، حيث إن زكاة العقـار لا تكون إلا على نمـائـه، كما أن العمل، وهو

مصدر كسب ليست له قيمة رأسمالية متصورة أو محدودة، يمكن أن يوخذ قدرها في الحسبان مع النماء عند الخضوع (كذا !). ولقد يبدو بسبب ذلك مدى التشابه بينهما وبين زكاة الزروع والثمار.

أ) ـ فحين يبحث الفكر المالي في كسب العمل يجده شاملا لأرباح المهن الحرة، وكذلك المرتبات، وأُجور العاملين، التي تنشأ أساساً كثمرة لعقد العمل بين العامل وصاحب العمل.

وبعدما أوضح تغاير هذه الأُجور والمرتبات مع ما كان يتقرر من أعطيات أيام الإسلام الأُولى من حيث طبيعة ومصدر كل منهما، ومن حيث اختلاف الحكمة المتوخاة في تقريرهما، قرر نتيجة لذلك أنه لا محل لإعمال القياس على الأعطيات وبالتالي لم يصح إعفاء الأُجور والمرتبات اليوم من شرف المساهمة في تمويل الصدقات، لأن الأَصل أن كل نماء لا بد له أن يخضع للزكاة تحقيقاً للعمومية في مفهوم العدالة المالية.

واقترح قياسها على زكاة الثمار : وهل المرتبات والأُجور إلا ثمار تتكرر داخل الحَوْل، على جهد بشري يعد مصدراً مشروعاً للنماء في ميادين أُخرى خاضعة أوعيتها للزكاة بلا خلاف مما يتطلب الأَمر معه إخضاع مرتبات اليوم على أساس صافيها بعد استنزال تكاليف تحقيقها منها، على أن تؤدي زكاتها يوم حصادها. وهو لحظة وضع الأُجور تحت تصرف العامل المستحق لها. ويراعى ـ بالقياس على زكاة الزروع والثمار ـ أن يخصم من وعاء زكاة المرتبات قدر حكمي يعادل ما هو مشغول بالحاجة الأَصلية يقدرها ولي الأَمر، كأن يضع جداول حكمية للتكاليف الأَساسية لمعيشة المكلف، ومن يعولهم، مادام التحديد الفعلي لتلك الحاجات قد يثير مشكلات مستمرة مع الوالي، حتى إذا تبقى بـ ـد ذلك ما يعادل النصاب الشرعي أو يزيد، خضع هذا الباقي للزكاة.

أما ما يدخر من تلك الأُجور والمرتبات ليستقبل حَوْلاً جديداً يحسب من يوم وضعها تحت تصرف العامل، فإنه يدخل عند نهاية الحول في وعاء زكاة النقدين، دون أن يكون في ذلك تثنية مذمومة، لأن الفكر المحاسبي يرى أن الذي خضع أول مرة هو النماء، بينما الذي خضع في المرة الثانية بعد مرور الحول هو رأس المال. فلا تثنية هنا في الزكاة، لاختلاف الأَصل عن الناتج، من حيث طبيعة كل منهما ومركزه بين الأموال.

وبعدما أفاض في الاحتجاج لرأيه، تعرض لفرض الزكاة على صافي إيرادات المباني، وصافي إيرادات الملكية الزراعية، على أساس قياسها على زكاة الزروع والثمار، ذاكراً أنه كان الشائع فيما مضى ـ شغل العقارات لا تأجيرها للغير، فلم تخضع للزكاة لعدم توافر العلة وهي النماء، ولا ينبني على ذلك أن تعفى صافي إيرادات التأجير بلا نص أو قياس، بعد أن تحقق النماء بالفعل لدى المالك.

وبعد ما أفاض القول في ذلك ختم بالإشادة بالأسرار الكامنة في المصادر الشرعية لفقه الزكاة، تلك التي ينعم بتذوقها الفقيه الملهم والعالم التقي، فتنير له طريق الاجتهاد، وهو المصدر المتاح اليوم لاستكمال حقائق الزكاة (ص 347 ـ 352).

الملحق 3

النتائج التي ختمت بها دراسة (حكم شريعة الإسلام في عقود التأمين)

من الدراسات التي قدمت للجنة «التأمين» في المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي دراسة قيمة بعنوان :

حكم الشريعة الإسلامية في عقود التأمين (ص 415 ـ 519) بقلم الدكتور حسين حامد حسّان المشرف على قسم الدراسات العليا الشرعية، بكلية الشريعة بمكة المكرمة، جامعة الملك عبد العزيز.

وخلص في بحثه الطويل إلى النتائج التالية :

1) إن التأمين باعتباره نظرية ونظاماً غير منظور فيه إلى الوسائل العلمية لتحقيق النظرية ․وتطبيق النظام أمر يتفق مع مقاصد الشريعة العامة، وتدعو إليه أدلتها الجزئية.

2) إن مشروعية الغاية والقصد، لا يلزم منها حتماً جواز كل وسيلة تؤدي إلى هذه الغاية أو تحقق ذلك المقصد.

3) إن الصيغة العملية التي شرعها الإسلام للتعاون والتضامن وبذل التضحية هي عقد التبرع، حيث لا يقصد المتعاون والمضحي فيها ربحاً من تعاونه وتضامنه، ولا يطلب عوضاً ماليا لما بذل، ومن ثَمَّ جازت هذه العقود مع الجهالة والغرر، ولم يدخلها القمار والمراهنة والربا.

4) إن كلا من التأمين التعاوني، والتأمين الاجتماعي ـ وهو الذي تقوم به الدولة، أو تعهد بإدارته وتنظيمه لبعض هيآتها العامة ـ يحقق الصيغة العملية التي شرعها الإسلام للتعاون والتضامن وبذل التضحيات، فهذان النوعان من التأمين يقومان على قصد التعاون والتضامن والتبرع، دون الرغبة في استثمار الأموال وطلب الربح، فيُعَدان تطبيقاً لنظرية التأمين ـ في رأي الباحث ـ لأنهما ليسا إلا تعاوناً منظماً تنظيماً دقيقاً بين عدد كبير من الناس معرضين جميعاً لخطر واحد، متى تحقق الخطر، بالنسبة إلى بعضهم تعاون الجميع على مواجهته، بتضحية قليلة يبذلها كل منهم، يتلافون بها أضراراً جسيمة تحيق بمن نزل به الخطر منهم لولا هذا التعاون.

5) أن التأمين بقسط ثابت، وهو الذي تقوم به شركات التأمين، لا يحقق الصيغة العملية التي شرعها الإسلام للتعاون والتضامن وبذل التضحيات، لأن العقود التي تبرمها هذه الشركات معاوضات مالية، دخلها الغرر والقمار والربا، وعقود المعاوضات إذا دخلتها هذه الأمور بطلت.

6) إن التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية يحقق التعاون والتضامن والتكافل على أساس محكم لم يسبق له نظير. وإن توسع الدولة الإسلامية في التأمينات الاجتماعية حتى تشمل جميع طبقات الشعب التي تعجز مواردها عن مواجهة الأخطار أمر لازم، فإن الدولة الإسلامية في نظر الإسلام، تلتزم بتأمين فرصة عمل لكل قادر على العمل، وبتأمين العاجز بإعطائه ما يكفيه مأكلاً ومشرباً وملبساً ومسكناً ومركباً ـ كما يقول بعض الفقهاء ـ ولها في موارد الزكاة ما يقوم بذلك. وإلا كان لها أن تفرض من الضرائب على الأغنياء ما يسد حاجة الفقراء.

7) إن الصيغة المشروعة المتاحة للأفراد حتى الآن، لتحقيق أهداف التأمين ومقاصده من التعاون والتضامن على توفير آثار المخاطر هي التأمين التبادلي الذي تقوم به الجمعيات التعاونية، إذا قامت دراسات جادة للتوسع في هذا النوع من التأمين، واستخدام الوسائل العلمية التنظيمية على الوجه الذي يحقق به هذه الغايات والمقاصد. وهناك تجارب مفيدة في هذا الباب قامت بها بعض الدول الإسلامية يمكن الاستفادة منها (ص 517 ـ 519).

خواطر وسوانح

في حلول مشكلات الماء والتغذية وتزايد السكان

محمد بهجة الأثري

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الأرض، وأنشأ منها الإنسان، وأسكنه فيها، وأنشأ منها معه أمم الحيوان من كل نوع، مما يدب على أديمها، أو يسبح في الماء، أو يطير في السماء، وخلق فيها ـ له ولها ـ كل مقومات الوجود ولوازم الحياة، من ماء يرويه، وأقوات تغذيه، ليس لأنواعها وصنوفها حصر، وأنزل عليه الغيث من السماء، وخلق له تحت الثرى الذي يمشي عليه ركازاً كثيراً، ومعادن صنوفاً، وسخرها جميعا له، ليرتفق بها في معاشه، واستعمره فيها لتزهر وتزدهر بالعمارة بكده وجهده، فينتفع بكل شيء منها سخره له. وهي تجود عليه بما يبتغيه منها على قدر ما يعطيها من نفسه. فإذا كسل وتراخى بخلت عليه، وإذا جد وحاول الزيادة جادت عليه جود من لا يخاف الفقر.

ولا نزاع في أن الإنسان قد بلغ اليوم من السلطان والقدرة على تسخير ما على الأرض وما في بطنها لمصالحه، بعلمه وفكره المبدع وصناعاته ووسائله المبتكرات، ما وقف الأولون عند أدنى درجاته إن لم أجازف وأسرف في القول.

ومن عجب أن تتعالى من هذا الإنسان الجديد، منذ أكثر من عقدين، صيحات الشكوى من عجز الماء والغذاء عن الإرواء والإشباع من ظمإ ومن جوع، وعدم القدرة على استيعاب هذا وذاك، سكان الأرض !

فكيف يحدث له ذلك في عالم الأرض، وهو يرتاد عوالم السماء، وينزل فعلا على سطح القمر، ويمعن في الصعود إلى المريخ ؟ وهل تقلصت فجاج الأرض، فضاقت بناسها أن يتزايدوا، وزعم عجز مواردها أن تمدهم بماء وغذاء ؟

إن هذا لو حدث في بعض عصور التخلف، ولم يحدث قط، لما كان للتعجب من تعالي صيحات الشكاوي منه موضع.

أدع التساؤل عن هذا إلى تساؤل ثان. فأسأل : أين نشأت مشكلات الماء والغذاء للإنسان، وما نوع هذا الإنسان، وأين يسكن من أجزاء هذا الكوكب الأرضي في عصر ارتياد عوالم السماء ؟

أفي مباءات الغنى والترف، والبذخ والسَّرَف، والرفل في الحلي والحُلَل، من الأقطار الشواسع المتراميات الأطراف، التي يمتلك ناسها كنوز الأرض وركازها، ويهيمنون على موارد الرزق، ويقبضون على أزمة العلوم والفنون والصناعات، ويتخذون منها لاستغلال كل شيء سبباً، وتفيض عندهم الأموال والثروات فيضانَ الطوفان، وتكثر عندهم الثمار والخيرات من كل نوع خلقه الله، كثرةً يضيقون بها ذرعاً في بعض الأحايين، فيحرقونها، أو يلقونها في اليمّ، تخلصاً منها، ولا يجودون بها على محتاج ؟

أم في مباءات الفقر والبؤس والشقاء... في بلاد الشعوب المغلوبة على أمرها، المشلولة العقل عن التفكر والتدبر، والمعطلة اليد عن الحرث والبذر والاعتمال لإنتاج ما تعيش به من قوت، إذ الأقوياء يبسطون سلطانهم عليها، ويحكمون القبضة على رقابها، ويسخرونها لمصالحهم، ويتعاملون معها على قاعدة : «تَاجِرْ وَلاَ تُسَاعِدْ»، وَ «تَعَسَّفْ وَلاَ تُحَاوِرْ» ؟

إن كانت مشكلات الماء والغذاء وتزايد السكان قائمة في المباءات الغنية المترفة، فذلك شأن أهلها وحدهم، وهم أقدر على معالجتها ووضع الحلول لها، ولا ريب.

وإن كانت الحال هذه في المباءات الفقيرة المحكومة المغلوبة على أمرها، التي أحال الجوع ناسها هياكل عظام في أكياس جُلُودٍ يابسة، لاَرَمَقَ بها تتحرك به، ومنجلُ الموت يحصدهم حصداً، ملايين بعد ملايين، لا تحصى عدّاً على ما تتحدث به جوائب الأنباء، فتدمي القلوب وتُحْزِنُ وتؤلم، فكيف حدث فيها ذلك، ولم يكن معهوداً ولا مسموعاً في قديم الدهر ؟ وإذْ كانت الأَسباب في حدوث هذا البلاء معروفة، وهي ما ألمحت إليه، فلماذا لا تُقطع، ولا تفك القبضة عن الرّقاب، ولا يُترك الناس أحراراً في أرضهم ودارهم، يتدبرون أمورهم، ويعملون، ويحرثون ويبذرون ليقتاتوا ويعيشوا كما يعيش أبناء آدم وحواء، في مباءات الغنى والترف ؟

وأدع هذا إلى تساؤل ثالث، تساؤل عن موقف صانعي القرارات ومالكي القدرات النافذة في الدول ذوات المصالح والعلاقات بالأمم والشعوب، من هذه الشؤون الخطيرة، ومن بلادهم تعالت صيحات الشكاوي هذه بدءاً، وذاعت، وملأت أسماع الدنيا، وفي بلادهم عقدت الندوات والمؤتمرات منذ بضعة عقود، ولا تزال «الهيآت» توالي عقدها وطوائف العلماء والمفكرين وأصحاب الاختصاص في الدراسات المائية والغذائية والسكانية يوالون تقديم البحوث والدراسات المستفيضة بمختلف اللغات إلى هذه الندوات والمؤتمرات ولكن كل شيء من هذا وغيره ما يزال يدور في حلقة مفرغة من الكلام، ولم يُقْدَمْ على عملٍ مَّا يحسم العِلَّة ويشفي الغُلَّة ويصلح الأحوال... فما برحت «دار لقمان على حالها والقيدُ باقٍ والطّواشي صبيح»، وما فتئت بطون الإنسان والحيوان في أرجاء شتى من إفريقية وآسية خاويةً، والأكباد تحترق عطشاً، والأفواه فاغرة تلهث، تبتغي الماء والغذاء، وليس لها من أحد مَدَد موصول، ولا عون عاجل وصادق !

وأعجب شيء بعد هذا، أو قبله، هذه البحوث والدراسات التي أُنفقت في إعدادها مُلاوات العمر. فإن ما وقفت عليه منها ـ وحكمي عليها وحدها ـ وجدتها قد عقدت هذه المشكلات، وعاظلت مسائلها حتى صيرتها أشبه بذنب الضب، الذي كله عُقَد. إذْ أفاضت في أفانين من الكلام، في السياسات الدولية، والاقتصاد العالمي، والعلاقات التجارية، والأخذ والعطاء بين الأمم، والتسويق، وشركات النقل وتعاملها، وتصاعد الأسعار، وتزايد الكلف والغلاء، وأثرها في اقتصاديات الفقراء، وعجزهم عن شراء الأقوات لسد الأرماق، ودفع غواشي الموت من الجوع، إلى غير هذا من شؤون أقاموا بينها وبين هذه المشكلات المائية والغذائية والسكانية علائق وترابطاً عضوياً بالغ الإحكام، ووثيق التشابك والتفاعل، يجعل حل أي مشكلة منها متوقفا على حلول هذه المشكلات العالمية الشديدة التعاظل، في سلسلة من الدور والتسلسل يستحيل معها الوصول إلى نتيجة.

ولعل الوسيلة النافعة في هذا الشأن، أن تحصر هذه المشكلات في الاطُر المحلية، لا تتجاوزه، ويعالج كل بلد بعينه حلولها بقدر حجمها عنده، ويتناولها بأسلوبه الخاص، وقدراته المحددة، وقدرات أخرى يستمدها من أصدقائه تكون عوناً له في تعجيل المنفعة، ويضع لكل مشكلة منها عنده منهجاً واضح المعالم والحدود، مُيَسَّرَ التطبيق، ويختار الوسائل الفعالة غير المعقدة ولا الباهظة، تزيح علله، وتخرجه من الضائقة والعُسْر إلى الرفاهية واليُسْر، بتحقيق «الاكتفاء الذاتي» لنفسه أولاً، بل تخرجه إلى ما هو أبعد مدى في الخير، إلى إحداث «ثورة خضراء» في أرضه، تفيض خيراتها وثمارها وبركاتها، ويصدر أُكْلَهَا الطيب إلى جيرانه، وإلى من يحتاج إليه من عناصر البشر وأجناسه أينما وُجدوا، وهذا ما نَوَدُّ أَنْ يَكُون.

ويقيني أن هذه الغاية النبيلة المُثلى، هي ما أراد العقل المفكر الحكيم تحقيقها من أقرب الطرق وأيسرها فيما رسم للأكاديمية من خطوطها العريضة.

ومن منطلق هذا الفكر الذي قام في ذهني، عمدت في بحثي، وهو محض «خواطر وسوانح ومقترحات»، إلى حصر هذه المشكلات بجملتها في حدود الوطن العربي. وتناولها بقدر حجمها فيه، تسهيلاً للوصول، فما يكون من قيام مشكلات في غيره، ليس ضربةَ لازِبْ أن يقوم مثلها فيه على طراق واحد. فأوضاع الأمم متخالفة، وحاجاتها تتباين، وكل أمة لها موروثات، تختلف أصالة، وهجنة، وأفكار تنطلق منها إلى الأعمال الخاصة بها.

ومن البديهيات أن أذكر أن الحضارة البشرية كان أول ميلادها في أرض الوطن العربي، في وادي الرافدين ووادي النيل، قبل خمسة آلاف سنة، وأن الأجيال توارثت أصول هذه الحضارة من أفكار ومرافق ووسائل، من فجر التاريخ، ونمتها على تعاقب العصور بما وَفَرَ عندها من العلم والتجربة وصدق الاعتمال، وطورت كل سبب من هذه الأسباب، إلى أن استقامت بها على أرضه مدنية زاهرة، ناضرة، حفلت بالخير والمير، ونعمت بالرفاهية، ووافت الإنسانية ما عندها من ذلك، وما تخلف قط شيء من خيرها الوفر عن البذل والعطاء بسخاء بالغ وطيبة نفس لا يشوبها مَنٌّ ولا تكدير، ولا تقوم على قاعدة «تاجر ولا تساعد». وما برح هذا الحس النبيل يخامر شعور وُرَّاثِ هذه الحضارة الكريمة، وليس شيء منه بغائب عن فكرهم وتعاملهم به مع البشر كافةً من كل جنس ولون ودين وعقيدة ومذهب، كما أنهم ليس بغائب عنهم النزوع إلى التطوير والتجديد في الفكر والعلم والفن والصناعة، ومتابعة السير إلى الأمام على سنة الحياة التي تقتضي الأخذ بالأمثل والأصلح من كل شيء وفي كل حين.

وأبدأ بما يسمى مشكلة الماء، وأتساءل بادىء بدء : ما طبيعة هذه المشكلة في الوطن العربي، هنا وهناك ؟ وما حجمها فيه ؟ وهل يؤلف في مختلف بقاعه أزمة في الشرب، والارتفاق، وري الزروع والغروس ؟

إن من الثابت بداهةً وحقيقة أن الوطن العربي من أغنى الأوطان بالمياه، فإذا كان الماء يؤلف ثلاثة أرباع الأَرض، أو أربعة أخماسها، فإن حظوظ أرضه منه لا يقل عن هذه النسبة فيه. فقد أحاطها الله من جميع جهاتها بالبحار، إلاَّ قسماً من شرقيها، وفجر فيها الينابيع والعيون، وأجرى على سطوحها الأَنهار الكبار والصغار، وحباها الوفر من الأَمطار والثلوج على تفاوت في مقاديرها من موضع إلى آخر، بحسب تكوين الطبيعة وعوامل الحرارة والبرودة والاعتدال، وأغدق في بطنها المياه الخفية كما يسميها القدماء، أو الجوفية كما توصف اليوم، ولا سيما تحت هذا الحزام الصحراوي العريض المديد الذي يمتد من ساحل الخليج العربي في الشرق إلى المحيط الأَطلنطي في الغرب. وهي على درجات متفاوتة القرب والبعد من سطح الأَرض. ويُعرف ما قرُب من السَّطح عند العرب بمياه «الحشارج والأَحساء والكرار»، وهي أكثر ما تكون في الأَباطح ومطمئنات البقاع والسواحل البحرية وما يدنو منها، فإذا حفر عنها مقدار ذراع، جاشت بالماء، أمثال أحساء هَجَر في شرقي جزيرة العرب، وغيرها كثير. وما بَعُدَ منها في الأَعماق يطلقون عليه «ماء الثَّوْأَب»، وهو الماء الذي يكون من الأَمطار، يغيض في خلاء الأَرض حتى يبلغ إلى حاجز صخري مسطَّح فيقف، فإذا أنشئت قناة في هذا الماء جرى بقدر مَادَّتِه، ثم انقطع وقت انقطاعها «أي انقطاع الأَمطار».

وكما تكثر هذه المياه الخفية في بوادي هذا الحزام الصحراوي في الوطن العربي، تكثر كذلك في كل مكان منه تقريبا، في أرض الشام (أي سورية ولبنان والأُردن وفلسطين)، وفي سيناء حيث الواحات هناك، وفي الصحراء الغربية حيث الواحات الداخلة والخارجة، وفي ليبية ومناطق الأَوراس في المغرب العربي وغيرها.

ومن المعلوم من حقائق التاريخ أن على كل من هذه المياه الظاهرة والخفية في أرض الوطن العربي عاشت ـ على امتداد الزمان ـ أممٌ وقبائلُ، وقامت مدنٌ وقُرى

ومستوطنات ما تزال آثارها شواخص في جزيرة العرب وغيرها من الوطن العربي. وأعجب شيء قيام هذه المدن والقرى والمستوطنات في بطون الصحاري الشاسعات المغمورة بالرمال المتحركة والمحترقة من الهجير، وذلك بفضل الاعتمال والجد في إنباط المياه الخفية وإساحتها على وجه الأرض، لتكون مصدر حياة الإنسان والحيوان، وري الزروع والغروس التي يقتات بها ويعيش، وليزهر العمران حيث يضطر الإنسان أن يقيم. ومن روائع ما تحدث به التاريخ في هذا الشأن من ازدهار تلك الآثار العظيمة التي احتفرها العرب وأنبطوا منها المياه على طريق القوافل بين جنوبي المغرب الأقصى و «أودغشت» على حافة الصحراء الجنوبية، فيسروا بذلك الرحلات بين شواسع الأطراف، وأضفوا به على مدن الصحراء التي كانت مراكز للقوافل، مثل «أغاديس» في «النيجر»، و «تِنْبُكْتُو» في «مالي». قالوا : لقد بلغ من هذا الشأن بفضل تلك الآبار أن قافلة خرجت من «مالي» إلى «مصر» في المئة الثامنة الهجرية (14م) كان قوامها إثني عشر ألف بعير.

وتذهب بعض الدراسات الحديثة إلى أن الصحراء الغربية إذا استُغِلَّ المستودع الضخم من المياه الخفية في بطن أرضها، يمكن أن تكون مصدراً للغذاء الزراعي والحيواني لجارتيها المغرب و «موريطانيا» (شَنْجِيطْ) وغيرهما.

وغير هذا كثير.

وقد قام هذا الشأن العظيم في حياة العرب من قديم الزمان على الاعتمال الدائم في سبيل إعمار الأرض، فأكسبهم خبرة عظيمة في تعرف مواضع المياه الخفية، والحديث في هذا له موضع آخر، وأفادهم علم إنباط المياه الذي تفردوا به، أو كادوا، وألّف رِيَاضِيُوهُم ومهندسوهم في عصر الازدهار الحضاري روائع المؤلفات، وقد أبقت لنا الأيام منها كتاباً جليلاً نجا من يد العطب والضياع، ذكر فيه مؤلفُه أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكَرَجِيّ من أهل المئة الخامسة الهجرية (11م) قواعد الإنباط

وفنوناً من مباحث علم طبقات الأرض ومعرفة مواقع المياه الخفية، وكيفية استخراج الماء الحلو من قعر البحر، وآلات الإنباط والاستخراج وغيرها، وعدّ هذا الفن أصلاً في عمارة الأرض وحياة الناس، وقال في مقدمة كتابه : «ولست أعرف صناعة أعظم فائدة، وأكثر منفعة من إنباط المياه الخفية التي بها عمارة الأرض، وحياة أهلها، والحياة العظيمة فيها». ولم ينقطع علماء العرب عن التأليف في هذا الفن الحيوي العظيم، وآخر ما كشفت من ذلك كتاب «عين الحياه في إنباط المياه» للعلامة أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري أحد شيوخ الأزهر الكبار في المئة الثانية عشرة (18م)، وقد توفي في سنة 1192 هـ. ولي الآن عناية بدرسه وتحقيقه لنشره إن شاء الله.

وأخلص من هذا الإيجاز لوصف أحوال المياه في الوطن العربي وما استتبع من استطراد يتصل بصميم شؤونها إلى أن الماء بذاته لا يؤلف مشكلة فيه، إلا في بعض الجهات النائية عن الأنهار، والأرضين البعلية التي تعتمد على الأمطار، فتشقى إذا احتبست عنها فضر بها بذلك الجفاف في بعض السنين، وتلك هي موضوع النظر والعلاج على وجه التخصيص.

وما عدا هذه النواحي والأرضين، فإن المياه فيها غدقة جدّاً، يجدها الإنسان أيّان غدا وراح من أرض الوطن العربي، ويقول الخبراء إن الوطن العربي يستغل من مياهه السطحية وحدها 125 ألف مليون متر مكعب في السنة، ويستطيع أن يرفع مقاديرها إلى 200 ألف مليون متر مكعب في السنة، ويبقى لديه فائض يقدر بنحو 27 ألف مليون متر مكعب تستعمل في أوجه مختلفة. ولو استطاع تحقيق ذلك لارتفعت المساحة الزراعية فيه إلى نحو 16,9 مليون هكتار، أي بزيادة قدرها 60 ٪. فكيف إذا ضم إلى ذلك مياه الأمطار، والمياه الخفية المُنْبَطَة، ومياه البحار المُحَلاَّة ؟

فليست مشكلة الماء في الوطن العربي في الماء ذاته، ولكن في قصور الإنسان، وقلة اهتمامه بتشقيق أنهاره ومدّ مياهها إلى المواضع النائية عنها وبها حاجة إلى الرّي، أو خزن فوائضه في الخزانات الكبار ونحوها، أو إنباطه من بطن الأرض لإرواء الزروع والغروس وإنعاش الأرضين اليَبَاب، أو تحليته لسقي السواحل والمواضع القريبة منها.

وهذا هو المطلوب وضع الحلول له، وحسم علته، ولا بدّ لذلك من منهج واضح، ووسائل فعالة تحقق الغاية.

أما المنهج فتقوم في فكري منه أمور :

1 ـ وجوب العمل الجادّ على إحياء دوارس معالم الرّي القديمة في الوطن العربي، وتطويرها إذا طلبته، إذ كانت السبب في قيام الحضارات فيه، وازدهار العمران وانتشاره على أرضه، ثم أخْنَت عليها الفتن والحروب، فهدمت السدود والسكور، وانقطعت المياه عن الترع والقنوات فانطمرت، وخف عنها العمار إلى حيث يغزر الخصب، وردمت الآبار، والبرك، والخزانات في مواضع الخصب أو الجدب.

وها هنا لا مناص لي من أذكر أشياء من هذه المرافق لأبتعث بالدلالة عليها الهِمَمَ، فتصرف عنايتها إلى إحيائها، وسأطيل في عرضها بعض الإطالة، وأخص أصقاع جزيرة العرب عامة، واليمن والحجاز خاصة، قبل الإسلام وبعده، لأنها خالية من الأنهار، واعتمادها كله على الينابيع والعيون وعلى أمطار السماء.

ففي قلب جزيرة العرب وبعض أطرافها المسكونة عني الأولون بإنباط المياه الخفية (الجوفية) من بطن الأرض، وأكثروا من حفر الآبار، وهي ضروب عندهم، ولكل ضرب منها إسم خصُّوه به، يعين أوصاف البئر وخصائصها. ومنها القَلْب ـ واحدها

قليب ـ للآبار العادية القديمة التي لا يعلم لها ربّ ولا حافر، فليس لأحد أن ينزل على خمسين ذراعاً منها، وذلك أنها لعامَّة الناس، فإذا نزلها نازل مَنَعَ غيره. ومعنى النزول أن لايتخذها داراً ويقيم عليها، وأمّا أن يكون عابر سبيلٍ فَلاَ. والهراميت ـ لا يعرف لها واحد ـ لآبار مجتمعة بناحية الدّهْناء، قال الرواة إنّ لُقمان بن عاد احتفرها. وقال الأصمعي : عن يَسَارِ «ضرِيَّة»، وهي قريةٌ، ركايا يُقال لها هَراميت، وحولها جِفار، وأنشد :

«بقايا جِفار من هَرَامِيتَ نُزَّحِ»

قال النَّضْر : هي ركايا خاصّة. والجِفار للآبار الواسعة التي لم تُطْوَ، أيْ لم تُبْنَ بالحجارة، وقيل هي التي طُوِي بعضها ولم يُطْوَ بعض، ومنها جُفر الهباءة، وهو مستنقع ببلاد غَطَفان، وجُفرة خالد من ناحية البصرة.

والطوايا ـ واحدها طويّة ـ للآبار المطوية. والجِبَاب ـ واحدها جُب ـ للآبار التي لم تُطْوَ. والبَدْء والبَدِىء للبئر التي حُفرت في الإسلام حديثةً، وليست بعادية، وذلك أن يحفر الرجل بئراً في الأرض المَوَات التي لارَبَّ لها. وفي حديث ابن المسَيَّب : في حريم البئر البدىء خمس وعشرون ذراعاً، يقول : له خمس وعشرون ذراعاً حوَالَيْهَا حَرِيمُهَا، ليس لأحدٍ أن يَحْفِر في تلك الخمس والعشرين بئراً. وإنما شُبِّهَت هذه بالأرض التي يحييها الرجل فيكون مالكاً لها. قال أبو عبيدة : يقال للركية : بديء وبديع، إذا حفرْتَهَا أنتَ، فإن أصبتَها قد حُفِرت قبلك فهي خفيَّة، و «زمزم» خفية، لأنها لإسماعيل عليه السلام، فاندفنت، وأنشد :

فَصَبَّحَتْ، قَبْلَ أذَانِ الفُرْقَانْ تعصِب أعْقَار حِيَاض البُورَانْ

قال : «البُورانُ» : القُلْبَانُ، وهِيَ الرّكَايَا، واحدها : بديء.

والفرقان : الصبح، والبديء : العجيب. والشَّبَكَات للآبار المقتربة بعضها من بعض. والكَظَائم ـ واحدتها كِظَامة ـ في صفتها أقوال، فقيل : هي القنوات التي تكون في حوائط الأعناب، وقيل : هي ركايا الكرم، وقد أقضى بعضها إلى بعض، وتناسقت كأنها نهر. وكَظَموا الكِظامة : جدروها بجِدْرين، والجِدْر طين حافتها. وقيل : الكظامة بئر إلى جنبها بئر، وبينهما مجرى في بطن الوادي، أو في بطن الأرض، أينما كانت، وهي الكظية .والكظامة، أيضاً : قناة في باطن الأرض يجرى فيها الماء. قال أبو عبيدة : سألت الأصمعي عنها وأهل العلم من أهل الحجاز، فقالوا : هي آبار متناسقة تُحفر ويباعد ما بينها، ثم يخرق ما بين كل بئرين بقناة تؤدى الماء من الأولى إلى التي تليها تحت الأرض، فتجتمع مياهها جارية، ثم تخرج عند منتهاها، فتسيح على وجه الأرض. قال أبو منصور الأزهري في التهذيب : حتى يجتمع الماء إلى آخرهن، وإنما ذلك من عَوَز الماء، ليبقى في كل بئر ما يحتاج إليه أهلها للشرب وسقي الأرض، ثم يخرج فضلها إلى التي تليها. فهذا معروف عند أهل الحجاز .وفي حديث عبد الله بن عمرو : إذا رأيت مكة قد بُعجت كظائم وساوى بناؤها رؤوس الجبال، فاعلم أن الأمر قد أظلك. ومن آبارهم الجُرُر ـ واحدها جَرُور ـ للآبار البعيدة القعر. والرّكايا ـ واحدها ركيّة ـ للآبار التي تحفر، وفي «كاظمة جَوّ» على سيف الخليج العربي، من البصرة على مرحلتين (نحو من 40 أو 50 ميلاً) ركايا كثيرة، احتفرها العرب، وماؤها شرُوب. والكرار ـ واحدها كَرٌّ وَكُرٌّ ـ من أسماء الآبار، قيل : هي الأحساء، وقيل : هي المواضع يجمع فيها الماء الآجن ليصفو. والأحساء ـ واحدها حِسْيٌ ـ للحفائر القريبة القعر، وقيل : هي الرمل المتراكم، أسفله جبل صَلْدٌ، فإذا مُطِر الرَّمْل نَشِف ماء المطر، فإذا انتهى إلى الجبل الذي أسفله أمسك الماء، ومنع الرَّمْلُ حرّ الشمس أن ينَشِّف الماء. فإذا اشتد الحرّ، نُبث وجه الرّمل عن ذلك الماء، فنبع بارداً عذباً. قال أبو منصور الأزهري : وقد رأيت بالبادية أحساءً كثيرة على هذه الصفة، وذكر منها أحساء بني سعد بحذاء هَجَر وقُراها، وكانت في زمانه دار القرامطة، ومنها أحساء خِرشاف، وأحساء القَطِيف، وهي المشهورة اليوم. وبحذاء

الحاجر في طريق مكة أحساء في وادٍ متطامن ذي رمل، إذا رَويت في الشتاء من السيول الكثيرة الأمطار، لم ينقطع ماء أحسائها في القَيظ. ومنها المقاعد - جمع المقْعدة - للآبار التي تحتفر، فلا ينبط ماؤها، فيتركونها. وبئر قَعدَة، إذا كان طولها طول إنسان قاعد. وأقْعَد البئر : حفرها قدر قِعْدة وَقَعْدَة. وأقعدها إذا تركها على وجه الأرض، ولم يَنْتهِ بها إلى الماء. وغير ذلك من آبار.

ومن هذه الآبار ما طُوِيَ اسمها، وَرُدِمَ مكانها، فلم تُعرف اليوم. ومنها ما هي معروفة باسمها ومكانها، فاستُفِيد منها، أو استُغني عنها فأُهملت. وقد شاهدت من الآبار المعطَّلة بئرَ أعشى قيس أحدِ شعراء المعلقات العشر في قرية منفوحة من نواحي الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، وهي بئر عظيمة مطويَّة (مبنية بالحجارة) عميقة وواسعة، وقد عطلت، وشاهدت حولها سوائم، ولم أشاهد رَيّاً كما في سابق العهود.

وكما عُنِيَ الأولون في جزيرة العرب بإنباطِ المياه الخفية، واحتفار الآبار في شتى بقاعها، عُنوا كذلك ببناء الحياض والبِرَك الواسعة لتستقبل مياه الأَمطار وتخزنها، وهي ضروب كذلك، وقد سموا كل ضرب منها باسم يجانس صفته. ومنها : الزَّلَفُ - جمع الزَّلَفَة - للبِرَك التي تطفح، وهي المَزَالِف أيضا. قال الأَصمعي : هي مساكات لماء السماء، يحتفرها الناس، فيملؤها ماء السماء يشربونه. والمصانع - واحدها مَصْنَعَة - للحياض وأحباس الماء، وتسمى أيضا : الأَصْنَاع والصُنُوع، واحدها صِنْع.والصهاريج - واحدها صِهْريج - للحياض يجتمع فيها الماء، جاء في رَجَزِ العَجّاج : «حتى تناهى في صهاريج الصفَا»، يقول : حتى وقف هذا الماء في صهاريجَ من حجر. قال ابن سِيدَهْ : الصِّهريج مَصْنَعَة يجتمع فيها الماء. وحوضٌ صُهارج، بالضم : مطليّ بالصاروج، أي النّورة وأخلاطها التي تطلى بها الحياض والحمامات، ومنه قول بعض الطفيليين : وَدِدت أن الكوفة بركة مصهرجة. والمآجل - واحدها المَأْجَلُ - لأشباه الحياض

الواسعة، تُؤجَلْ أي تُجَمَّع فيها المياه إذا كانت قليلة، ثم تُفَجَّر إلى المَشَارَات والمزرعات والآبار.

والأجْبَاء ـ واحدها الْجَبَا ـ للحياض التي يجبى أي يجمع فيها الماء الذي يستقى من الآبار. والجوابي ـ واحدها الجابية ـ للحياض الضخام، قال الأعشى :

تَرُوح عَلَى آلِ الُمحَلَّقِ جَفْنَةٌ كَجَابِيَة الشَّيْخ العِرَاقِي تَفْهَقُ

قال الشراح في تفسيره : خص العراقي لجهله بالمياه، لأنه حضري. فإذا وجدها، ملأ جابيته، وأعدَّها، ولم يدر متى يجد المياه. وأمَّا البدوي، فهو عالم بالمياه، فهو لا يبالي أن لا يُعِدَّهَا. ويُرْوى : «كجابية السيح» وهو الماء الجاري. والجبايا للركايا التي تحفر وتنصب فيها قضبان الكَرْم.. إلى غير ذلك.

فأي جُهد هذا جهده العرب لتوفير المياه للشرب وسقي الزروع، فاحتفروا ما احتفروا من الآبار، وبنوا ما بنوا من البرك والحياض والصهاريج والمآجل، ولم تكن لهم عدد للاعتمال غير المساحي والقدائم والمعازق ! فحققوا بها وبفضل إرادتهم ومعاناتهم في سبيل الحياة ما يعجز عن مثله الآخرون !

وفي اليمن حيث تكثر الأمطار، وتتدفق السيول، وتفيض الأودية، جهد اليمانيون الأولون جهدهم في حفظ هذه المياه، فأكثروا من إنشاء الحياض العظيمة، والقنوات والمجاري المسدودة أو المكشوفة التي أطلقوا عليها إسم «الغيول»، وأقاموا السكور والسدود في بطون الأودية، تحجز السيول، وتخزنها، وترفع المياه لإرواء الأرضين المرتفعة كما يفعل أهل التمدن الحديث محاكاة لهم في بناء خزانات المياه. وقد تكاثرت عندهم هذه السدود والخزانات بتكاثر الأودية حتى جاوزت المئين. وأجتزى من ذكرها

بواحد منها كان له أبلغ الآثار في ازدهار العمران والخصب في اليمن، ألا هو سد مدينة سبأ : قاعدة تبابعة اليمن قبل الإسلام، المشهور باسم سد مأرب. وقد خصه القرآن بالذكر، لما قام حوله من هذا الازدهار الحضاري وخصب النعيم، ثم لما نشأ عن خرابه من دمار وتخلف، وقصد الاعتبار والادّكار، والحضّ على استئناف العمارة وتحقيق الرفاهية والرغد، فقال عز وجل في سورة سبأ : ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15). فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ** [1] **وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ** [2] **وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلاَّ الْكَفُورَ (17)**﴾ [1] قال ابن عباس رضي الله عنهما : «كانت اليمن أخصب البلاد وأطيبها : تخرج المرأة، وعلى رأسها المُكْتُل، تعمل بيديها، وتسير بين تلك الشجر، فيمتلىء المُكْتُل مما يتساقط فيه من الثمر». وحين خرب هذا السد العظيم بسبب إهمال التعهد والصيانة والإخلاد إلى الدعة والانقطاع عن الاعتمال، تقلّص عمران اليمن، وذهب منها الكثير من الخير والمَيْر، وأجفل السكان إلى الأطراف، وكانت هجراتهم إلى مواطن الخصب في شمالي جزيرة العرب وغير جزيرة العرب. وكان اليمانيون قد أقاموا هذا السد «بين ثلاثة جبال، يصب ماء السيل إلى موضع واحد، وليس لتلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة. فَسَدَّ الأولون ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرَّصاص، ليجتمع ثَمَّ مَاءُ عيون هناك، مع ما يختص من مياه السيول، فيصير خلف السد كالبحر. فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم، فتحوا من ذلك بقدر حاجتهم، بأبواب محكمة، وحركات مهندسة، فيسقون بحسب حاجتهم، ثم يَسُدُّونه إذا أرادوا». وهذا في نظام الرَّي الحديث يسمى التقسيط على ما سأذكره بعد.

---

1) العَرِم : السَّدّ بلغة الحِمْيَريين.
2) ذو أشواك.

[1] أورد المؤلف هذه الآية الكريمة بقراءة حفص. ويقرأ المغاربة بقراءة ورش : «...مساكنهم... أُكْلٍ... وهل يُجَازَى...» ووجب التنبيه دفعا للالتباس.

أما «الغُيُول» التي أسلفت ذكرها، وهي المناهل ينهلون منها، ويروون بها مساحات من الأرضين، فقد ذكر بعض الرحالة أنها في شمالي اليمن، وقد كانت إلى نحو مئة عام خلت تروي مساحات واسعة في قرى شعوب والروضة والجراف، فأصبحت وبعضها جاف كل الجفاف، وبعض آخر تناقص الماء فيه إلى النصف أو الثلث من مقداره الأول، فآضت تلك المساحات غامرة باسرة، بعد أن كانت زاهرة ناضرة.

على أن الغُيُول ـ واحدها غَيْلٌ، بفتح فسكون ـ ليست مخصوصة باليمن، فإن العرب يطلقونها على المياه تجري على وجه الأرض، وما تجري في الأنهار والسواقي. وفي التشريع الإسلامي كما جاء في الحديث: «ما سُقِيَ بالغَيْل فيه العُشْر، وما سُقِي بالدَّلْوِ ففيه نصف العشر». ويطلقون الغَلَلَ، بفتحتين، على الماء الذي يجري بين الشجر.

أما أرض الحجاز ـ وهي سُهْلِيَّة وجبلية ـ فقد احتفر الأولون فيها الآبار، وأكثروا منها في كل مكان يسكنونه، وآبار مكة وحدها ـ التي احتفروها قبل الإسلام ثم بعده، إلى أن أجرت إليها السيدة العباسية العظيمة زبيدة ابنة أبي جعفر المنصور، وزوج هارون الرشيد الماء العذب من «وادي نعمان» ـ يشغل سرد أسمائها حيِّزاً من البحث. ومن هذه الآبار ما طُوِي اسمها أو رُدِمَ مكانُها، فلم تظل معروفة، ومنها ما هي معروفة إلى اليوم باسمها ومكانها فاستُفيد منها، أو استُغني عنها فتعطلت.

كذلك بنى الأولون المصانع والصهاريج في مدنه، والمآجل في أصول الجبال والأودية، لتجتمع فيها مياه الأمطار والسيول، وأسالوا المياه من الينابيع والعيون في القنوات. ولكن هذه القنوات العُدْمُلِيَّة، أي القديمة، قد انطمرت. وحفروا حديثاً في مكة ـ في محلة الشهداء ـ أحَافِيرَ، فعثروا على قنوات قديمة تحت الأرض، وعلى مياه جارية، وأخرى مطمورة كالتي أصابها المصريون في الفُسْطاط، فقد وجدوا في بطن الأرض

هنـاك شبكـة من القنـوات وهي مطمـورة. وفي صحراء «عَرَفَـة» مـوقف الحـاج آبـار معطلة، احتفرها الأولون، وأهملها الخالفون. وفي حـدهـا من الجبل المشرف على بطن «عُرَنَة» إلى جبالها إلى قصر آل مالك ووادي عرفة قرية اسمها «فرعـة» ذكر البشـاري المقدسي في المئة الرابعـة الهجريـة (10م) أن فيهـا مزارع وخضرا ومبـاطخ، وبهـا دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة، والموقف منها على صيحـة عنـد جبل متلاطيء، أي متدانٍ إلى الأرض، وبها سقايات وحياض. وفي المدينة، ولا سيا في «العوالي» ذات البساتين والنخيل وكرائم الأشجـار، مـا شئت من الآبـار العـدملية الواسعـة العميقـة المطوية بالحجارة، ومن المستحدثات على غرارها، وعندها البرك والحياض.

وذكر المؤرخون في أخبار الصحابي الجليل عبد الله بن عامر بن كريز العَبْشَمي رضي الله عنـه، وكان من قـادة الفتوح الإسلاميـة في الشرق : أنـه «اتخـذ نبـاج ابن عـامر قرية، وغرس فيها، واتخذ القريتين وغرس فيهما نخلاً، وأنبط عيونـاً تُعرف بعيون ابن عامر، بينهـا وبين النِّبـاج ليلـة على طريق المـدينـة، وحفر الحفير، ثم حفر السُّمَيْنَـة، واتخذ بقرب قُبَاء قصراً، وجعل فيه زِنْجـاً ليعملوا فيـه، فمـاتوا، فتركـه. واتخـذ بوادي عرفة حياضاً ونخلاً ـ كما احتفر في البصرة ـ أيام ولاّه عليها الخليفـةُ الشهيـد عثمان بن عفـان رضي اللـه عنـه، نهرين، وحفر نهر الأُبُلَّـة، وكان يقـول : «لـو تركت لخرجت المرأة في حـداجتهـا على دابتهـا، ترد كل يـوم مـاءً وسـوقـاً، حتى تـوافيَ مكـة». وفي الطائف وما يجاورها كثير من سدود الماء القديمة الخربـة، وآثـار عمران دارسـة كانت جنـانـاً نـاضرةً. وفي الحجـاز من المواضع المعمـورة سـابقـاً بـالمـاء والـزروع والغروس والسكان، وادٍ عظيم، يعرف بـ «وادي القرى»، من أوله إلى آخره قرى منظومـة، ذكر ياقوت أنها في زمـانـه (أوائل المئـة السـابعـة الهجريـة، (13م) كلهـا خراب، وآثـارهـا ظاهرة، ومياهها جارية تتـدفق، ضـائعـة لا ينتفع بهـا أحـد. ونقل عن السَّكُوني أن «وادي القرى والحجر والجناب ـ بين الشـام والمـدينـة ـ يمر بهـا حـاجُّ الشـام، وكانت قديماً منازلَ عـادٍ وثمود، وبهـا أهلكهم اللـه، وآثـارهـا إلى الآن بـاقيـة، ونزلهـا بعـدهم

اليهود، واستخرجوا كظائمها (أسلفت الكلام عليها)، وأساحوا عيونها، وغرسوا نخلها. فلما نزلت بهم القبائل، عقدوا بينهم حلفاً، وكان لهم فيها على اليهود طُعْمَة وأُكُلٌ في كل عام، ومنعوها لهم عن العرب ودفعوا عنها قبائل قضاعة. وروي أن معاوية رضي الله عنه، مرَّ بوادي القرى، فتلا قوله تعالى : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءامِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (149)﴾ [1] ثم قال : هذه الآيات نزلت في أهل هذه البلدة، وهي بلاد ثمود، فأين العيون ؟ فقال له رجل : صدق الله في قوله، أتحب أن أستخرج العيون ؟ قال : نعم. فاستخرج ثمانين عيناً. فقال معاوية : الله أصدق من معاوية.

ومن الأماكن الحجازية الواعدة بمستقبل زاهر : «ينبُع»، و «وادي رابغ» ومعنى الرابغ العيش الناعم، وهو من أخصب أودية الجزيرة العربية. وثم في الحجاز «وادي بيشة» من الأودية الخصبة وأكثرها خيرا، قال الأمير شكيب أرسلان : «حدثني الكاتب النمساوي ليوپولد ڤايس الذي أسلم وتسمى محمد أسد الله، أن في هذا الوادي من قابلية الزراعة ما يكفي ميرة مكة وجوارها طول العام لو كان العمل قائماً فيه كما يجب». وأما النخيل فكثرته فيه تدهش العقل. وبالجملة إن المرء أينما غدا وراح في جزيرة العرب، وجد السدود والحواجز والقنوات بين كبير وصغير، غير ما انطمر وغاب عن الأبصار، ناطقة بلسان حالها أنه يجب إحراز المياه للإرتفاق والزرع والغرس، لأنها لا تتيسر هنا في كل وقت.

تلك لمحة عن بعض معالم الري القديمة الدوارس في بعض أصقاع جزيرة العرب، وغيرها كثير، يتعين اليوم إحياؤها كما يتعين إحياء أمثالها في باقي أرض الوطن العربي الكبير، ليزدهر الخصب ويفيض النعيم في كل مكان.

---

[1] قرأ ورش : «فَرِهِين».

2 ـ انتهاج مذهب جلب النفع الأكبر عند إرادة إحياء تلك الدوارس، أو إرادة تطوير القديم من معالم الري، أو استحداث الجديد من مرافقه. فما ضمن تحقيق نفع أكبر، وأقرّت البحوث والدراسات العلمية المعمقة فضل فوائده وعوائده وغزارتها، وَجَبَ الإقدام عليه واقتحامه والتضحية بكل ما يعترض سبيله من شيء مهما كان شأنه.

إن التضحية بالمهم من أجل الأهم بدرجات وأبعاد شواسع، حيث يفرض الواقع نفسه، أمرٌ لازم لآزب، تقتضيه سنن الحياة وطبيعة العمران.

لقد انتهجت مصر مؤخراً هذا المذهب حين أقدمت على بناء «السد العالي» على النيل في الجنوب، فضحت بكثير من العمران وآثار قدماء الفراعنة التاريخية فيه وحوله، من أجل إيجاد مرفق عظيم فرضته الحاجة ومطالب الحياة الجديدة المتنامية.

وينتهج العراق اليوم هذا المذهب العمراني في إقدامه على بناء «سدّ حديثة الثورة» على أعالي الفرات، وقد ضحى بمدينة تاريخية قديمة هي مدينة عَانَات، «عانه» من أجل إنعاش الخصب وإفاضة الخير والنعيم في بسائط من الأرض واسعة الأرجاء، بإيصال الماء العذب إليها، وسقيها بها. ثم هُوَ لم يترك أهلَ هذه المدينة من غير تعويض بمدينة جديدة خير منها خططاً وعمراناً، وأجل مساكن، وأفضل مرافق.. فبنى لهم إلى الشرق منها مدينة «الريحانة» !

وآخر ما بلغني، وأنا أكتب هذا البحث، من انتهاج العالم الجديد هذا المنهج نبأ تضحية حكومة البرازيل في سلخ تشرين الأول 1982، بإحدى عجائب الطبيعة في العالم هناك، وهي المساقط السبعة المعروفة باسم «لاسي سيتي كويداس». وذلك من أجل بناء «سد إيثايبو» الذي يقال إنه أكبر سدود العالم، ليخزن تسعة وعشرين مليار

متر مكعب من المياه، تروي الشاربة، وتسقى الزروع والغروس، وتمد الصناعات، وتزيد الانتعاش. وقد عدَّ البرازيليون زوال المشهد الرائع للمساقط السبعة هذه جريمة في حقّ الطبيعة، وحقٍّ الإنسان في إمتاع شهوة عينه بمشاهدة بدائع صنع الباري، وأثار ذلك مشاعرهم، فرفعوا العقائر بصيحات الاستنكار، وسارعوا منذ منتصف أيلول المنصرم، ليلقوا عليها آخر نظرة قبيل اختفائها كما ألقى أبو عبد الله آخر نظراته على «غرناطة» إذ يودعها إلى غير رجعة، وهم يقولون : «إذا كان «سد إيثايبو» قد بلغت كلفته ملياري دولار، فإن المساقط السبعة لا تُقدر بثمن، إنها ثروة طبيعية عظيمة، جاد بها الله على البرازيل، وحكومته تفرط بها». فردت الحكومة البرازيلية على شعبها المحزون : «إن التقدم يفرض نفسه، ولم يكن تفادي التضحية بهذه المساقط مستطاعاً، وتوفير الماء للبرازيليين لأَجل حياة فضلى أجدى عليهم من إمتاع العيون !».

3 ـ اعتماد العلم والفن في الإحياء، وتطبيق مناهجها العملية التي أثبتت التجارب جدواها، فإن هذا أصل في صناعة الري التي تُعنَى بإيصال الماء إلى جذر الشجر والنبات. وقد كان سكان وادي الرافدين ووادي النيل قبل خمسة آلاف سنة هم الذين ابتدعوا هذه الصناعة، بَدَؤُوها ساذجة، وطوروها على مر الزمن، ومنهم انتقلت إلى أنحاء المعمورة، إلى أن جاء العصر الحديث بآلاته المتطورة، فحسن الري بها، وبما أضاف من طرق ووسائل فنية جديدة في إنباط المياه وتكثيرها وإسالتها إلى المواقع المحرومة منها في يُسْرٍ أكثر، ووقت أقصر...

فلا مندوحة من إخضاع الشأن كله للعلم الحديث والفن المتطور واصطناع الآلة الجديدة، على بالغ تكاليفها، إلى جانب الوسائل والآلات التي لاقصور بها في الإرتفاق وإيصال المياه إلى حيث يراد الارتواء، ولا تكلف مالاً كثيراً ولا زيتاً ولا فحماً، كالآلات الرافعة التي تدور بهبوب الريح، فترفع الماء، فيتصبَّب في السواقي،

وتُعرف باسم الدواليب الهوائية، وتستعمل كثيراً في هولندة، وفي جزيرة مَيُورقَة من جزر البحر المتوسط وغيرها، والنواعير التي تقام على الأنهار، وترفع الماء بقوة التيار. ولا تكلف مشقة ولا مالا، أمثال نواعير نهر العاصي في سورية، ونواعير ألوس والحديثة وهيت في أعالي الفرات بالعراق، ونواعير الأحواز على نهر دجيل، وناعور دزفول وكانت على جانبي نهرها وفوق جانبها الشرقي قناة منقورة في الصخر، عليها ناعور عظيم يرفع الماء إلى عُلُوِّ خمسين ذراعاً، فيسقي بيوت المدينة. ونواعير نهر القصارين في سُغْد سَمَرْقَنْد، وغيرها كثير في غابر الزمن وحاضره وفي بلاد كثيرة. فإذا كانت المضخات الحديثة والآبار الأرتوازية الرافعة المياه من الأعماق أحسن ارتفاقاً من هذه الآلات القديمة، فلا ريب في أن تكاليفها باهظة، والقيام على صيانتها يكلف جهداً بالغاً وشغل بال قد تنوء به النفوس. ولكن لا مندوحة من إدخالها إلى الوطن العربي والإكثار منها حيث تستدعي الحاجة إلى هذا الإكثار، على أن تقوم إلى جانبها صناعة تضمن صيانتها، وأيد تحسن الارتفاق بها كما يفرضه العلم والفن.

4 ـ إجراء مسح عام للمياه والمساحات الزراعية في الوطن العربي، ووضع مُصَوَّر مائي بيئي لكل إقليم من أقاليمه، يعين مصادر مياهه السطحية، ومياهه الجوفية، ومقادير كل نوع منها، كما يعين مساقط الأمطار والثلوج ومقاديرها في السنة الواحدة. ويوضح طبيعة الأرضين الزراعية، ومساحتها الحاضرة وما يقدر لها من امتداد إلى ساحات أخرى قابلة للزراعات، ويوضح كذلك اختلاف مناخه وما يلائم كل مناخ من الزروع والغروس ليستبقيَ منها ما يوافقه، أو يجب تبديله، أو زرعه وغرسه، أو إلغاؤه، تحقيقاً للتنمية الزراعية.

ويستفاد من هذا المسح ومن وضع المُصَوَّر المائي البيئي أمران :

أحدهما تتعرف منه كفايات المياه على اختلاف أنواعها في كل إقليم، وما يكون بينها من تفاوت كثرةً وقلةً، فتعطى الأولوية للأهم بحسب الحاجة إليه عند إرادة إحياء

دوارس الأنهار، أو عند إرادة حفر الترع ومد القنوات والمجاري إلى الأَرضين البور لإحياء الموات وإكثار الزراعات، أو بناء السكور والسدود والخزانات للسيطرة على المياه، وخزن فوائضها ونحو ذلك من أمور.

والآخر تستفاد منه صفات الأَرضين، وخصبها وملوحتها، وارتفاعها وانخفاضها، ومساحاتها وما يمكن أن تستوعبه من الزروع والغروس وطبيعة مناخ كل ناحية من البرودة والحرارة والاعتدال ليزرع فيه ما يلائمه على ما أسلفت، فيوفر بذلك لكل إقليم الفيض من الحبوب والثمار والفواكه وصنوف الخير.

بعد اعتبار هذه «المناهج» وغيرها مما لا تقوم صورته في ذهني، واتخاذها قاعدة لحلول مشكلات إيصال الماء إلى حيث يراد إيصاله، وخزنه للإرتفاق به في أوقات الحاجة إليه، وإنباطه في الأَرضين الجُرُز لإحيائها ونشر الخصب في أرجائها، يصار إلى «الوسائل» التي يستعان بها في هذا الشأن كله.
وتقوم في فكري من هذه «الوسائل» مجموعتان :

إحداهما تسيطر على مصادر المياه، وتخزن فوائض الأَنهار وتحفظها، وتسيل الينابيع والعيون إلى الجهات المحرومة من الماء، وتيسر إنباط المياه الخفية (الجوفية) في الصحاري حيث تقل الأَمطار والثلوج أو تحتبس فتقشعر الأَرض، ويضرب الجفاف والجدب الإنسان والحيوان.

والأُخرى تتناول وسائلها كيفية تصريف الماء وتغذية الزروع والغروس به، والاقتصاد الرشيد في الإرتفاق به في مختلف الشؤون التي لا بدّ لها من الماء.

ومن وسائل المجموعة الأولى :

1 - بسط السيطرة على مصادر المياه عامة، وضبطها وخزنها، ببناء السكور، والإكثار منها في مجاري السيول في الأَودية وحيث تكثر الينابيع والعيون كينابيع الخابور

مثلا، وبناء السدود والخزانات العظيمة على الأنهار الكبار لخزن مياهها الفائضة وإسالتها في أوقات العطش إلى المزارع، لإرواء الشاربة، وإنعاش الزروع والغروس. وهذا أمر معروف في غابر الدهر وحاضره، وقد احتفل به العرب قديماً كما احتفل به غيرهم من الأقوام. غير أن بناء هذه السدود والخزانات في العصر الحديث أكثر إحكاماً، وأدق ضبطاً بما توافر الآن من المواد المختلفة للبناء ومن وسائله. وأعظم السدود والخزانات التي بناها العرب في العصور الغابرة قبل الإسلام، سد مأرب الشهير في اليمن، الذي أسلفت وصفه وأثره في إنعاش الزروع والغروس هناك، وهو صنع عظيم ينطق بما كان للعرب من حضارة، ويد باسطة في الإعمار والإنعاش. ومثل هذا السد يجب أن يعاد بناؤه ليؤدّي في إنعاش اليمن الآن ما أداه لها من ذلك في الأمس الدابر. وقد بدأ الوطن العربي منذ مطالع العصر الحديث بناء السدود والخزانات على أنهاره الكبار، وسبقت مصر فأقامت القناطر الخيرية على النيل في شمال القاهرة، ثم بنت بعد حين من الدهر «السد العالي» المشهور في جنوبي القطر. وبنى العثمانيون في آخر أيامهم في العراق «سد الهندية» على الفرات في سنة 1912، ثم أنشأت الحكومة الوطنية «ناظم الكوت» على دجلة في جنوب بغداد في سنة 1939م، ووالت بعد ذلك إقامة سدود وخزانات كبيرة محكمة البناء على دجلة وروافدها في شمالي العراق وعند مدينة سامراء، ويقام اليوم «سد حديثة الثورة» على الفرات. وعلى هذا المنهج سارت سورية والأردن وأقطار المغرب العربي. ويبدو أن المملكة المغربية أكثرها بناء للسدود والخزانات على الأنهار ومجاري السيول في الأودية، وقد عرفت منها : سد إمْفُوت، وسد ماسه، وسد المسيرة، وسدوداً أخرى في الشمال والشرق من أرض المملكة المغربية، ولعل طموحها إلى إحداث «الثورة الخضراء» وكفاية البلاد أضرار الجفاف الذي قد يحدث في بعض السنين، سيبتعثها إلى المزيد من بناء أمثال تلك السدود والخزانات.

ولا بد أن أشير إلى أن شأن السيطرة على المياه الفائضة، وضبطها، وتوزيعها في هذا العصر الآلي الحديث، يختلف اختلافاً كلياً عن شأنها في العصور القديمة، بحكم تطور

العلوم والفنون والصناعات. فقد أصارت ذلك كله للوسائل الآلية الحديثة منذ دخلت الآلة في أعمال الرَّي. وابتكرت في أول الأمر آلات يوجهها الإنسان بيده، فيسيطر على مقادير المياه وأوقات استعمالها، ثم تطورت الحال فاستحدثت طرق ذاتية تعمل وَفْقَ توقيت مُوجَّه. ولوحظت قلة قدرة هذه الطرق على الاستجابة للتغيرات الطارئة، أو تقلبات الطبيعة، فابتكرت طرق أخرى تضبط إعمال الآلات وتوقيتها من بُعْد، ومن مسافات كبيرة حيث يوجه موزع الماء حصص الماء بالمقادير والأوقات المحسوبة، وتتلافى الحوادث الطارئة بالضغط على أزرار تنقل إيعازاته بالأسلاك أو بغير الأسلاك إلى أجهزة الكترونية تضطلع بالتنفيذ. وازدادت هذه الطرق إتقانا باستعمال الحاسبات الالكترونية التي تؤدي كثيرا مما يؤديه عقل الإنسان، على وفق منهج يضعه لها الإنسان، فتنفذ الأوامر استجابة لقياسات تؤديها الأجهزة والمقاييس المختلفة المثبتة في التربة، وفي الجو لتلبي حاجة الزرع، وتقف بوجه تقلبات الطبيعة، ومتطلبات الإنسان، وتوفق بين متطلبات النبات المختلف والمزارع المختلفة. على أن الفكرة السائدة في شأن هذه الحسابات الالكترونية مبالغ فيها، فهي تخطيء كما يخطيء الإنسان، لأنها إنما تنفذ منهجه، فإن كان في المنهج أو في نقله أو طبعه خطأ، انتقل ذلك إلى التنفيذ.

وكيفما كان الشأن، فإن إدخال هذه الوسائل الحديثة الرائعة إلى عالم الري في الوطن العربي أمر لا مناص منه، على أن تعد الطاقاتُ العقيلة العلمية لتشغيلها بقدراتها.

2 ـ الإكثار من حفر الترع والقنوات، ومن مد الأنابيب الضخام إلى الأرضين الزراعية التي تبعد عن الأنهار، لإرواء الزروع والغروس. وهذا شأن جهدت الأمم فيه من قديم الزمان، وشهدت أجزاء من الوطن العربي نشاطاً عظيماً فيه، ولا سيما في العراق قبل الإسلام ثم إبّان العصر العباسي، أيام انتقلت إليه قاعدة الدولة الإسلامية العظمى. ومن بينات ذلك القواطيل والنهروانات وغيرها من عهد ما قبل الإسلام،

ثم شبكات الأنهار التي احتفرت في العصر العباسي، في أنحاء شتى من إقليم العراق، وأخصها الترع التي احتفرت في جانبي بغداد حاضرة الخلافة الكبرى، وحملت الماء إليهما من دِجْلة في الشرق، ومن الفُرات في الغرب، وأقيمت عليها القناطر والجسور، ومنها ما جرت فيها الفلك، وكانت طرق مواصلات مائية تحمل التجارات، وتغدو وتروح بالناس من موضع إلى آخر، وكذلك شبكات أنهار واسط مدينة الحجاج بن يوسف الثقفي الشهيرة في جنوب بغداد ووسط العراق، وشبكة أنهار البصرة في الإسلام، وأول مدينة بناها العرب العُمَّار لأول فتح العراق في خلافة عمر بن الخطاب العظيم رضوان الله عليه. وقد درست ـ مع بالغ الأسف ـ شبكة أنهار بغداد إلا قليلاً، وشبكة أنهار واسط جملة، واحتفظت البصرة ـ بندقية العرب ـ بأنهارها بفضل مد البحر وجزره اللذين يراوحانها دواماً. وفي نهضة العراق الحديث اليوم عودة إلى إصلاح القديم وإيجاد الجديد. والأمم النامية كلها تفعل ذلك.

وقد سبقت مصر في أوائل العصر الحديث، فحفرت الترع الكثيرة وأسالت فيها المياه من النيل إلى جميع أنحاء «الدلتا» في شمالي القطر، فازدهرت هنالك الزراعة ونعمت البلاد بخيراتها من خضر وفواكه وحبوب. وفي الصين أنهار كبار... شقوا منها آلافا من الترع تحمل المياه إلى البقاع المحرومة من الأنهار، وقد بلغ طول بعض ترعها، كالترعة الإنْبرَاطورية، 926 ميلا. ومثل ذلك فعل العرب في الأندلس والحجاز، ومثاله فيه قناة زبيدة التي أسلفت خبرها. ولعل مد الأنابيب الضخام أيسر من حفر الترع، على أن فيها من مزايا حفظ المياه من التبخر ومن التسرب في التربة، ما ليس في الترع المكشوفة وغير المبطنة. وقد عرفت الحضارة الغابرة «البرابخ» أنابيب قصار من الفخار، يوصل بعضها ببعض. ويسال فيها الماء. ولكنهم قلما استعملوها، وقد أدركناها لأول العمر ببغداد، وهي تستعمل مجاري لغير مياه الشرب أو السقي، ثم اختفت بظهور أنابيب الآهين. وقد تحدث أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرجي عن هذه البرابخ وطريقة استعمالها قديماً، فلا بأس بإيراد ما قاله في هذا

الشأن لزيادة المعرفة بأحوال الحضارات ومرافقها القديمة، قال : «إنها تنصب في مجاري الماء لأمرين : إما أن تكون ساقية ناشئة له يمحق الماء، أو لصيانته من حلول النجاسات فيه إذا كان جريه على وجه الأرض في ساقية غير قصيرة ما بين العمارة. وإما نصب هذه البرابخ أن يحفر في الأرض موضعها إلى ساقية، يكون قرارها إذا مد عليه خط لم يوجد في قرارها اعوجاج من صعود ونزول، ويكون مخرج الماء منها أسفل من مكان مدخل الماء منها، على أن يدخل الماء فيها من أوسع بابيه، ويخرج من أضيقها، ويطلى الرأس الأضيق قدر إصبعين بالنورة الزرقاء - وهي التي يخلط بها رماد من كُورها -، ويدخل في جوف الذي يليه، ويطلى بعد ذلك الوصل خارجاً بالنورة المذكورة، ويترك في كل مئة ذراع إلى أجوافها مُتَنَفَّس، لئلا تختنق الريح فيها فتشقها. فإذا فرغ من ذلك، تركت ثلاثة أيام أو أكثر، ثم يرسل الماء فيها على رفق. وإن طلي داخلها قبل نصبها بالشحم المذاب والدهن، كانت أحفظ للماء. وإذا انطبقت في موضعها على ما وصَفْتُ، طُمَّ حَوالَيْهَا وظُهُورها بطين حر، حتى لا يبقى في أسافلها موضع خالٍ منه».

3 - الإكثار من بناء الصهاريج والمآجلِ والبِرَك الواسعة في الأرضين التي لا تجري فيها الأنهار، لخزن مياه الأمطار وتصريفها في أزمان المحن واحتباس المطر، في الزراعات والإرتفاق والإنعاش : إنعاش الإنسان والحيوان. وقد علمت التجارب الناس الذين يسكنون بعيدا عن الأنهار، ويعتمدون في الأكثر على المطر أن السماء تجود بمياهها وتهطل أمطارها غزيرة حتى تغرق وتدمر في بعض السنين، كالأمطار التي هطلت وأنا أكتب هذا، على بلاد تونس في أول تشرين الثاني هذا، بعد احتباس طويل، فأغرقت المدن (سفاقس وغيرها)، وعطلت الأعمال، وشردت الناس، وكالمطر الذي انهمر على المغرب مساء الأحد السادس من تشرين الثاني 1981 كأفواه القرب، وأغاث الأرض والإنسان والحيوان، بعد انقطاع دام عامين فعم الجفاف والجدب، وأقيمت لطلب السقيا من الله تعالى صلاة الاستسقاء في مساجد المملكة

ظهر الجمعة 4 / 11 / 1981م، وقد شاهدت من هطوله على «الرباط» العجب من تدفقه وغزارته، بعد أن طبقت سحبه السماء نهار الأحد وانهمرت في مسائه، فجنَّ بها الناس ابتهاجاً وفرحاً.. أقول : إن التجارب إذ علمت الناس أن السماء تجود عليهم هذا الجود فتحييهم، علمتهم كذلك أن قد تبخل عليهم في بعض السنين، فلا تغيثهم بقطرة، فيعيشون بغير أمطار، وقلوبهم تراودها الآمال، وعيونهم تشخص أبداً إلى السماء، ويثبط استمرار الجدب همم الفلاحين في موسم الحرث والبذر، فلا يحرثون أرضا، ولا يبذرون بذراً، مخافة أن لاتنزل الأمطار، فتحيق بهم الخسائر الفادحة، ويصابون بالفقر، ويُمْنَوْن هم وسوائمهم ودواجنهم بالظَّمأ والجوع، فيجفلون من أرضهم إلى حيث يحيون. وتلك هي المشكلة الكبرى التي يجب أن تُستأصل، ويُحتاط لها بما يدفع غائلتها وذلك بإنشاء الصهاريج والمآجل والبرك الكبار لتخزن مياه الأمطار، ولا يترك شيء منها يذهب ضياعاً، تبخراً بحرارة الشمس أو تسرباً في بطن الثرى، وكل ذلك كان معهوداً عند القدماء، ولكن الكثير منه درس وانطمر، وآثاره ماثلة في مختلف البقاع، وقد اشتهر في المغرب منها البركة العظيمة التي أنشأها في «مكناسة الزيتون» مولاي السلطان إسماعيل سلطان المغرب في أواخر المئة الحادية عشر الهجرية إلى نحو منتصف المئة الثانية عشرة، جد الأسرة الشريفة المالكة اليوم في المغرب، وقد بلغت مساحتها أربعة هكتارات، أي أربعين ألف متر مربع، وكانت تسقي البساتين المحيطة بالقصور الإسماعيلية، وتسير فيها الفلك والزوارق للتنزه والانبساط. ولست أدري ما حالها اليوم، فهي نموذج حضاري رائع، تنشأ البرك على غراره للإغاثة والإعمار. ومن هذا الطراز وأروع في حضارة العرب وعنايتهم بالري ـ البركة العظيمة العجيبة الصنع التي أنشأها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر في مدينة الزهراء من نواحي قرطبة بالأندلس، وأسال إليها من جبل قرطبة في المناهز المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة، ويجوز هذا الماء الى جوف أسد عظيم الصورة بديع الصنعة من عَجُزِهِ، ويمجّه في تلك البركة من فيه تَجَّاجاً، فيسقي من مجاجه جنان هذه المدينة العظيمة على سعتها، ويفيض على ساحاتها

وجنّاتها، ويمد «النهر الأعظم» بما فضل منه. وإن أنس لا أنس بركة الخليفة العباسي المتوكل على الله في مدينة سامراء بالعراق، التي بلغت الغاية في السعة والعظم على ما وصف الشاعر البحتري والمؤرخون، وقد كانت تسبح فيها أسماك الدِّلْفين. وقد درست بدروس سامراء بعد انتقال الخلفاء العباسيين منها إلى عاصمتهم الأولى بغداد.

وإلى جانب إقامة هذه المرافق المائية في المناطق الصحراوية وأمثالها، يجب الإكثار من «الآبار الارتوازية» هناك وحيث تدعو الدواعي إليها، وهي ضرب من الآبار عظيم النفع، تمج الماء دواماً بأسباب ووسائل ليس هذا موضع بيانها، وقد بديء استعمالها في العصر الحديث في فرنسة، في مقاطعة «أرتواز» فنسبت إليها، ومنها انتقلت إلى العالم الحديث، وأدخلها الملك عبد العزيز آل سعود إلى الحجاز بعد سنة 1925م، إذ أذن لناس من الهولنديين أن يجربوا حفرها بين جدّة ومكة، ليعود بها الغامر عامراً، واليابس ناضراً والموات حيّاً، والجماد غضاً طرياً، وبها ضمان لتيسير إنباط المياه الخفية دواماً، وحمل الناس على الحرث والزرع.

وعلى النهج الذي اتخذته في هذا البحث من الالتفات إلى تاريخ البشر الحضاري ولا سيما العربي منه، أعقب على نشأة الآبار الأرتوازية في فرنسة بالتنبيه على ما ذكرته المَعْلَمات (دوائر المعارف) في شأنها، فقالت إن هذه الآبار قد عرفها الصينيون والمصريون من قديم الزمان. وهكذا تتواصل الحضارات، ويأخذ حديثها من قديمها، ويطور ويجدد. وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن الكرجي من إصعاد ماء البئر بالآنابيب ما يشبه أو يقرب أن يشبه صفة الآبار الأرتوازية هذا، وما أشبه الليلة بالبارحة ! قال : «وقد ذكر قوم أن الأولين كانوا يصعدون الماء من قرار البئر إلى عند فمها، حتى يجري على وجه الأرض، بأنابيب رصاص موصولة بعضها إلى بعض، بمقدار ارتفاع البئر، وقد ركب سافلها على ثقب في حجر مطبق على منبع الماء في قرارها !».

تجارب جف معينها :
الليبرالية والاشتراكية

تأملات في حضارة التصنيع

محمد عزيز الحبابي

لا نظام من الأنظمة السياسية والاقتصادية استطاع الى حد الآن أن يعطي حلا ناجحا، كما لم تستطع أية فلسفة ولا أية فكرلوجيا أن تدل على منهج يوقف جدلية توالد الأزمات وتكاثفها، أو على الأقل يخفف من وطأتها الجهنمية. والأدهى أن لتلك الجدلية حتمية تتناقض مع حتمية المنطق وحتمية العلم، مما يعمق حيرة الإنسان المعاصر، وهو يهيم في التقنيات، ضائعا في أنانيته. إنها حيرة دَوَران في عالم أبكم أصم، ترغم البشر على أن يَعوا عبث الأوضاع ومحدودية قدراتهم. وبما أنهم منغمسون في مُحَايَثَة متطرّفة تسد عليهم كل منفذ نحو التعالي، يحتد شعورهم بالعزلة أمام حتميات ميكانيكية غاشمة، بلا أمل ولا متنفس للرحمة والإيثار.

الخوف عارم، والعزلة تجرف داخل الضوضاء، والفوضى تضل. ضاعت الوسائل الروحية للتصعيد، وغدت الأفعال البشرية تقاس بمردودها الكّمي المادي، ولا مقاييس سواه. حقاً، ترتفع من حين لآخر صيحات منذرة، إلا أن صداها يحاصر داخل وجدان السامعين، ولا مراجع روحية تدفع بالضمائر الى التغيير.

ـ وما يحاصر الضمائر ؟

تلاشت القيم الروحية التي كانت تُنسق علاقة الضعفاء بالأقوياء، وتُربي في الجميع وازعا يدفع الى الحق والعدل والمعروف، وينفر من الباطل والمنكر والبهتان، فتقوى الحصار على الضمائر، بضغوط عصبيات وعصابات تدافع عن مصالح خاصة، وتسكت الأصوات البريئة. فتشردت محاولات الإصلاح في سديم الغوغاء.

في الخمسينات، عقد البعض على استنتاجات المستقبلية أملا في الإنقاذ، ثم نما الأمل مع ظهور علم الإعلاميات، وبلغ الذروة عندما فتحت الإعلاميات الطريق للتيلمتيكا. لكن الأمل ما زال مُعلّقاً كاحتمال من احتمالات كثيرة.

فأنّى لحضارة انتحرت فيها كرامة الإنسان، وانمحت القيم والآمال، أن تعالج الأوضاع بنفسها ومن داخلها ؟

فلابد من إصلاح بنيات المجتمعات الحالية ومعاييرها ومعالمها. والعلاج النُّوَاسي لا يشفي :

« وَدَاوِني بالتي كانت هي الداء ! »

الداء عضال ومتعدد الأوجه، ويباغث بقدرة تعجز العقل، وتُهدّد باستمرار العلم والتقنلوجيا ب «مات الشاه !»، وكأننا في لعبة شطرنج مستمرة أبدا... لقد حكم العلماء الأخلاقي على الخيبة بأن تستمر في عناق الحيرة، الى أن تتحول الفعاليات البشرية كيفا، ويصبح الكيف قيما، وتخول القيم الفاعل القدرة على أن يتجاوز ذاته والماديات المحض. ولا سبيل لمقاومة الأزمات المزمنة إلا بالكيفيات، وإن تقييم الكيف يحيل على قيم شمولية. فبنيات المجتمعات البشرية في حاجة الى مراجعة وفحص وتمحيص، انطلاقا من معايير أخلاقية. إن تلك البنيات ليست بنيات صراع الطبقات، وعلاقات الإنتاج

بالاستهلاك والتوزيع وحسب، وليست الموازين التجارية والمالية والمبادلات، بل إن البنيات كذلك، وأكثر من ذلك، شبكة الدلالات التي يعطيها كل فرد لنفسه ولمجتمعه، وللقيم التي تربط الأفراد والمجتمعات بإنسانيتهم والإمكانات على التشخْصُن.

ـ مصائر

صارع الناس في الماضي، على جبهة واحدة، خصما واحدا. وكان الخصم متسترا أبدا، وعنيفا أبدا. ضرباته مباغتة، وصدماته عبر. إنه الأجل المحتوم اللاّ محدّد. استحوذ الموت على مجموع اهتمامات الإنسان، موجها كل أفعاله. إنه المفارقة العظمى والقصوى في الحياة. حضوره دائم وقار، وكل أدواره مأساتية ومتسترة وساخرة. أمام الموت تسلح الإنسان بقيم روحية، فعانى أوضاعه باطمئنان، رغم الموت.

أما اليوم، فإن الموت ـ المصير قد تحالف مع مصير آخر، هو كذلك مدهش ومقلق وقهّار، يستبد بكل اهتماماتنا. حضوره يحاصر الحياة اليومية بلا شفقة ولا رحمة. إنه أجل جديد محتوم ولا محدد. إنه منبع حيرة أخرى أكثر ضراوة من حيرة الموت، رعب مقنع ومتعدد الأوجه. إنه «جدلية الأزمات المعاصرة». حضوره حتمي، وحتميته مجهولة، كما هي حتمية مجهولة مخططات المستقبل. فلا متنفس ولا أمل ما دامت الأوضاع ناعورة تدور على نفسها، كل جزء منها يحيل على جميع الأجزاء دون تحديد.

إذن، الإنسان المعاصر محاصر بحدّين مصيريين، الموت والأزمات، وكلاهما يرغمانه على أن يخوض الصراع علّه يفهم أسرارهما. وبما أنه في غيبة عن المعايير والمعالم، يزداد يوما بعد يوم اقتناعه بالعجز الكامل. وهذا الوضع، هو نفسه فاجعة وأزمة معنوية. إنه مصير ثالث.

☆ ☆ ☆

تلك ميزة الحضارة الإنسانية في مرحلتها الحالية. سلسلات متواصلة تتخاصب فيها أزمات وصدمات. فلو استطعنا أن نتلمس كل سلسلة على حدة، لتحسسنا اصطداما

نفسانيا مضاعفا، غالبا ما يفكك وحدة الإرادة، ويعطل القدرات. إنـه شلل يـدخل كعنصر قاعدي في الأزمات، ويجعلها بدورها قاعدة وشرطا للتعصير. ولذلـك فـإن كل سلسلة هي في نفس «الآن» وباستمرار نتيجة وسببا لسلسلات أخرى.

توتر لا متقطع يؤزم المعاصرين ويحيرهم بمغناطيس الرعب والعجز. ولكي يجدوا نظاما ناجعا لمواجهة المأساة، يتوجهون الى الليبرالية، فإذا هي هابطة التوتر، راكدة الـدم رغم ما يلطخ يـدهـا من دمـاء الاستعمار والحروب العـالميـة. طبعـا، مـا أعطتـه الليبراليـة للإنسانية هام وكثير. لقد أعطت تقدمـا علميـا وتقنيـات وفلسفـات، إلا أنهـا، في نفس الوقت، أنجبت أمثلة فريدة : أمبرياليـة واستعمار وعنصريـة، فـانغمرت في الاستبـداد والبطش والطغيان.

يئست الشعوب من الليبرالية. فبعـد أن نمّت هـذه وَعْي الأفراد بـالـذات وبـالكرامـة، وبلورت حقوقهم، أمست تسلخهم عن إنسانيتهم، زارعة الشوڤينيـة والفردانيـة والحسـد والحقد. فانطلق البحث عن البديل، فإذا بـالاشتراكيـة تحمل مشعل التجـديـد و «أمل الغـد الزاهر»، في المجتمع العـادل المتفتح والمُؤَنْسَن. فتفـاءل المصلحـون، حتى الليبراليـون منهم، استبشر الجميع خيرا بالأنسقة الإصلاحية الجديـدة. وعنـدمـا شرع «لينين» يطبق النظرية الماركسية، صفقوا لتباشير الإنقاذ العام وللثورة العالمية. لكن سرعان مـا عض المصفقون الأيـدي التي صفقت... لقـد أفرغ «ستـالين» الثـورة الاشتراكيـة من روحهـا الإنساني. أفرغ الهيكل النظري من محتواه عمليـا، فتقمص ألوانـا لهـا رجـات تـاريخيـة مؤلمة : بياض ثلوج سيبريا القارسة، وسعير «القولاغ» مدرّجا بالبراءة المشنوقة والأخوة المزورة. إذّاك نـزفت إمكانـات البـديـل الاشتراكي، وأُصيبت التنظيرات برخـو. بـاتت العضلات من جرائه هشّة، تستجيب حركاتها لمتطلبـات «قوميـة» وكأن قطيعـة فصلت الأفعال عن مقتضيات المبادىء. فلا غرابة أن يعاني الاشتراكيون شعورا تعسـا، يضيف الى الأزمات المختلفة والعديدة أزمـة معنويـة أخرى. فبعـد أن حملت الاشتراكيـة ألوان

القيم العالمية ـ الإصلاح والعدل والتعاون والسلام ـ ، انحرفت بـانحراف بعض زعمـائهـا، وبما اعتراها من خلل التطبيق وتعقيدات البيروقراطية.

عندما ورث القرن العشرون عن التاسع عشر النزعات الاشتراكية، كان لتياراتها «وجـه إنسـاني» جـذاب. وبقيت كـذلـك الى أن قـامت معـارك بين اشتراكيين تقليـديين ومـاركسيين محـافظين، وانقسم هـؤلاء الى أصليين ومنحرفين. فكانت معـارك داخليـة متنوعة عرفت العنف وتفرقـة الصفوف، ممـا سهل هجومـات الخصوم. وبـالإضـافـة الى الواجهتين الـداخليـة والخـارجيـة، اضطرت المـاركسيـة ـ ومـا تزال ـ الى شن معـارك فكرلوجيـة قـويـة ضد هَـوَس الستـالينيـة وَحُماتهـا الـذين مـا زالـوا يكابرون رغم كل المعطيات التاريخية وهلعها، فكأن الآية القرءانية تعنيهم :

﴿**فإنّهَا لاَ تَعْمى الأبصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصُّدُور**﴾ (الحج، 46).
يقاوم بعض الماركسيين بقايا انهيار الستالينية، بقايا كابوس نهـاره كليلـه، كابوس هـدّم حُلم الحرية، وزعزع الآمال.

وقتهـا، غـدت الروحيـات «أفيونـا»، وظهرت طقـوس لـ «عبـادة الشخصيـة». فتـوقف تشخصن أجيال وأجيال، وتفرقع الأمل الكبير... فالـدين «أفيون»، و «أفيون» كـذلـك كل ما ليس مباشرة من «البنية التحتـانيـة». وتـأبى الظروف إلا أن تظهر تفـاوتـا بين التنظير والتجهيزات الكفيلة بتطبيق الاقتصـاد الاشتراكي. إذاك تجلى، في جل البلـدان الاشتراكية، أن التصميات والمشـاريع الاقتصـاديـة لم تنجح كما كان مـأمولا. تروي آخر الأخبار أن پولونيا الشيوعية تطلب باستعجال إعـانـات غـذائيـة من دول رأسماليـة... وهذه بدورها تعاني أزمات خـانقـة في ميزان المبـادلات وتضخما مـاليـا، وانخفـاضـا في الانتاج، وتنام في البطالة...

تنسب لِبِرْنَار شُو هذه القولة :
«إن من لم يكن شيوعيـا في سنـه العشرين ليس لـه قلب، ومن يبقى شيـوعيـا بعـد الأربعين ليس له رأس».

فما البديل ؟

القضيـة الأولى اليوم هي البحث عن نسق للحيـاة يوفّق بين القلب والرأس. وقبـل أن يتحقق هذا النسق ـ الأمل، كم من دمـاء ستسيل، ومن طـاقـات ستهـدر، ومن شعوب ستندثر بـاسم «أمن الـدولـة»، و«الـدفـاع عن الوطن المقـدس»، و«حمـايـة شرف الرايـة الوطنية»، وغير ذلك من القيم المصطنعة. فالشرطة تجنّد لحماية الصنادق المصرفية ـ وهو عمل ضروري ـ والشرطـة تحمي أيضـا الفكر من الاتجـاه النقـدي وتعريـة الزور ! إن الحقيقة معاصرة، وأهل «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» بلا لسان، لأنهم تآمروا على الضمير الإنساني، بعد ما باعوا ضميرهم بأبخس الأثمان...

أما قادة الدول، فالسياسة قـد أفقـدتهم القلب والرأس لأن المحيـط العـام يزرع الـذعر. فهذه ألمانيا الفيدرالية تخشى من كسـاد اقتصادي عالمي أكثر مما تخشى حربـا نوويـة، كما صرحت به على لسـان مسؤولها الأول المستشـار هيلموت شميت.

وبالفعل، فإن الأنظمة الرأسمالية تعرض الى زلزال إذا ما حصل كسـاد عـالمي. وبمـا أن الرأسماليـة أضحت الهـدف، والشروط، والمرجـع، ومنبـع القيم، فهـزّاتهـا تلقي لا محـالـة بمجموع الكيان في الفراغ. فلا قنـاعـة ولا بـديل، ولا قـدرة على التسـامي. إن كفـاح الليبراليين من أجل الرأسمالية ككفاح المـاركسيين من أجل تصميـاتهم وأنظمتهم، شبيـه من بعض الوجوه بتعلق المؤمنين بالتعـالي : التزام بشيء فوق الواقع. فجميعهم يعطون معنى يتجاوزون به ذواتهم، ويغامرون بحماسة، كأن كل فعل تدعمـه فكرلوجيتهم يطهر النفوس. فهم يسهمون في بناء صرح ضخم، في تـأسيس تجمع معشري بلا حـدود، تجمع أعضاءه مصالح وآمال مشتركة. فالرأسمالية أضحت كـ «زاويـة» عالميـة ذات الاهتمامـات المماثلة. كذلك الماركسية، إنها «زاوية» عـالميـة، وإن اختلفت القبلـة هنـا وهنـاك، بل كثرت عـواصم التسيير والـزعـامـات عنـد هـؤلاء وأولائــك. كل ذلــك لا يقضي على التنـاقضـات الـداخليـة، عنـدمـا تتعـارض المصـالح (المزاحمـات أكبر مظهر لـذلـك في

الرأسمالية، والانقسامات بين «تيتية» و «ماوية» و... في الماركسية). تتعارض المصالح لأن الأنانية والشوفينية لا تزيدهما الأيام إلا حدّة. فالطابُوات الفكرلوجية، لا تستطيع حجب هذه الأوضاع.

وفي نفس الوقت، تروي نفس الأخبار الكثير عن تناقضات وأزمات البطالة والعملة والطاقة، وعن تفاحش الجرائم في أغلبية البلدان.

إلى أين اللجوء ؟
أين المفر ؟

إن الأزمات المعاصرة لا تعفي يمينا ولا يسارا. كل الحلول التي قدمتها مختلف الأطراف تصطدم بواقع يناهض ويفاجىء ويهاجم.

ربما كان في هذا تفسير للظاهرة العالمية الجديدة عند الشعوب الليبرالية،وحتى عند الاشتراكية : ميل ملح لدى مختلف الطبقات، وبحنين وصدق، الى إحياء القيم الروحية، اعتقادا أن الإنسان المعاصر سيجد في الإيمان والتدين، سكينة وغذاء معنويا، في الوقت الذي يتآكل الناس السأم والفراغ تآكلا، والمصير أضحى مصائر تهرول في العماء المطلق.

إلى متى سيطول التردد بين ليبرالية غير مكترثة بآلام أغلبية البشر وبؤسهم، واشتراكية حائرة تريد إسعاد الناس، بعد أن وئدت حرية الاعتقاد، وسلخت الشخصية عن البعدين، الفكري والروحي ؟ الإنسان يحيا بالخبز، لكن لا للخبز وحده، بالانتاج لا للانتاج والاستهلاك وحسب. إن المجتمعات التي دخلت عصر التبذير، متجاوزة عصر الاستهلاك، تنتج كثيرا وتستهلك كثيرا، ومع ذلك لا تنتج ولا تستهلك السكينة. إنها

تجهل المحبة الحق والتواصل... أزماتها تتشابك بلا حلول، وبلا مناهج، وبلا قيم يركن إليها البال والذهن فتتفتح الشخصية وينتشر الأمل.

إن المناهج والقيم كالأنظمة، جميعها في أزمة. لقد اتسع الفراغ المعنوي وتعمّق، فسوى بين الأغنياء والفقراء. الجميع (الليبراليون والاشتراكيون) يتساءل، الجميع يهدر طاقات ذهنية غزيرة بحثا عن حلول للأوضاع، ولكن بلا جدوى. بل على العكس، يزداد وعي الجميع بالقصور عن مجاراة جدلية الأزمات وعن فهم سيرورتها. الجميع يجثو أمام جدار العجز التام، أمام مبكى القرن العشرين، المبكى المشترك بين كل الأنظمة المعاصرة. أمامه تتكسر قدرات الشعوب وقدرات قادتها. إن شيئا ما يضغط على سلوك الناس ويكيف محيطهم، وهو لا يخضع لضوابط قارة معقولة، ولا ينبع عن إرادة، ولا عن عواطف نبيلة. فراغ معنوي مفزع. فحتى الثقافة تغلب عليها الشكليات والحرص على الجانب الترفيهي، إذ لا تخدم التواصل الوجداني والاستعداد للترقية من داخل الذات لصالح مجموع الذوات.

عصرنا عصر تحديات فاصلة : قدرات على التدمير تتواجد مع عجز مخجل عن الإصلاح. توقفت الحتميات العلمية، فدخلنا متاهات اللامتوقع، ومخاطرات يترتب عنها مجهول هائل. نعم، عرفت الإنسانية في الماضي كوارث، فواجهتها بأنواع من العلاج. أما اليوم، فلوائح الكوارث تكبر وتتكدس، في حين تتقلص القدرة على تشخيصها، وبالأحرى على علاجها. إذن، لابد من إعادة النظر في كنه الوجود، وماهية الحياة، وفي معاني «كآبة» و «ضياع» و «قلق»، ولابد كذلك من تقييم جديد لمفاهيم «اطمئنان» و «محبة» و «أخوة» و«سعادة»...

سكتت الطبيعة عن حوار العلماء والتقنلوجيين حول كل ما يسعد الإنسان. فلم لا يفتح هؤلاء حوارا مع ما وراء الطبيعة ؟

يفترض الحوار محاورين واعين للأوضاع، قادرين على تفهم المصير والتكيف معه. لكن الظاهر أن إنسان اليوم قد جن من تكاثر الكوارث والآلام، جنونا أنساه بُعدين من أبعاد الذات، الجوّاني والروحي، فقنع بإنسانية معطوبة، وبهَوَس المصائر. فكأن الحياة انقلبت الى قفص، ومن طول الغربة وراء القضبان، ساد عدم الاكتراث بالغد، وبالغير، وبالخير والجمال والعدل، لا تحتفظ من قيم الماضي إلا بذكريات غامضة تضع من حين لآخر الملح على الجرح، فتشتعل الأشواق الى تلك القيم، وإلى ما كانت تؤطره من فضائل، وما تجذبه من اطمئنان للنفوس.

حقا، إن قيما من القيم الشمولية قد بليت، لأن الحياة المعاصرة أدخلتها في دوامة التزوير، فأمست بلا محتوى، وانشغل القادة بأخلاقية شكلية نفعية محض. فنصف علماء العالم يستغلون في مخابر البحوث العسكرية من أجل ازدهار شؤون الحرب والتدمير. وفي الوقت ذاته، تؤكد الهيآت الدولية للتغذية والزراعة، أن الإنتاج الزراعي بأفريقيا، قد انخفض بين 1960 و 1970، من 2،5 ٪ الى 1،3 ٪ حسب إحصائيات ما قبل الجفاف المهول الذي عرفته دول الساحل، وفي مقابل انخفاض الإنتاج الغذائي تنمو النسبة السكنية. إنه وضع مأساتي.

فأين هي حلول الليبراليين ؟ وأين هي حلول الاشتراكيين ؟
إن الانتظار اليائس هو أيضا أزمة ومصير.

إن الماركسية، لكثرة ما ألحّت على أن تجعل أسسها «مادية علمية»، حجّرت تيار التطور في التنظير، فباتت التأويلات الماركسية تأويلات شبه مزعجة، كما هي حال ـ مثلا ـ تأويلات التحليل النفساني [1].

---

(1) Psychanalysis, Psychalanyse.

تَقُود المطلقية الى الوثوقية، وهذه تغلق المنافذ أمام التسامح والتعاون، وبالتالي تحاصر التطور، مما يعاكس التقدم و«التقدمية»، ويفرغ القيم من مضامينها.

فمها كثرت التعاريف التي حاولت تحديد الحياة، لم تتوفق في بلورة المفهوم. لكن الشيء الذي استقر رغم اختلاف التعاريف هو أن الحياة مجموع ظاهرات خاصة بأجهزة طبيعية في الكائنات، يمتاز كل جهاز منها عن المادة بعفويته، أو بما يسمى بـ «التيار الحيوي».

فهناك شيء أساسي تقوم عليه الحياة، ليس هو العقل، ولا المادة، بل «فكرة توجيهية»، هي قاعدة نمو الأحياء واستمراريتهم [2]. فمحاولات البيلوجي الماركسي «ميتشورين Mitchourine» لخلق الحياة من معطيات مادية لم تصل الى نتيجة. كان أمل ميتشورين أن يبرهن، بالتجربة المخبرية على صحة «المادية الجدلية» ليعطي للماركسية أسسا علمية وعقلانية. لكن بقي لغز الحياة «حيا» ومعجزا للعقلانية.

إن الكائن البشري يشعر أنه يحي عندما يمارس عملا فيحس بمعاناة جهود، ويعي ذاته وحركاته، أي وجوده، ويعي أنه هو مبدأ وغاية ذلك الوجود. انه بنيات متحركة.

هناك افتراضات عن بداية الحياة، أهمها اثنان :

- الأول ميكانيكي، وهو ما يدافع عنه بعض الماركسيين، إذ يرون أن المعقولية التي تسير الحياة هي معقولية المادة نفسها. وقد حرض هذا المنطق على القول بأن «الحياة لا توجد» [3].

(2) هذا ما وصل اليه (كلود بيرنار) في أبحاثه الكيماوية والفيزيائية لوظائف الأجهزة.

(3) Kalane, LA VIE N'EXISTE PAS, Paris, Ed. Rationalistes, 1962.

ويمكن الرجوع أيضا، بهذا الصدد، لباحثين آخرين، مثلا :

Oparin, L'origine de l'évolution de la vie, Ed. de : Moscou, 1949. H. Prevault, Biologie et Maxisme, Paris, Ed. Sociales 1950..

ـ الافتراض الآخر مثالي/روحاني : يجعل من الفكر شيئا لا يخضع الى المادة، إنه داخل المادة لا تابع لها.

فكلا الافتراضين لا يشفي غليل الباحثين عن تعريف للحياة، وتبقى اللا عقلانية تتواجد مع العقلانية.

ومن جهة أخرى، عندما يركز الماركسيون على أن الرأسمالية تخلق البروليطاريا، يجزؤون الواقع، علميا وعمليا، لأن الثَّورَات المعادية للرأسمالية لم تقض على وجود البروليطاريا، ولم تحررها، كما كان متوقعا، كجماهير منهوكة ومرهقة ومحرومة. حقا، قد تحسنت أوضاع العمال، في بعض القطاعات عند بعض الدول، لكن على العموم، إن البروليطاريا، على العكس في تكاثر مسترسل في العالم أجمع.

ومن الملاحظات المؤلمة أن «البروليطير»، المنتسب الى الأنظمة الليبرالية، أو الى الأنظمة الاشتراكية، لا تزيده الأيام إلا استلابا، واستغلالا، وضجرا.

إن التصنيع هو الذي ينتج البروليطاريين، كظاهرة مجتمعية، كما ينتج الآلات والمدمرات والقنابل. فللصين بروليطاريوها (وإن أطلقت عليهم أسماء أخرى)، وكذلك الاتحاد السوفياتي، وإن سماهم بـ «الرفاق الشغالين»...

فكما يؤكده ج. فوركاد : «إن الغرب يعي الخطر المعنوي الذي يهدده. فتقدم المعارف العلمية وازدهار التقنلوجيا قد صاحبها تضعضع القيم الأخلاقية وتهافتها» [4]. إن القيم وحدها تعيش على تجاوز «التفاهة» و «التضعضع».

(4) J. Fourcade, Le Monde (16/6/1980). B.Brizuy, Le Patronat Américain ou la Mort du Capitalisme. Paris, P.U.F., 1979.

وبالفعل، لقد أعطت القيم مناعة للمجتمعات عندما كانت متجذرة في إنّيّة الفرد، وكأنها أنماط سلوكية تلقائية، عُمدتُها إيمان نظيف. والإيمان النظيف سند الفضائل. وكلما حصل أي انحراف أخلاقي أو ديني، تردد صداه في الأعماق، وتفجر شعور بالحسرة والندم، وإن الندم الصادق مدعاة للتوبة، وكل توبة هي في واقعها، عملية تطهير للضمير، وخطوة على دروب الخير والتآخي. وذاك جانب عملي بنّاء لرقي المجتمعات الإنسانية.

فلا العلم، ولا التقنلوجيا، ولا الفكرلوجيات استطاعت تجذير القيم في الأعماق. إن الإيمان الصادق هو الذي يستطيع تَذويتَ القيم والفضائل، فتضحى سليقة في المؤمنين، كما تجعل طبيعة التواجد المجتمعي اللغة سليقية في الكائن البشري.

ـ أنسنة العالم، أو الطوفان

حاولت الصفحات السابقة مسح حقول قليلة من مزارع الأزمات اللامتناهية، وكان مسحا تلميحيا أكثر منه وقفات توضيحية طويلة. لكن الحصيلة تكفي لمن يريد أن يطل على عالم اليوم من منظار متنقل، وبالطبع ضيق. فالناس اليوم غير مستعدين لسياحة أطول وأدق، في معاصرة تنسلخ تدريجيا وبلا انقطاع، عما يؤنسن العالم. لقد أصيب البشر بدهشة وانبهار أمام ما يحل بهم ومن حولهم، وفشلوا عن الحركة العامة. لقد أصبح العالم صريع السرعة، وظلوا هم يسيرون بإيقاع لا يعاصر، إنسانيا، إيقاع التعصير التقني. إنها فجوة تهدم كل قياس وكل مقياس، إذ لم يَعُد لأية «موضة» من الوقت ما كان لـ «موضات» ما بين الحربين العالميتين. قيَم اليوم كثيرة الشَّبَه

بالموضات، فهي كذلك عابرة، لأنها لم تعد تتجذر في أعماق الإنسان، ولم يبق لها سند متعال.

السرعة لا تعتري الموضات والقيم العابرة فحسب، بل تتسلط على كل ظاهرة إنسانية فتؤزم الاستدلالات المنطقية، وتوتر العلاقات المجتمعية، وتحير قادة الشعوب والدول.

مثلا، بلغ عدد العرب سنة 1950 حوالي 75 مليونا (من الخليج إلى الأطلس)، ولم تمر إلا ثلاثون سنة حتى تضاعف هذا العدد، وسيسترسل هذا الفيضان الديموغرافي ينمو مائة بمائة، كل 30 سنة. ومن المترقب أن يصل الى 300 مليون في سنة 2010. إنه فيضان لا يمكن إيقافه، ولا إيقاف عواقبه الطوفانية إلا بأَنسنَة المجتمع. وجسور أنسنة المجتمع هي القيم الشمولية (روح التعاون والتعاطف، الشعور بمسؤولية الجميع عن بؤس وشقاء كل الناس، العدل في توزيع الإنتاج الغذائي العالمي وكل إنتاج، ضمان الحظ الأدنى في الحياة لكل فرد...).ولا يكفي الإقتناع النظري بضرورة وجود تلك القيم لتتحقق الأنسَنَة،عمليا،بالنسبة لكل فرد ولكل دولة. بل لا بد من الحرص على تطبيقها. فإما أنسَنَة العالم لإنقاذه، وإما الدمار العالمي. إمِّيَة مطلقة، ولا طَرَف ثالث. كذلك لن تتحقق الأنسَنَة المطلوبة بالأدعية والآمال، بل بالاقتناع فكريا ووجدانيا وروحيا، لكي يصبح المشروع مصحوبا بإرادة التنفيذ وبروح التضحيات.

هكذا يلبي الإنسان متطلبات غريزة البقاء. فباحترام هذه الغريزة،تُحترم القيم الشمولية.

من الضروري أن يتوفر كل مجتمع بشري على منظّمين ومنظّرين ومشرّعين لهم حظ وافر من العقل والعلم والدراية لتسيير المجتمعات. بيد أن هذه المجتمعات في حاجة ماسة أيضا، الى أرضية روحية. فوجود نماذج حية، من أمثال القديس «فانسان دوبول»

وعمر بن عبد العزيز، ضرورة للتحريض على تجاوز الذات والتعلق بالإيثـار، وتركيز المعاملات على المحبة والخير.

إن نهضة جديدة تعتمد الإيمان كأحد مقومـاتهـا لكفيلـة بـأن تصحح الأوضـاع وتعيـد للإنسانية هويتهـا الحق. وَمَن ارتـأى غير ذلـك، فليـدلنـا على جواب السؤال : كيف يستعيد الإنسان أبعاده المادية والفكرية والروحيـة في عـالم مُؤَنسَن حقـا، بعـد العقم النظري الذي يتخبط فيه ؟

سؤال كهـذا لا يستسيغـه المنظرون المعـاصرون. فـالسؤال الـذي يرضيهم هو : كيف التغلب على الأزمات الاقتصادية ؟

وجوابهم عليه يتركز على الاقتصاد السياسي، افتراضا منهم أنه، بحل الأزمة الاقتصاديـة تحل باقي أزمات الإنسان، بيد أن نظريتهم الاقتصاديـة ليست واحـدة، فوجهـة نظر الليبراليين ليست هي وجهة نظر الاشتراكيين. ولم يجد الاتجاهان بعد جناحين ليحلقا الى مستوى الأزمات. فكأن المقولات التي يفكر بها المنظرون والقادة قد أصيبت هي الأخرى بعطب ولم تجد لها في أسواق الأفكار والنظريات قطع الغيار ـ الأزمة.
فهل فات الركب الحلول الليبرالية والاشتراكية ؟

جواب الطرفين : «أبداً !».

الواقـع أن الركب يتعثر وينـذر بـالسقـوط، وأن الهـاويـة عميقـة. فنفس التنظيرات الحالية بطيء ودون الأحداث. فهل من سبيل لتكييفه مع الظروف ؟

يُلقى وابل من خطابات تتناقض فلا تزيد الإشكالية إلا تعقيـدا. قطيعـة بين الواقع ومحـاولات فهمـه وتنظيمـه والسيطرة عليـه. قطيعـة بينـه وبين التربيـة التي تلقّن في

المدرسة والجامعة والأسرة. وأخيرا، قطيعة تشمل كل مرافق الحياة. ويظل التطور يزرع الكآبة والحصر ويدخل الفكر في خمول حينا، ويدفعه الى تمرد ضد المجتمع والقيم والتواجد أحيانا.

التقدم والمجهول

ظهرت المستقبلية، فرحب الناس بها، ظنا منهم أنها ستمنحهم القدرة على توقع ما سيكون. لكن، بعد أن طال الترقب، ظهرت نتائج مخالفة للمترقّب. وها نحن اليوم نشاهد الأوساط السياسية والمنظرة منبهرة بما تعد به التيلمتيكا. هل ستحقق الآمال فتجبر ما تكسر في العالم ؟

إن مستقبل التيلمتيكا واعد : تقنيات إعلامية من عجب العجاب، وتحولات كثيرة، ومع ذلك : هل ستسهم التيلمتيكا في إحلال الأمن والإطمئنان، وتعزز القيم فتقضي على الأنانية والشوفينية والنفاق، ويتعاون الجميع ضد بؤس وشقاء الملايين من الجائعين والمرضى والأميين ؟ أم أنها ستنمي بدورها القلق وحروب المزاحمات الطاحنة، وَحِدّة الصراعات بين الأفراد والدول ؟

سيجيب الراسخون في العلم : ليس ذلك برنامج التلمتيكا، فلا حِلْفَ ولا معاهدة بينها وبين القيم والأخلاق... لكن، بإمكان كل مجتمع أن يستغلها في استثمار القيم والطاقات الإنسانية، أو في معاداة تلك القيم.

معنى هذا أنه في الوقت الذي يتحول فيه مصير الإنسانية الى الفوضى واليأس والأخطار، يقف آخر علم صنعه الإنسان موقف حياد من الاختيارات الحاسمة، خصوصا وقد ادعى القوم أن بالتلمتيكا ستقفز الإنسانية الى الأمام وستدخل عصرا جديدا.

مرحبا بالعصر الموعود !
فمن سيدخله، هل الإنسانية ككل، أم الإنسانية بالتقسيط والتبعيض ؟

الجميع يترقب مجتمع الغد بلا تفاؤل. فالمصلحون أنفسهم مقتنعون بأن مصير أجيال الغد لن يكون أفضل من مصير أجيال اليوم، طالما بقيت الغايات والاتجاهات والوسائل السائدة ترمي إلى تحقيق مشروع أساسي أوحد : التقدم، تقنيا واقتصاديا وحسب.

☆ ☆ ☆

عندما طلب الرئيس الفرنسي الأسبق، ڤاليري جيسكار ديستان من بعض المختصين أن يحرروا له تقريرا عما ستحققه التلمتيكا من تقدم، وما تنطوي عليه من مفاجآت، لم يعبأ بالأخلاقية والقيم، كأن أسباب مجموع الرجّات والمغامرات العمياء التي تعطل سير الإنسانية نحو الخير والسعادة، كلها علل مادية محض. يقول السيد الرئيس في رسالته لمؤلفي التقرير بأن (4) :
«تنمية تطبيقات الإعلاميات عامل أساسي في تحويل التنظيم الاقتصادي والمجتمعي «والسياسي» ونمط الحياة».

وينصح الرئيس ديستان المؤلفين بأن يستعينا بالمصالح التابعة لوزارة الصناعة ووزارة الاقتصاد والمالية... والغاية المتوخاة هي تحريك.
«التأمل في وسائل إخضاع المجتمع الى معطيات الإعلاميات».

هذا لا يعني دراسة تأثير الثورة الإعلامية والتقنية على التقدم الأخلاقي والنفساني. وكما يقول محرِّرا التقرير، إن المباحث المقرر دراستها ستكون موجهّة حسب غاية محددة : أن تخول المسؤولين القدرة على اتخاذ قرارات واختيار وسائل تدخلاتهم.

(4) – L. Nora/A. Minc, l'Informatisation de la Société, Paris La Documentation française, 1978.

أن تطرح التلمتيكا تساؤلات حول المستقبل شيء ضروري ومفيد. أما أن تتغافل عن أن المستقبل هو مستقبل الإنسان، وأن للإنسان أبعادا وجدانية وفكرية وروحية، فموقف غامض ومحير. إن الإنسان يعيش بالإقتصاد والسياسة، ولا يحيا بهما فحسب (وهذه خاصية يتميز بها عن الحيوانات).

تحدث وزير فرنسا الحالي في البحث العلمي والتقنلوجيا عن «العلوم الإنسانية» فأكد أنها ستكون أساس مشاريع وزارته، وأن الغاية المتوخاة من تلك المشاريع هي تحقيق التغير، ولذلك ستوجه الأبحاث نحو توفير مناصب للتشغيل جديدة، وتحسين وسائل الشغل في كل الميادين.

هذا برنامج تقدمي، وفي التقدم، إلا أنه لا يفرق بين فهم الأوضاع وبين العمل على تغييرها، ولهذه الغاية لابد للمسؤولين من الاهتمام بالعلوم الإنسانية [5].

وشرح السيد الوزير في مشروع التغير المؤمل، أن التغير سيكون في الاقتصاد والتعلم وتنظيم الشغل. لكن، ولا مرة أشار الى الأزمات الأخرى التي لا تحمل تأشيرة الاقتصاد والتصنيع والتنظيم السياسي... أي أن النظرة الإصلاحية التي يرتقي إليها التأمل المعاصر تنحصر في علاقات إنتاج ـ استهلاك ـ شغل... إنها نظرة واقعية إصلاحية، إلا أنها بتراء.

- الإنسان حيوان، ولكن...

فلابد أن يذكّر المصلحون ويذكِّروا، وأن يكرروا التذكر والتذكير، في كل مناسبة، بأن الإنسان أشرف الحيوانات. فهو، وإن كان قريبها الأكثر قرابة جنسا، يبقى البعيد عنها الأكثر بعداً، من حيث كيفياته وشعوره ووعيه.

(5) ذلك هو برنامج التغيير الذي قدمته حكومة الائتلاف اليساري الفرنسي، بعد مايو 1981.

الحيوانات أحَدِيـة الأبعـاد، أي لا تختـار الموت عن وعي وبـإرادة، من أجل فكرة أو حبّ أو معتقد، أو من أجل قيمة. وليست الحيوانات كائنات تاريخيـة كالإنسـان. إنهـا لا تسهم في صنع تاريخ، ولا تحاول أن تعرف تـاريخهـا وتـاريخ نوعهـا وجنسهـا، أو تاريخ الأكوان المتواجدة معهـا. لا يخـامرهـا أبـدا نزوع الى المستقبل. الحيوان سجين الزمـان الحـاضر، لا يشتـاق الى معنـويـات، ولا يُصَمّم لمشروعـات (تجـاوز معطيـات الحال)، ولا يهتم بصواب أو بخطإ، لأنه لا يختار. إذن لا مسؤولية له معنويا وقانونيـا فيما يفعل، ولا يعتذر ولا يندم عما يرتكبـه من هفوات وأضرار، ولا يتوب فيكتسب العبرة من ندمـه. لو كانت لـه قيم، كما للإنسـان، لأصيب بـالقلق ولغضب ضميره كلمـا دنّست احدى القيم. حقا، للإنسان «حياة نباتية» كما للحيوانات، وحياة جَوَّانية يختص بهـا [6]. وكلمـا رجحت كفـة احـدى الحيـاتين، انحرف عن الاتـزان والتكامـل وعن الإنسجام الطبيعي.

لذلك، إن التربية في المدرسـة والبيت،والمجتمع على العموم، لَمطـالَبـة بـأن تعلم الأفراد الحرص على اعتدال الكفتين.

بذلك يمتاز الإنسان عن الحيوان.

لكن، من الملاحظ أن المسؤولية الفردية في طريق الاضمحلال، ومعها حرية الاختيار. كما أن نـزوع الـذات نحـو تجـاوز «الأنَـا» قـد خفتت قـواه، ورجحت كفــة الجــانب الحيواني. هكذا انتشر التيه، أكثر فـأكثر، داخل معسكر لا اشتيـاق فيـه للمعنويـات، قانونه الأساسي الخنوع الى المعطيات الحالية، بدافع أنانيـة تبعـد بـاستمرار الـذات عن

(6) الحياة النباتية (La vie végétative) : حياة بلا أفق، بلا تعال، ترغم الكائن البشري على أن يصب كل اهتمامه على العمليـات الأوليـة للحفـاظ على الحيـاة الحيوانيـة (أكل وشرب ونوم وتنـاسـل) دون أدنى اعتبـار بالقدرات الفكرية والوجدانية والروحية.

الذوات، ولو على حساب تاريخ مجموع ما كان، وتاريخ ما يَوَد المصلحون أن تحققه إنسانية الغد.

أثقلت كفة الحياة النباتية كَتِفَي إنسان اليوم، فتجاهل أفعال الخير للخير، الأفعال المجانية والأفعال لجمالها أو لتحقيق رغبة في الإحسان (ولا إحسان دون حسن). الإنسان مغامر بالطبع، في عوالم العجائب يبحث عن الروعة والهُيام فيستغل مخيلته ليبدع آفاقا من العفوية والصفاء تثير التجواب الشعري والفني، فيسكن الى منابع الوجد والوجود.

هل من بديل ؟

البحث عن البديل يستلزم، مسبقا، البحث عن وسائل الإنقاذ. وهذا على مرحلتين إيقاف سيل الأخطار لتجنب الزوابع، ثم فحص ما تبقى قابلا لعلاج.

لقد زاغت الغرائز، وشرع الشباب العالمي يستيقظ متوترا غاضبا. غضب على مجتمعات يسيطر فيها شره الملذات على العواطف، وتقضي فيها مجاملات النفاق على الصدق في المودة. هذا المناخ أسخط الفئات الصامتة من الفتيان والفتيات فتمردت، في حين كان المسؤولون عنها غاظين. ثم وقعت الصحوة بصدمة، ولم تأت اليقظة. بدأ هدير العاصفة يدوي بسرعة تهز بنيات الأسر ومنظمات التربية.

انتشرت المخدرات حتى بالجامعات والمدارس الثانوية، وها هي تتسرب إلى المدارس الابتدائية.

تلوثت البيئة، وجدانيا وجغرافيا وتاريخيا ومعنويا. وحل الحزن والسفه محل الرشد والإنطلاق.

رغم كل ذلك، مازال المؤشر الاقتصادي هو الهم الأول لكل الشعوب وأساس تحركاتها، والأيام تنمي خلل التوازن بين السكان والمواد الطبيعية. مئات الملايين هي الأفواه في عصر البذخ والتبذير - التي تنتظر اللقمة قبل الانتصار النهائي للجوع ! اللِّجَن الأممية تجتمع لتتحدث في الموضوع. وتطول الجلسات والمداولات شهورا... ثم يحدد تاريخ اجتماعات أخرى للمداولات والاتصالات الى تقارير الخبراء والتصويت. وإذا وقع اتفاق ما بين المجتمعين المتداولين المقرّرين، بدأ دور اجتماعات خبراء للمراجعة، ودور آخرين بعدهم للتنفيذ، كأن الجوع صبور صبر أيوب !

أصيبت كل المجتمعات «الراقية» بشره الاستهلاك، في الوقت الذي تطارد فيه عواطف التآسي والتعاطف وصدق المودة. ينسى المبذرون الجائعين، فينسى الأمن وراحة الضمير كل المجتمعات، بمجموع طبقاتها. الكل معذّب، المتخلفون في جحيم الجوع والاستلاب، والآخرون يعذبهم التبذير والمزاحمات والتخمة. شمولية التشكي والضجر والألم والأنين.

يساعد الحظ أطفالا فيجدون مقاعد في المدرسة والجامعة. وبعد سنوات من الجهد والجد، يتوجهون - وبمحفظتهم شهادات جامعية - الى أسواق العمل، فيقبل البعض بالحظ والمحسوبية - ويترك الباقي في لوائح الانتظار، وكثير منهم تنقل أسماؤهم الى لوائح اليائسين. من ذلك جيوش الشباب المتمرد على غد ليس لهم استعداد لمقابلته، لأن الشعور بالتهميش جاد، وإمكانات الأمل ضئيلة.
فبأي سند يمكن مقابلة مستقبل مجهول، وقد عجز الإنسان عن مصايرة حاضر غامض ومتناقض، ليس فيه ضمانات معنوية (أخلاقية وروحية) يسكن بها القلب عن اليأس ؟
إن المعاصرين منبهرون بنجاحات المخبر وبالتطبيقات التقنلوجية، انبهارا ينسيهم التجارب الوجودية. فماذا يمنعهم من اعتبار ثنائية التجارب ؟ الطبيعة مليئة

بثنائيات لا تعارض التعادل والتناسق. لـذا نرى أن الرجوع إلى القيم الشموليـة، وقـد أعيد «تَذْوِيتها»، هو الحل الناجع، وأن الإيمان خير ضمان لتلك القيم. لكن فعـاليـات الإيمان تصطدم بأفكار مسبقة.

الإيمان : وسائل وبديل

باسم الواقعية، يرفض البعض القيم والإيمان الـذي يسـانـدهـا. على أن الواقع ليس هو ما يتحقق في عالم المحسوسات فقط، بل كذلك ما يتحقق في عالم الوجدان، والعالمـان معا في الوجود، والوجود عين الواقع. والعدم نفسه لا يكسب واقعيته إلا من علاقتـه مع الوجود.

نحيى الأزمـات في واقعَيْنَـا، الـذاتي والمجتمعي، ونحيى عجـزنـا على مجـابهتهـا، فنتحملهـا قهراً، لأن المقاومة فوضوية، وبلا طائل.

تلك أيضا تجارب «واقعية»، كما أن وجود الإيمان وديناميته من الواقع. حقـا، الإيمـان هو أيضا في أزمة لارتباطه الصميم بالقيم التي تعاني تأزمـا. فهو، رغم كل شيء، يحـافـظ على دوره الأصيل : إنه يشهد أن للإنسـان إمكانات وقـدرة على اتخـاذ أسمى المواقف، والقيام بأعظم التضحيات من أجل مواقفـه. وهـذا يعني أن الإيمـان شهـادة على ميل الإنسان الى تجاوز الـذات نحو الأحسن، من منظـار قِيَم تستحق التقـدير والإجلال. ينبىء هذا التعلق بتجاوز الذات، (تحقيقا لقيم عليا شمولية) عن ميل الى التعالي. ومن الواقع المشاهد أيضا أن الإيمان الصادق يعيد للنـاس الثقـة بـالنفس، ويعزز التعـاون والإخاء، مما يحول الإمكانات الإنسانية الى متحققات مجتمعية.

مَثَل مشـاريـع المعـاصرة المنسلخـة عن القيم، كمثـل حمـامـة تعجـز عن التحليـق، رغم الأجنحة، لأنها تختنق بانعدام الهواء في محيطها. يود بعض المعاصرين لو تأتى للحمامـة

أن تطير بلا هواء ولا أجنحة... لكن الطبيعة تعارض التحليق في أجواء لا هواء فيها (إن كانت موجودة تلك الأجواء !).

فمتى سَيَعون أن التقنيات والتقدم، بل والحضارة، في حاجة الى تهوية نظيفة، الى اطمئنان أخلاقي ونفساني كي يبقى في مسار تصاعدي نحو التَّشخص السوي ؟

فلم يقلص الواقع ؟

من الأفكار المسبقة التي يدعو لها بعض الفكرلوجيين أن للعقل قدرة على استيعاب كل الواقع، وأن كل ما هو «واقعي عقلاني» [7]، وأن الكلمة الفصل في الأحكام عن الواقعية والعقلانية ترجع الى طرق علوم الطبيعة، وأن صلاحية القيم والأفعال والمعتقدات، لا تقاس إلا بنتائجها المحسوسة.

تبعا لهذه القَبْليات، يحكم البعض بأن الإيمان والتعالي وكل ما يتصل بالروحيات والمعنويات مفاهيم مرفوضة لأنها خرافات، لا وجود لها في الواقع. من هنا الدعوة الى تجنيد كل القوى الحية لمحاربة الدين، عوضا عن تجنيدها ضد التخلف.

ماذا يجيز أن نتقول على الواقعية والعقلانية والموضوعية فندعي أنها تصدر أحكاما من ذلك القبيل ؟

لن يكون الجواب دفاعا عن الإيمان، ولن يكون باسم الغيبيات، ولكنه دفاع باسم الواقعية، عن الواقع باختلاف أوجهه ودرجاته، ارتكازا على الموضوعية والعقلانية.

(7) وجه وحيد من أطروحة هيچل المزدوجة.

فنكران الأبعاد العمقية (عالم الوجدان/الروحيات/المعنو يات) تكسير لوحدة الشخص، إفراغ له من كل ما ينقله من كائن خام الى كائن بشري يَتَشخصَن ويَتَأنسَن، طول الحياة، في/ومع مجتمعات إنسانية.

حقا، كثير من الناس «لا يومنون»، هذا أيضا واقع لا سبيل لنكرانه، إلا أنه بدوره لا ينفي وجود مؤمنين. وبصدد العالم الثالث الذي يهمنا بالدرجة الأولى، يصرح الجغرافي السوسيولوجي «إيف لاكوسط» بأن الثالِثيَة تجعل من الإيمان حركة دينية، وأن الذين يفكرون في العالم الثالث لا يأخذون تلك الحقيقة بعين الاعتبار، لذلك، عندما يتحدثون عن العالم الثالث يتحدثون عن شيء يجهلون موقعه على الخريطة (2)...

ـ الواقع المخبري ليس كل الواقع

يعترف العلماء بأن آفاق العلم محدودة. فكما تطالب الدساتير، باسم الديمقراطية، أن يعترف بحرية الرأي واحترام الاختلافات الموجودة عمليا بين الأفراد والجماعات، كذلك تطالب بأن يعترف للدين بحالته المدنية المشروعة، داخل الواقع، ويعترف بالمواطنة للقوات الأخرى التي تحرك الوجدان وتجند القدرات البشرية (الرغبات والحدس والميول والحب...). إن الدفاع عن الدين هو، عمليا، مجرد محاولة لإثبات جانب من الواقع الإنساني. لذلك، لا ينطلق الدفاع من أوامر شرعية، وإنما يستند الى مشروعية وجوده كمؤسسة مجتمعية تعكس تواجد مواطنين متدينين مع مواطنين غير متدينين (وليس في هذا أي تفضيل).

(2) Y. Lacoste, Unité et diversité du Tiers-Monde, Paris, Ed. F. Maspéro-Héroclote, 1981.

الوعي لا يقوم بأفعال نافعة، مقبولة مجتمعيا، اذا لم يصاحبه شعور أخلاقي عميق. فالكفاح الوطني المغاربي [8] لدى الجماهير، والذي أدى الى الاستقلال، لا يعزى الى المطالب العقلانية. كما أنه من الخطأ تفسيره بالمصالح الآنية وحدها. ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن الإيمان والتعلق بقيم لعبّا دورا أساسيا، أولا في خلق ذلك الكفاح، وثانيا في تغذيته إلى أن أثمر أكله بتجنيد المشاعر وتوجيه الأفعال نحو مطلب التحرير، ثم تحقيق الاستقلال.

هل تجيز العقلانية طمس معالم ذلك الواقع ؟

إن العقلانية محدودة، كالعقل نفسه. فمثلا، يقيم «هوبس» عقلانيته على التجريبية والمنطق، في آن واحد، لأنه يرمي الى تأسيس تفكير سياسي. لكن التجربة الحسية والمنطق، وإن كانا مع الواقع، لا يمثلان مجموع الواقع. حقا، كل شيء ينطلق من الإحساس ليصل الى تأليف عقلي، إلا أن الإحساس لا يعرّفنا مباشرة على الأشياء، فالصفات الحسية (مثلا الألوان والأصوات) ليست من خاصيات الأشياء، ولكنها تغيرات تحدث في ذواتنا، كما تعتري الأشياء. كذلك في ذواتنا تقع تجربة الإيمان : إنها تجربة وجودية، شهادة يدلي بها من يعانونها. فلا يتأتى للفكرلوجيين الموضوعيين أن ينكروا الواقع الديني، إلا أنهم يحاولون تسفيهه باسم العقلانية.

فما يلاحظ على موقفهم هو أن الواقع، في عمومه، أوسع وأشمل من مجالات العقل والعقلانية. أما الواقع الديني بصفة خاصة، فأكثر تجذرا في كينونة المؤمنين، يوجه سلوكهم ونظريتهم عن الكون والمجتمع. لذلك يجب التذكير بأن ما يحصل في العيان

(8) «مغاربي» : نطلق اللفظة على من ينتسب الى «مغارب» (شمال افريقيا). وبفضل هذا الاستعمال، نتجنب الالتباس الذي يسود لفظ «مغربي» الذي يطلق أحيانا على الانتساب الى المغرب الأقصى (= Marocain)، وأحيانا على الانتساب الى «المغرب الكبير = المغرب العربي» (= Maghrébin).

ليس هو كل ما يمكن/ ما كان ممكنا أن يتحقق. ويجب كذلك أن نؤكد أن الواقع لا ينحصر فيما تسجله الحواس. يقول عثمان أمين عن الجواني إن «مفهومه» أوسع من «ما صدقه»(9).

فما يسميه هيچل بـ «نظام الإمكانات»، بالنسبة الى الفرد أو الى الجماعات، أوسع دلالة وأصدق تعبيرا عن واقعهم من «نظام المتحققات».

فماذا يمنع المصلحين الفكرلوجيين العرب من توظيف الإمكانات الدينية ـ ولو استراتيجيا ـ ضد التخلف ؟

تنقص بعضهم حاسة الواقع في نظرته الى المجتمعات العربية، وهذا غير معقول من لدن باحثين عقلانيين ! فهل العقلانية هي التي تدعوهم الى التنكر للعقل كلما واجهوا المجتمعات العربية في تهميشاتها الحالية ؟ تلك آية على أن تذرع بعض الباحثين بالعقلانية وتعلقهم بأهدابها لا يقينا مؤونة تعقب آثار العقلانية في ما يقترحونه من حلول، وما يفترضونه من تصورات حول العقل ووظائفه النظرية والعملية. إن العقلانية التي يحتكمون إليها تحتاج هي نفسها الى مناقشة. فمطلقية العقلانية، كما في نظرياتهم، تعوق العقل عن أن يعرف وظائفه العملية وحدود حقوله. يدرك العقل الواقع تجزئة وتبعيضا، ولذلك يحس بالحاجة الى التعاون مع الحدس وقدرات أخرى، ليحصل الإدراك إجمالا : إدراك التأليف، بعد إدراك التجزيء.

في محاولة الإدراك، يقع بعض مفكري العالم الثالث ضحية للبعة الثنائيات، أو «التناقضات الثنائية»، إن جاز هذا التعبير. ونلخصها في أربع أزواج، هي : التصور - الصورية، المحتوى ـ الشكل، الواقع المادي ـ الواقع الوجداني، المادية ـ المثالية.

(9) الجوانية، دار القلم، القاهرة، ص 22.

سنكتفي بتحليل قصير لتلك الثنائيات، لنرى،مرة أخرى، مقدار تأثير القبليّات في تفكير بعضنا، عند معالجة قضايا الشعوب العربية.

ـ الثنائية الأولى:«التصور ـ الصورية»

في هذه الثنائية تتحول معطيات الواقع الى مجرد صور عقلية، بلا مضمون حقيقي، وتفرع في أشكال لغوية أو في إشارات أو في رموز. وينتج عن التصور أن واقعية الإنسان تنزع منه، بين تصوره للعالم ومادية الحياة. فمثلا، يؤسس عثمان أمين الجوانية على ثنائية : أنا «جواني/باطني/داخلي. وأنا «براني/سطحي/لا ـ واقعي».

هنا نتساءل، باستغراب، عن طبيعة «الأنا» الثاني وعن وظيفته

كما نتساءل:على أي شيء يعتمد عثمان أمين عندما يؤكد أن الأنا الباطني/الجواني يمتاز بكونه وحده واعيا، ويعد وحده مستقرا للحرية ؟ (10).

فإن نحن قبلنا نظرة ثنائية الأنا، استنتجنا انه من العبث مقاومة الاستعمار مادام الغرب لا يستعمر «الأنا الجواني» الذي هو وحده يتمتع «بالوعي وبالحرية»، وهو وحده «واقعي» ! وليست تلك النتيجة هي النتيجة العَبَثية الوحيدة التي يفرزها الذهن الخاضع للثنائية السابقة.

طبعا، قامت وتقوم السياسة الاستعمارية على تخريب الأنا الداخلي عساها تستولي بسهولة على الأنا الآخر، الأنا الواقعي.

(10) ـ انظر كتابنا من الحريات الى التحرر، دار المعارف، القاهرة. الفصول الخاصة بمناقشة فلسفة برجسون.

فالمثالية - ومنها الجوانية والبرچسونية - تخطىء لأنها تجزىء الذات إلى أنا جواني وآخر خارجي، ضد الواقع وبالرغم عنه.

الثنائية الثانية : «الشكل - المحتوى»

إنها ثنائية عتيقة تتجدد على الدوام بين الأدباء والنقاد. فعندما يعارضون بين الشكل والمضمون، يفترضون وجود محتويات عاطفية أو فكرية يستطيعون أن يعبروا عنه دون شكل. ذلك من جهة، ومن جهة أخرى، يفترضون أن الأشكال توجد منعزلة، قائمة بذاتها، تسبح في الأثير الى أن يتزوجها محتوى ما، مصادفة أو اغتصابا، فيخرجها من «القوة الى الفعل».

- الثنائية الثالثة : «الواقع المادي - الواقع الوجداني/ الشعوري»

ليس الشعور ثقبة مفتوحة على الفراغ. إنه دائما «متعدٍّ» (في المعنى النحوي)، أي إنه في حاجة ماسة الى «مفعول به»، الى موضوعات، الى «الواقع الخارج عنه». وعندما يلتقي الشعور مع واقع ما، يحدث التقاء ينعكس على الوجدان (أفعال وانفعالات). فالشعور وعاء لكذا... أو كذا... وعملية استيعاب وانفعال وتمثل. يتناول الشعور الأشياء فيضفي عليها دفئا ذاتيا يُؤنسن العلاقة بها ويكسبها معاني، مع تحديد مواقف الإنسان منها.

توجد المادة بالنسبة لفرد (على مستوى الإحساس)، عندما يحتك بأشياء فيحس أن ذلك الاحتكاك يحرك شعوره. وعندما يمتزج المحيط المادي بالمحيط الوجداني، يرتقي الشعور الى وعي...

ـ الثنائية الرابعة : «المادية ـ المثالية»

يخلط بعض المثاليين بين مادية أبيقورية، في معنى قدحي : مادية لا تبحث إلا عن لذات الحياة النباتية، لا مبدأ لها ولا أفق معنويا، قيمها أن ترضي أكثر ما يمكن من الشهوات البهيمية...

ومن الماديين بدورهم، من يرمون المثاليين بالرجعية والتخلف عن ركب التقدم، فكل مثالي النزعة إنما هو عميل للبرجوازية والأمبريالية، وذو ذهنية أسطورية... ويحشرون في المثالية الإيمان بالمعنويات وبالتعالي وبأخلاق منبثقة عن الدين...

تلك ثنائيات أزواج تسود الأوساط الثقافية الثالثية، يغامر مثقفون بها ومن أجلها، بالجهد والوقت في مشاقرات عنيفة تخلف جروحا في الجسد المجتمعي، وفتورا في سير الفكر، وتفككا في الصف.

فمن كثرة ما شحن الدماغ بالمطلقيات ـ ليبرالية واشتراكية ـ تضخم جرمه حتى لم يبق فيه فضاء لتحركات حرة. إنَّ فكرا لا يتنفس طبيعيا، لن يتحرك طبيعيا. ومن كثرة ما لوثت الشعارات والقبليات (مثل الثنائيات السابقة) المناخ الثقافي، لم يعد يصل لمخِّنا الأوكسجين صافيا. لقد باتت تلك المطلقيات عرقلة في سبيل التفكير المستقيم لأن الوثوقية تسيطر على كل فعل ذهني، وكأنها اعتقاد منغلق وصاد لكل ما عداه. وكأنها كذلك، مصادرات منهجية هي أيضا منغلقة وصادة.

فبذلك التنميط للفكر الثالثي المعاصر، وبتكييفه ذاك، اتسعت الشقة وتعمقت بين المحاورين، فلا أحد ينصت لأحد (حوار غربي ـ غربي، وحوار اشتراكي ـ اشتراكي، أي منلوغات متعددة الأصوات .والعالم الثالث يبتلع كل تلك الخطابات بشَرَه ودون تمثل

كاف). فأضحى النقد الذاتي مجهولا، وسادت عمليات تبذير الطاقات الفكرية هباء منثورا، في عالم اللا معقول حيث ينسى الواقع فيلتزم كثير من المثقفين الثالثيين بالدفاع عن اللا واقع : الإنسان ذي «البعد الأحَدِي» المبثور من البعد الروحي.

طاقات الفكر ثمينة، كطاقة معتقدات العالم العربي، إلا أن الاستثمار عشوائي لا تكاملي، جدالي لا جَدلي. الناعورة تدور حول نفسها رتيبة. والرتابة ترفض التكامل ولا تعترف بالتسامح، وتتجاهل حرية الرأي. إذن الناعورة تدور (هذا واقع)، وإنه لا خلاف بين الدورات (واقع آخر)، وواقع ثالث (مؤسف هذا الواقع الثالث !) : إن المثقفين الثالثيين المعاصرين يحبون الناعورة لدورانها على نفسها، بصدق لا ينحرف، وبصوت يحرص كامل الحرص على صون هويته من كل تطور. إنهم مثل الناعورة، يغنون لحنا حزينا للأبد، ويكررون، متحدثين أكثر من الكثير عن التقدم والتقدمية، ويتخاصمون من أجلها، بل يتباغضون، وإن كانوا لم يستفيدوا بعد من الوضع كي يتجنبوا الخطاب المنق عن التقدمية، ويصمموا عمليا، لتقدمية عملية واقعية علمية...

- محدودية الفكر

من وظائف التفكير أن يعكس ما حوله ويجرد المحسوسات ليرفعها الى مستوى النظر. وسواء اتبع المفكر فلسفة مادية أو مثالية، لا يمكنه أن ينكر محيطه الحياتي، أفعالا وردود أفعال : اقتصاديا (الانتاج والاستهلاك)، وسياسيا (مع تنوع الأشكال والدرجات)، ومجتمعيا (بتأثيرات المجتمع المختلفة، وحسب الضغوط). فمثلا، للدين بالعالم الثالث، حضور متحرك ومؤثر في الأعماق، على كل أوجه المحيط الحياتي. فالوجود البشري معطيات برانية وجوانية، في نفس الآن، لا تدرك المعاني والمحتويات الإعلامية إلا في شكل من الأشكال المجتمعية. يتحقق وجودنا ماديا ومثاليا، وينسب إلينا لأننا

نعانيه ونُحَينُه، فزيائيا وسيكلوجيا. فلا مجال للخلق العفوي في عـالم الفكر أو المعـاني والمثل، كما هو محال في عالم الماديات، لابد من مواد أوليـة ومن فكر ليفهمهـا قبل أن يتصرف فيها. أن الذبذبة والحيرة عرقلة للفكر، كما تمنعه الوثوقيـة من مرونـة التصرف في الواقع. فالوثوقية الماديـة كالوثوقيـة المثـاليـة، تعـارض توحيـد الرؤيـة والالتحـام بـالواقع. إنهـا حـاجـز في طريـق بنـاء المستقبـل، بـل حتى في سيرورة تصـوره، لأن للتفكير مضمونا خـارجـا عنـه يتجـاوزه، فمعيـار اليقين ليس في الفكر، بل في علاقـة الفكر بالحياة وتطابقه مع مجرياتها.

ذاك هو معنى «الإنسان حيوان سياسي/مدني بـالطبع»، على اعتبـار أن السيـاسـة هي تسيير المجتمع وتنظيم العلاقة بين الأفراد. فلا قوانين قارة للفكر توجهـه وتجعلنـا نخضع لهـا قبل أن نخضعهـا لنـا. كما أن محتوى المفهومين السيـاسيين والفلسفيين لـ «يمين» ولـ «يسار» دائمـا في طلوع وهبوط، أي نسبيـان، إذ لكل يسـاري مَن هو أكثر يسـاريـة منه، ولكل يميني من هو أكثر يمينية منه.

الفكر أفقي، وإن ظنه البعض عموديا، بيد أن أفقيته محدودة، مكانيـا وزمـانيـا. إنـه «آلة» تاريخية وتأريخية.ومن هنا تصدر عن الفكر دلالات حضارية. فعمليـات الفكر قصدية، غائية. لذلـك، كلمـا أردنـا تحليل فعل فكري وجب أن ينصب التحليل، في نفس الآن، على مـا يسميـه الظـاهرتيـون بـالـ «noëse» [11] وعلى الـ «noëme» [12]. معنى هذا أن مهمة التحليل القصدي هي ابراز ماهية الأفعال غير منعزلة عن مـاهيـة الموضوعات.

---

(11) فعل التفكير ذاته، ماهيته، الحياة السيكلوجية في ذاتها.

(12) التصور المرتبط بذلك الفعل، ما نفكر فيه.

يجب كذلك، التفرقة بين «acte thématique»، أي ما يكون مبحثا أو نموذجا، مـا هو موضوع لعمليات الذهن، وبين «acte thétique» أطروحة، موضوع فعل الفكر.

لا توجد في الأفعال الفكرية التفرقة السابقة التي يجربها الظـاهرتيون. فماهيـة الفكر ومضمونـه يتلازمـان، كما أن أي فعل فكري، بـوصفـه شخصيـا، لا ينفصـل عن فعـل الفكر بصفته موضوعا. فالشعور حضور الذات المباشر في/ومع محيطهـا. فمن وظـائف الفكر المتميزة أن يعين الشعور ليرتفع عن مستـوى الإحسـاس الى الـوعي.وأن ينتقـل بالوعي إلى التأمل في علاقات الذات بمحيطها. إن التأمل شرط سابق على أي تخطيـط للوسائل الكفيلة بإصلاح خلل علاقات الـذوات بمحيطهـا وبـالتـاريخ .فمثلا لتـاريخ **الشعوب العربية بنيات دينية، لذلك فالتفكير، مع التغافل عنها نكران لواقع العرب. فأخذ هذا الإطار بعين الاعتبار، هو المؤشر للتأمل، وبالتـأمل تنتصر قـدرات الـذات على التصرف في المحيط. ينير الفكر الخبرات وينظمها وينميها بقدر ما يتمسك بالواقع. فلا بد أن يعرف الواقع قبل أن يعمل على تغييره.**

يعترف الفكر الحي بوجود شعور لا يخضع لتأملاته، ويحدس بإحساسات غامضة، انـه شعـور بَعْـدي بمبـادرات تفـاجئـه أحيـانـا، وبـأفعـال عفـويـة لا تـدخـل في قبضـة استنتاجاته، **فيعمل على أن يستعين بها، فالذات أغنى من الفكر.** انها مبدأ الوحدة **الفردية، «الشخص»، ومركز الرغبات والأفعال (الفكرية منها وغير الفكرية).** للـذات حضور دائم في أغلب لحظات الحياة النفسانية، وحضور في جل الأفعال التي تربطهـا بالغير وبالعالم، إلا أن كلا الحضورين تعتريه ثقوب من الغفلة والتناسي، لأن الحيـاة ليست كلها يقظة وتيقظ. هناك أغلاط يرتكبها العقل تنتج عن الجـانب اللا معقول من الذات. فكما للفكر انزلاقات عن المنطق، كذلك تنزلق الذات سيكلوجيـا خـارج الأفعال الطبيعية وردود الفعل المتوقعة.

يتحرك «الأنا» في حدود لا تخضع كلها للفكر، ولا تسمح للفكر أن يتجاوزها، أو أن يدعي القدرة على استنفاد كل الواقع. وإن الدين من تلك القطاعات التي تدخل في الواقع، خارج حدود الفكر، وإن حاول بعض العقلانيين إنكارها.

الحياة شارع يتفرع عن دروب بلا عَد، بلا وجهة، ولا أحد يعرف ما في آخر الدرب، ولا مقدار صواب اختيار الوجهة التي هو في سبيلها. النزاد مجرد نقط استفهام. الكل يتساءل : متى سيصل ؟ والى أين ؟ وكيف سيسترسل ؟ وفي آخر المطاف، ماذا سيجد، ومن سيكون في الانتظار ؟...

وهل من رجوع ؟

استهدف كارل ماركس توحيد الإنسان مع الطبيعة، عن طريق العمل الحر. وكانت غايته، كما تقول الأدبيات الماركسية، حذف «الأساطير» وإبعاد «الدين»، سعيا وراء تقريب الطبيعة من الإنسان، وردم الهوة التي أقامها «الاستغلال» بين الإنسان وذاته. إن العمل الحر في اعتقاد ماركس، هو الكفيل باستعادة هذا التوافق المفقود، إذ يمثل السكن والمسكن الإنساني للإنسان، كما أن الطبيعة هي مسكنه الأرضي.

فهل الاستغناء عن الله (أو ما يسمونه «أوهاماً») **يقرب الإنسان من الإنسان ويعطي لإنسانية الإنسان أية كثافة ؟**

هل يحقق ما توخاه ماركس ؟

بكل موضوعية، الجواب سلبي، بل على العكس، لقد أضاع الإلحاد على الكثيرين من الناس فرصا للأمل، وكسر داخل أعماق ذواتهم ما كان يحفز الى التعلق بالحياة وتقبل القيم، تكسيرا دون بديل.

واضح أنه، إذا كانت معادلة الله بالعدم لم تحرر الإنسان، فإن مطلقية الله تذيب أية مطلقية يمكن أن تنسب لأي بشر، لأنها تعطي شعورا بتساوي كل الأفراد أمام الله وفيا بينهم، محررة للجميع من عبادة أي أحد. بهذا تفتح مسالك الحرية أمام الجميع، والحرية طاقات قابلة للتكيف مع متطلبات الحياة. ومن جهة أخرى، ان تأكيد الحرية للجميع، وبالتساوي، إثبات لكرامة كل شخص، انه تأكيد يقطع الطريق على كل تبرير عرقي أو فكرلوجي لاستغلال الإنسان من لدن أي تكتل أو أي إنسان.

إن الله لا يدخل في تنافس أو مزاحمة مع أحد، لأنه كائن مطلق بمطلقية يختص بها وحده. وبما أنه خالق كل شيء وكل الناس، فهو غير قابل للاحتكارات: إنه بلا جنسية ولا عرق، انه للجميع، والجميع له. لقد أمنهم على تسيير الأرض وألزمهم بالتحرر، ثم تركهم يعملون ويتحملون مسؤولية ما يعملون :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8)﴾ (الزلزلة).

تدخلنا أعمالنا في التاريخ، وبها نصنع التاريخ، ويكفي أن نحسن توجيه تلك الأعمال لنصنع تاريخا مؤنسنَناً. وبما أن أعمالنا تصدر عما نحن وما لنا، فهي مرتبطة بالماضي كمؤسس، وبالحاضر كحقل، وبالمستقبل الذي هو آمال ومآل.

الطبيب ابن خلصون ومذهبه في تدبير الصحة وحفظها

محمد العربي الخطابي

رحم الله أبا عبد الله محمد ابن الخطيب السلماني، وزير غرناطة ومؤرخها وعالمها وأديبها، فقد خلف لنا ذخيرة فريدة لولاها لما وصل إلى علمنا الكثير من أخبار مدينة الحمراء ورجالها النابهين منهم والخاملين؛ والذخيرة هي كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» الذي حققه صديقنا المؤرخ الجليل محمد عبد الله عنان.

من التراجم التي انفرد بها هذا الكتاب ترجمة محمد بن يوسف ابن خلصون مؤلف كتاب في الأغذية وحفظ الصحة عثرنا على مخطوطتين له في خزانة الكتب الحسنية بالقصر الملكي في الرباط وأدرجناهما في الفهرس الوصفي لمخطوطات الطب والصيدلة والأعشاب الذي صدر في مستهل السنة الماضية.

وقد لفت نظري ما كتبه الطبيب الفرنسي لوسيان لوكليرك في كتابه «تاريخ الطب العربي» [1] عن هذا الكتاب المخطوط فقال إن مؤلفه هو «أبو عبد الله محمد ابن خلدون الذي ربما كان أخاً للمؤرخ المشهور» - وهو يقصد أبا زيد عبد الرحمن - وكان لوكليرك

(1 Leclerc, Dr. Lucien - Histoire de la Médecine arabe, 2 : 288, Paris 1876.

قد اطلع على مخطوطة لهذا الكتاب في الجزائر ـ كما قال ـ وما أن قرأت الفقرات التي نقلها إلى الفرنسية من مقدمة كتاب ابن خلصون حتى أدركت أن لوكليرك وقع في وهم اعتراه من سوء القراءة أو من سوء الخط، إذ أن المؤلف على التحقيق هو محمد بن يوسف ابن خلصون كما هو مثبت في مخطوطتي الخزانة الحسنية وفي ترجمته في الإحاطة [2].

وقد عرف به ابن الخطيب تعريفا وافيا، وكناه أبا القاسم، فقال : «إنه روطي الأصل، لوشِيُّه [3] سكَن لوشة وغرناطة ومالقة. كان من جلة المشيخة وأعلام الحكمة، فاضلا منقطع القرين في المعرفة بالعلوم العقلية، متبحرا في الإلهيات، إماماً في طريقة الصوفية، من أهل المقامات والأحوال، كاتباً بليغاً شاعراً مجيداً، كثير الحلاوة والطلاوة، قائماً على القرآن، فقيهاً أُصولياً، عظيم التخلق، جميل العشرة. انتقل من حصن روطة إلى الخطابة والإمامة بلوشة، كثير الدؤوب على النظر والخلوة، مقصوداً من منتحلي ما لديه ضرورة، لم يتزوج وتمالأت عليه طائفة ممن شأنها الغض من مثله، فانزعج من لوشة إلى ما لقة، فتحرف بها بصناعة الطب إلى حين وفاته» [4] .

فكيف غمرت أمواج النسيان عالماً جليلاً بهذا القدر الذي وصفه به ابن الخطيب ؟ والجواب عن ذلك نجده في ثنايا كلام ذي الوزارتين. فقد تمالأ الحاسدون على ابن خلصون محاولين الغض من شأنه، وهو لم يكن من المقربين إلى ذوي السلطان، بل كان زاهداً في ذلك.

2) ابن الخطيب السلماني، أبو عبد الله محمد بن عبد الله؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ج 3 :256 ـ 267. القاهرة 1395 هـ / 1975م.

3) نسبة إلى روطة (Rueda) ولوشة Loja بلدتان بالأندلس.

4) الإحاطة، 3 : 256 ـ 57.

نقل ابن الخطيب عن والده ـ الذي كان خبيراً بأحوال ابن خلصون، وهو من أصحاب أبيه ـ خبرا يوضح سبب خروج ابن خلصون من لوشة، ذلك أن طائفة من أضداده والحاقدين عليه روجوا في الناس أقوالاً مؤداها أن نزول المطر رهين بإخراج ابن خلصون، وكان الناس يعانون شدة قحطٍ، فخرج، وما كاد طبيبنا يبتعد عن المدينة بضعة أميالٍ حتى أمطرت السماء، فسجد بموضعه متجهاً إلى الله قائلاً : سيدي، أوَ أُساوي عندك هذا المقدار ؟ ولهج بالشكر والحمد.

وفي غرناطة، عاصمة بني نصر، لم يلق ابن خلصون من يقدره حق قدره، فقد كان في حداثة سنه مدح في قصيدة أحد الخارجين على السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن يوسف (671 ـ 701 هـ = 1272 ـ 1302م) [5] فكانت له عليه موجدة. ولم يكن ابن خلصون راغباً في التقرب كما نفهم من ابن الخطيب الذي يخبرنا أن محمد بن أحمد الرقُّوطي المُرْسي [6] ـ وهو طبيب رياضي فيلسوف كان «يقرئُ الأُمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون في تعلمها» حسب عبارة ذي الوزارتين، وكان أحد ملوك النصارى قد بنى له مدرسة في مرسية يقرئُ فيها المسلمين والنصارى واليهود ـ كان الرقُّوطي هذا ذا حظوة كبيرة عند الملك النصري أبي عبد الله محمد بن يوسف، «وشأنه اختبار من يرد على الحضرة ممن يحمل فناً». فلما حضر ابن خلصون سأله الرقُّوطي : ما صناعتك ؟، فقال : التصوف. فالتفت إلى السلطان وقال، : «هذا رجل ضعيف لا شئ لديه بحيث لا يفرق بين الصناعة وغيرها» [7] .

وقد ألقى ابن خلصون عصا التسيار في مدينة مالقة. حيث اشتغل بالطب إلى حين مماته. ولم يخبرنا ابن الخطيب بتاريخ وفاة هذا العالم الذي غمرته أمواج الزمن فيمن

5) هو أبو عبد الله محمد، ثاني ملوك بني نصر، كان يلقب بالفقيه.
6) ترجمة الرقوطي في الإحاطة لابن الخطيب، 3 : 67 ـ 68.
7) نفس المصدر السابق 3: 257.

غمرت، وقد علمنا أنه عاش في عهد الملك النَّصْري أبي عبد الله محمد بن يوسف، وأنه في حياته انتقل إلى مالقة لممارسة مهنة الطب. وهذا الملك توفي ـ كما قلنا ـ سنة 701 هـ، ولسنا ندري أمات ابن خلصون قبل هذا التأريخ أو بعده.

تآليفه

ذكر منها ابن الخطيب في الإحاطة جملة «تدل على جلالته وأصالة معرفته، تنطق علماً وحكمةً وتروق أدباً وظرفاً»[8] ـ حسب تعبيره ـ. وهذه المؤلفات هي :

ـ كتاب المحبَّة، وقف عليه ابن الخطيب بخط جدِّه سعيد.

ـ وصف السلوك إلى ملك الملوك، عارض به معراج ابن الحاتمي.

ـ رسالة الفتق والرَّتْق في أسرار حكمة الشرق.

ولم يذكر ابن الخطيب كتاب تدبير الصحة والأغذية الذي هو موضوع هذه الدراسة[9] .

هذا وفي الإحاطة مختارات من شعر ابن خلصون جلها في المحبة الصوفية، وأورد له ابن الخطيب ـ زيادة عن هذه المختارات ـ قسماً من رسالةٍ طويلةٍ تنم عن أسلوبه الفني الرفيع وسعة اطلاعه على علوم الحكمة والتصوف وميله إلى الإنصاف فيما يقول، وموضوعها مؤلفات أبي حامد الغزالي ورأي بعض الفلاسفة والفقهاء فيها، كأبي بكر بن

---

8) نفس المصدر 3 : 258.

9) في الخزانة الحسنية بالقصر الملكي في الرباط نسختان خطيتان من هذا الكتاب، رقم الأولى 12.250 ز / طب وفيها بتر، ورقم الثانية 734 / طب (انظر فهارس الخزانة الملكية، المجلد الثاني، الرباط 1402 ـ 1982).

الطفيل، وأبي الوليد بن رشد الحفيد، وأبي بكر الطُّرطوشي. ويهمنا هنا رأْي ابن خلصون بالذات، وقد عقب به على أقوال هؤلاء .قال في خاتمة الرسالة :

«وأنا أقول إن كتبه [أي الغزالي] في الأَصلين ـ أعني أُصول الدين وأُصول الفقه ـ في غاية النبل والنباهة، وبسط اللفظ وحسن الترتيب والتقسيم وقرب المسائل، وكذلك كتبه الفقهية والخلافية والمذهبية التي ألفها على مذهب الشافعي ـ فإنه كان شافعي المذهب في الفروع ـ وأما كتبه التي ذهب فيها مذهب التصوف، فهي التي يوجد فيها ما ذكر من الضرر بالعرض [10] ،وذلك أنه بنى الأكثر من الاعتقادات فيها على ما تأدي إلى فهمه من مذاهب الفلاسفة ونسبها إلى المتصوفة. وقد نبه على ذلك الفقيه الجليل أبو بكر الطُّرطوشي [11] في كتابه الذي سماه بمراقي العارفين، قال : «وقد دخل على السالكين ضرر عظيم من كتب هذا الرجل الطوسي، فإنه تشبه بالصوفية ولم يلحق بمذاهبهم، وخلط مذاهب الفلاسفة بمذاهبهم حتى غلط الناس فيها».

«على أنني أقول : إن باعه في الفلسفة كان قصيراً، وإنه حذا حذو الشيخ أبي علي بن سينا في فلسفته التي نقلها في «المقاصد» [12] ، ومنطقه الذي نقله في «معيار العلم»، لكن قصر عنه. وتلك الاعتقادات منها حق ومنها باطل، وتلخيصه لا يتأتى إلا لصنفين من الناس : أعني أهل البرهان، وأهل المكاشفة، فبحسب ذلك تحتاج كتبه إلى تقدمة علوم البرهان أو رياضة أهل المكاشفة، ولذلك صنف هو «معيار العلم» ليكون الناظر في كتبه يتقدم فيتعلم منه أصناف البراهين، فيلحق بأهل البرهان. وقدم أيضاً

10) يشير الكاتب هنا إلى لفظ أبي الوليد ابن رشد حيث قال : «والذي يجب على أهل العلم أن ينهوا الجمهور عن كتبه، فإن الضرر فيها بالذات والمنفعة بالعرض».

11) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الطرطوشي، أبو بكر، توفي بالإسكندرية عام 520 هـ / 1126م؛ فقيه أديب من جلة أهل الأندلس، من مؤلفاته : «سراج الملوك» وهو مطبوع، وكتاب «المجالس»، وكتاب «مراقي العارفين» وغيرها.. (انظر الأعلام 7 : 34 ـ 133 حيث ذكر مصادر ترجمته).

12) يشير إلى كتاب «مقاصد الفلاسفة» لأبي حامد الغزالي. (انظر «مؤلفات الغزالي» للدكتور عبد الرحمن مندور).

تصنيف «ميزان العمل»، ليكون المرتاض فيه وبه يلحق بأهل المكاشفة، وحينئذ ينظر في سائر كتبه».

وقد علق ابن الخطيب على هذه التعقيبات فقال : «وهذه الرسالة طويلة تكلم فيها [ابن خلصون] على كتب أبي حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ بما يدل على تفننه وعلى اطلاعه، رحمه الله»

ولعمري إن هذا لرأي طريف أدلى به ابن خلصون حيث ربط كتب الغزالي الفلسفية والصوفية والاعتقادية بعضها ببعض وكأنها سلسلة متصلة الحلقات، لا يتأتى فهم بعضها إلا بالاطلاع على البعض الآخر.

ابن خلصون الطبيب

إن كتاب «الأغذية وحفظ الصحة» هو المؤلف الوحيد الذي يعرف لابن خلصون، ومنه مخطوطتان محفوظتان بخزانة الكتب الحسنية بالقصر الملكي في الرباط، وعليهما نعتمد في هذه الدراسة.

استهل ابن خلصون كتابه بمقدمة يتضح فيها مذهبه في الطب وحفظ الصحة، جاء فيها :

«سألتني أيها الأخ الحبيب أن أصنع لك كتاباً في الطب يغنيك عن طبيب، فأقول : اعلم أن علم الطب وضع لغايتين : لحفظ صحة بدن الإنسان ولزوال أمراضه.

«فأما الغاية الأُولى ـ أدامها الله لك ـ فيمكنني أن أُغنيك فيها عن الطبيب بما أُثبته لك في هذا الكتاب إن شاء الله .وأما الغاية الثانية ـ عافاك الله ـ فمعالجة الأَمراض لا غنى فيها عن الطبيب لكثرتها وصعوبة تمييزها».

وما يزال هذا المنهج سليماً ومتبعاً في عصرنا هذا. فالطب وقاية وعلاج باتفاق جميع الأَطباء الأَقدمين والمحدثين، وقد لخص الشيخ الرئيس ابن سينا غايةَ الطب (أو حدَّه) في بيتٍ من أُرجوزته الأَلفية المشهورة فقال :

الطبُّ حِفْظُ صِحَّةٍ بُرْءُ مَرَضْ   مِنْ سَبَبٍ فِي بَدَنٍ مُنْذُ عَرَضْ

وقد رتب ابن خلصون كتابه على خمس مقالات :

- المقالة الأُولى : وهي مدخل للعلم الطبيعي ـ كما سماه المؤلف ـ شرح فيه كيف يتكون الجنين من نُطْفَةٍ أمشاجٍ (أي أخلاط)، وبعد أن ذكر مراحل النمو التي يقطعها في بطن أمه، تطرق إلى التشريح ووظائف الأَعضاء، وذكر الأَخلاط الأُربعة على مذهب الأَقدمين، ثم شرح كيفية الهضم منتهياً بالكلام على الأَمزجة.

- المقالة الثانية : في حفظ أعضاء البدن على التفصيل. وصف فيها المؤلف تراكيب بعض الأَدوية التي تنفع الدماغ، وتحفظ البصر والسمع، وصحة الفم والشفتين والأَسنان، والرئَتَيْن والقلب والكبد، والمرَّارة والمعدة والأمعاء، والكُلَى والمثانة والأُنثيين، وحفظ ظاهر البدن (البشرة والأَظفار...).

- المقالة الثالثة : في حفظ الصحة على الإطلاق. بَيَّن فيها المؤلف ما يجب مراعاته في المطعم والمشروب من حيث كيفيتها وَكِمِّيَتُهُمَا ووقتها وترتيبها. ثم انتقل إلى الكلام عن النوم واليقظة وشروطها الصحية، وعن الحركة والسكون (الرياضة والراحة)، وعن دخول الحَّمام وما يتعلق به. ثم تطرق إلى رعاية الطفل بعد الكلام عن الصحة الجنسية.

- المقالة الرابعة : في تدبير الصحة تبعاً لفصول السنة الأَربعة.

- المقالة الخامسة : في أنواع الأَغذية وطبائعها وخواصها ومنافعها أو أضرارها، حيث ذكر مختلف أصناف الحبوب والقطاني، والخضار واللحوم، والفاكهة والأَفاويه، والحلوى.

وقد رأيت من الفائدة أن أُقدم فيما يلي فصولاً مختارة من المقالة الثالثة من كتاب ابن خلصون ليتضح مذهبه ومنهجه وأُسلوبه في تدبير الصحة، وهذه المقالة هي أهم ما في الكتاب، وفيها نقد لبعض آراء جالينوس وتعقيب عليها من المؤلف الذي يرى أن التجربة هي المقياس الصحيح.

الطعام

«إن الذي يجب حفظه ومراعاته في المطعم تدبير أربعة أشياء : كيفيته، وكميته، ووقته، وترتيبه.

«فأما كيفية المطعم فذلك يختلف بحسب كل مزاج.... والذي استقرينا من كلام قدماء الأَطباء أَنَّ حفظ الصحة يكون بالأَغذية المشابهة للمزاج، أعني مزاج مستعملها، ومعالجة المرض يكون بالضد... وهذا هو مذهب جالينوس ومن تبعه، وفي هذا القول

تتبع في موضعين : أحدهما أنه لا ينبغي أن يدبر صاحب المزاج الحار بالأغذية الحارة إلا في حال الصحة الكاملة في جميع أعضائه الظاهرة والباطنة، وتلك حال يقل وجودها في أكثر الناس وأكثر الفصول وأكثر الأقاليم، وإن وجدت فهي سريعة التغير، وقلما ثبتت؛ وأكثر الناس يظنون أنهم صحاح وهم ليسوا على هذه الحالة ـ أعني الصحة الكاملة ـ بل قد يكون بعض أعضائهم مريضاً أو مهيَّئاً للمرض وهم لا يشعرون بنفسهم، فإنها حالة خفية غامضة يكاد ألاَّ يحصلها الحسُّ فلا ينبغي أن يطلق هذا القول.

«والموضع الثاني أنا لو وجدنا صاحب المزاج الحار بهذه الحالة ـ أعني كامل الصحة ـ فدبرناه بالأغذية الحارة، فلا ينبغي أن تكون كحرارة مزاجه بل أقل حرارة منه بدرجتين لتكون الطبيعة تحيل الغذاء إلى نفسها فتكسبه من الحرارة درجة، فيبقى أقل حرارة من مزاج المغتذي بدرجة واحدة، ليكون حجاباً بين المغتذي وبين العلل الحارة، فإن هذا البدن كثير الاستعداد للأمراض الحارة وأيضاً فإنا إذا دبرنا صاحب هذا المزاج بمثل هذه الأغذية ـ التي هي أقل حرارة من مزاجه بدرجتين، فإنما نفعل به ذلك ـ مثلا ـ في زمن الشتاء حيث الحرارة ضعيفة، فإذا كان زمان الربيع زادت الحرارة، فينبغي أن نهرب عنها بدرجة فنجعل أغذية هذا المذكور أقل حرارة من مزاجه بثلاث درجات، فإذا كان زمان الصيف اشتد الحر وانتهى وكمل والتهبت الأخلاط واشتعلت وغلبت، فيجب علينا أن ندبر صاحب هذا المزاج بتدبير المرضى ـ فإنه في حكمهم ـ ونجعل أغذيته باردةً، ولا نضع فيها من الحرارة بالإضافة إلى مزاجه شيئاً، ولا درجة واحدة، فإن التجربة تشهد لنا في مثل هذا المزاج، إن أعطيناه أغذية حارة في مثل هذا الفصل، أنا نوقعه في أمراضٍ حارة وحمَّيات محرقة.

«وأيضاً فإنا ندبِّر هذا المزاج، بالإضافة إلى سنه، كما ندبره بالإضافة إلى الفصول، فنجعل ـ مثلاً ـ تدبير شبابه كتدبير صيفه، وتدبير كهولته كتدبير خريفه، وتدبير شيخوخته

كتدبير شتائه، وتدبير طفولته كتدبير ربيعه، مع أنَّا لا نغفل في تدبير الفصول عليه ما قدمناه.

«وأما تدبير كيفية المطعم فقد أجمع الشرع والطبع على ذم الشبع ومدحِ الحِمْيَة.

«وحد الحمية أن ترفع يدك عن الطعام وفيك بقية شهوة إلى أكله.

«يذكر جالينوس أن أقل الأَكل أَكلةً واحدةً بين اليوم والليلة، وأكثره أُكلتان، وأوسطه ثلاث أُكلات في يومين، والذي أراه أن ذلك لا يقف لاختلاف طبائع الناس، لأن منهم من يأكل ثلاث أُكلات في يوم واحد، ومنهم من هو في أَكْل دائم بالليل والنهار.

«والتجربة تشهد أن أُكلةً واحدةً لا تكفي لأُكثر الناس، وأن أعدل الأَكل أُكلتان في يومٍ واحدٍ، وأن الذي تكفيه أَكلةٌ واحدةٌ هو القليل من الناس النادر فيهم، وأما ثلاث أُكلات في يومين فشيءٌ يعطيه القول، ولا يتأتى وجوده لأنه لا غنى فيه من تبديل الأوقات واختلافها، وكفى بذلك ضرراً.

«وأيضاً فإن بعض الأَكل يأتي ليلاً ولا شيء أضر من الأَكل ليلاً، فإن الإنسان إذا كان في نصف الليل لم يَخْلُ أن ينام بعد الأكل أو يسهر، فإنْ نام كان نومه على امتلاء المعدة وقبل شراب الماء، ولا شيء أضر من ذلك ،وإن سهر أعقبه السهر من الضر والألم ما لا يخلفه بحميته، فذلك شيء لا يتأتى وإنما توهمه جالينوس... فإنه كان رجلاً بعيداً عن الحكمة، قد غلبت على طبعه السفسطة، فكان مولعاً بما يعطيه القول، وإن لم يطابقه الوجود، من ذلك توهمه أن في الوجود أشياءً لها كيفية واحدة بسيطة، كأنك قلت : حار فقط، أو باردٌ فقط... وليس في الوجود شيء حار فقط، أو بارد فقط، ولا يابسٌ فقط، ولا رطبٌ فقط، لأن أبسط ما نشاهده من الموجودات : الأُسْطُقُسَات

الأربعة : أعني النار والماء والأرض والهواء، وكل واحد منها له كيفيتان، فللنار ـ مثلاً ـ الحرارة واليبوسة، وكذلك سائر ما له كيفيتان.

«وأما ترتيب الطعام، فإن أهل الطب قد أجمعوا على أنه إن حضر طعام مُلَيِّنٌ وطعامٌ قابض، أن يقدم الملين ويؤخر القابض، واختلفوا إذا حضر طعام رقيق سريع الهضم، لأنه إنْ أُخر انهضم قبل الغليظ، وبقي في أعلى المعدة منضهاً طافياً، فيتأخر ويفسد ويستحيل، فإما أن ينحدر، وينحدر معه الغليظ غير منهضمٍ، وإما أن يبقى فيفسد الطعام لفساده ويعقب ضرراً.

«وقال بعضهم : بل ينبغي أن يقدم الغليظ البطئ الهضم، ليكون في قعر المعدة حيث الهضم أقوى، ويُؤخَّر الرقيق في أعلى المعدة حيث الهضم أضعف، ليكون انهضامهما في وقت واحد، وهذا القول أقرب إلى الصواب، وعلى القول الأول أكثرهم.

«والذي أراه، أنه إن كان الرقيق في غاية الرقة كلحوم البقر المسمنة والإبل والحوت النهري، أن لا يجمع بينهما، لأنك إن قدمت الرقيق انهضم سريعاً وانحدر، فينحدر معه الآخر غير منهضم، وإن أخرته انهضم ضرورةً قبل الآخر وطلب الانحدار، فإن انحدر أخذ معه الآخر غير منهضم، وإن لم ينحدر فسد الطعام الآخر، فلا بد من ضرر في كلا الحالين، وأما إن كان التفاوت بينهما قريباً... فلا بأس بالجمع بينهما ويقدم الغليظ على رأيي. وقد خالفت فيه جمهور الأطباء. وأرجو أن أكون فيه على حق. وأما تخليص الحق في ذلك فيكون بالتجربة.

«وأَجْمَعوا أيضاً على أن ما كان من الفاكهة مُلَيِّناً، فإنه يُقَدَّم على الطعام، مثل التين والعنب والعبقر [13] والمشمش وحب الملوك [14] ، وما كان قابضاً أُخِذ بعد الطعام

13) العبقر : أول ما ينبت من أُصول القصب ونحوه وهو غضٌ رخص قبل أن يظهر من الأرض.

14) حب الملوك هو الكرز في اصطلاح أهل الأندلس والمغرب.

مثـل السفرجـل والكُمَّثْرى - وهي التي يعرفهـا العـوام بـالإجَّـاص - ومثـل الرمَّانَيْن [15] والخرنوب والبلُّوط والقسطل والزبيب وما أشبه ذلك.

«وأرق الأَغذية وألطفها لحم العصافير، وبعـدهـا لحم اليام، ثم لحم الفراريج الصغـار، ثم فراخ الحمام ثم الحجل ثم الـدجـاج... ومـا حضر من الأَلوان المستعملـة بـالبقول فينبغي تقديمها لتليينها الطبيعةَ، ثم الأَلوان المستعملة بالبصل لرطوبتها ومـا فيهـا من التليين، ويؤخذ في وسط الطعام الذي يعمل باللفت والباذنجان وبـالقرع والكرنب، ثم يؤخـذ الـذي يعمـل بـاللـوز والحمص، ثم البيض، ثم المخـللات، ويختم بـالمعسَّـل. ومـا كان من الصِّناب [16] والزيتون والليمون والكوامخ المشهيات للطعام، فتؤخذ في وسـط الطعـام قريبـاً من آخره، ويؤخـذ الزيتـون الأَخضر القـابض في آخر الطعـام، وبعـده بيسير تـؤخـذ الجـوارشـات الهـاضمـة للطعـام، كجـوارش الأَنيسـون والكمـون ومربى الصعتر والسفرجل وما أشبه ذلك.

«وقـد بقي من أدب الأَكل أن يطول زمـانـه وتصغر لقمتـه ويكثر مضغهـا، ولا تمضـغ لقمة حتى تبلع الأُخرى، فإن ذلك يسرع هضمها».

المشروب

«والـذي أيضـاً تجب مراعـاتـه من المشروب أربعـة أشيـاء : الكيفيـة والكميـة والـوقت والترتيب.

فأما الكيفية فـإنهم أجمعوا على أن أحمـد الميـاه وأطيبهـا مـاء المطر المتخلص من التراب والتغير الذي لم ينزل على سقف ولا سطح، بل من السماء إلى الإناء... إلا أن هـذا المـاء

15) يقصد الرمان الحلو والرمان الحامض.

16) الصناب : طعام يصنع من الخردل والزبيب يؤتدم به.

لا يمكن لأحد أن يدوم عليه لأن المطر لا ينزل في كل زمان، فإن احتكر في الأوان تغير وفسد وزالت منفعته... وأحمد المياه بعد ماء المطر، ماء الأنهار الكبرى بشروط، منها أن يكون بعيد المفجر لكي ينطبخ ويرقّ بحركته وإشراق الشمس والكواكب عليه، ومنها ألا يخالطه غيره من [ماء] الأنهار والعيون فيفسد كيفيته، أو تراب متغير، ولا سبخة مالحة، ولا أرض مجيرة، ولا أرض كبريتية. ومنها أن يوضع في أوان مزججة لكي ينزل إلى قعرها ما خالطه من التراب والحجارة الصغار، فإنه يكاد لا يسلَم منها... ثم من بعده ماء العيون بشروط، منها أن يكون جريه من جهة المشرق إلى جهة المغرب، موافقا لجري الشمس والقمر وسائر الدراري والكواكب. ومنها أن يكون خروجه من أرض بيضاء طَفلية كريمة، ليست بصلبة جبلية ولا رخوة سبْخية، ويكون طعمها عذباً ينحو إلى الحلاوة، ولذلك فإن أحمد المياه على الحقيقة ماء النيل الذي بمصر، فإنه من حلاوة الطعم ولذاذة المذاق، يظن شاربه أن فيه عسلا... ومنها أن يكون وزنه خفيفاً، ويختبر ذلك بأن تؤخذ خرقةٌ معتدلة الأجزاء، فتقسم على نصفين، ويغمس النصف الواحد في ماء، والنصف الآخر في ماء آخر، ثم يعصران عصراً معتدلا حتى يبقى في هذا من الماء قدر ما في ذاك، ثم يجعلان في موضع معتدل حتى يصيب هذا من الشمس والحر والريح قدر ما يصيب ذاك، فأي القطعتين جفت قبل الأُخرى فماؤها أخف.

«وأما كمية الماء فينبغي أن يشرب حتى يزول العطش ويروى، فإن حاجة الغذاء إليه ضرورية لكون الطعام لا يكمل هضمه إلا بالماء مع الحرارة الغريزية... وكثرته أيضاً تبرد المعدة وتفسد الهضم.

«وأدلُّ شيء على أن العطش كاذب، أن يزول بإثر مدافعته والصبر عليه، فإن زاد فهو عطش صادق.

«وأما وقتـه الطبيعي، فهو إذا نزل الطعـام عن فم المعـدة إلى الجوف، وأخـذت القوة في هضمـه، واشتـدت حرارة الجـوف، فيغلب اليبس على جرم المعـدة، فتطلب الطبيعـة ترطيبها بالماء. والشرب في أول الطعام يطفئ الحرارة الغريزية ويبرد المعدة ويفسد الطعـام، وإن أُخـذ منـه في إثر الطعـام شيء يسير ممزوج، عـدل الطعـام ونبـه القـوة الهـاضمـة، وزاد في رطـوبـة البـدن. والشرب على الصـوم وخـلاء المعـدة يقرح العصب ويضعف البدن والكبـد وييبس المزاج، والشرب بـالليل غير محمود. وينبغي ألا يشرب بإثر الرياضة القوية ولا العرق المفرط ولا الجماع، ولا بإثر الحمـام، ولا بـإثر القيـام من النوم، ولا في الحمام أيضاً.

«وأما الترتيب فراجع إلى هيئة الشرب، وفي السنـة في ذلـك مقنع، وهو أن يُمص مصـاً، ولا يُعب عبّاً... وينبغي أن يتنفس في شربه ثلاثاً، يعاود الإناء ولا يـأخـذ حـاجتـه بمرة».

النوم واليقظة

«للنـوم أربـع كيفيـات : نـوم على الظهر، ونـوم على البطن، ونـوم على الجنب الأيمن، ونوم على الجنب الأيسر.

فأما النوم على الظهر فمنفعته تسكين الأوجاع، وإراحـة الأعضـاء، وتعـديل المفـاصل، وتوفير رطوبة البدن، ومضرته أنه يملأ الـدمـاغ من الأخلاط ويولـد النزلات، ويصب البلغم إلى مؤخر الدماغ فتفسده القوة الهاضمة، وربما أورثت الكابوس المنذر بالصرع.

«وأمـا النـوم على البطن فمنفعتـه حفـظ الحرارة الغريـزيـة على البـدن وتحسين لـون الوجه... ويقوي الهضم، ويسرع طبخ الطعام في المعـدة، ومضرتـه أنـه يصب المواد إلى العين، ويرخي الأعصاب ويوجعها حتى إنه ربما ولد الاحتلام.

«وأما النوم على الجنب الأيمن فمنفعته إيثار الحرارة من الكبد، لطبخ الطعام وتعديل الهضم، وتقوية المعدة وتعديل الدماغ فتصدق الأحلام، ومضرته تعليق القلب وإضعافه، وربما أورث فزعا ووحشة وخفقاناً.

«وأما النوم على الجنب الأيسر فمنفعته تقوية القلب وتعديل الحرارة الغريزية وإراحة النفس، ومضرته إذا أديمَ عليه، تبديد الحرارة لأن الجنب الأيسر هو البارد بالطبع، وربما ضعف الهضمَ.

«وأما كمية النوم، فإن الإكثار فيه يطفئ الحرارة الغريزية، ويرخي الأبدان، ويملأ الدماغ من أخلاط فاسدة. وربما أفسد العقل وأورث الجنون. وقلته تضعف الأبدان، وتيبس الجسوم وتضعف الحرارة الغريزية، وتشعل الحرارة الغريبة، وتصفر اللون، وتذبل الشفاه، وتعمش العيون، وتجفف الدماغ، وتولد الفكرة والهم والوسواس. وربما أحدثت المالنخوليا.

«والنوم المعتدل يرطب البدن، وينضج أخلاطه، ويولد فيه الدم المحمود، ويعين على الهضم، ويريح القوى النفسانية، ويقوي الحفظ، ويعدل الفكر والعقل، وينشط الحواس وينبهها.

«وأما وقته الطبيعي فهو الليل الذي يغيب فيه ضياء الشمس المحرك للحواس، فتكسل الحواس، وتتعب النفس لكثرة تدبيرها للبدن بالنهار، واستعمالها للقوى الحساسة والفكر والاستنباط.

«وأما ترتيب النوم فهو أن يدخل على جنبه الأيمن فيأخذ نومه، ثم يتمدد على بطنه حتى يغلب السنة، ثم يريح الأعضاء على قفاه يسيراً، ثم يتحول على جنبه الأيسر بقية نومه إلى آخره».

الحركة والسكون

«الحركة نوعان : جسدية ونفسانية.

وكيفية الحركةأن يُستنبط لكل عضو ما يخصه من الرياضة، فللعين ـ مثلا ـ تغميضها وفتحها، وتدميغها بالأكحال، وفتحها في الماء العذب. وللأُذن استماع الأصوات؛ وللأنف شم الأشياء المفتحة والامتخاط؛ وللرأس المشط؛ وللسان الكلام والقراءة؛ وللصوت والصدر والرئة وقصبتها الصياح والتصويت؛ وللصلب القيام والقعود والركوع والسجود؛ وللأوراك والأفخاذ والقدمين المشي ؛ وللذراعين واليدين تناول الأشياء وجذبها.

«والرياضة العامة للبدن هي الحركة الكلية والنقلة المخصوص بها الحيوان.

«وأما الرياضة المعتدلة فتكثر الروح الطبيعي، وتنقي البدن من الفضول، وتنميه وتصلب الأعضاء وتحفظ الصحة وتقوي الهضم.

«وحدُّ الرياضة القوية أن يعلو النفَسُ وينـدى البـدن بـالعرق. ومن هـذه يفهم حـدُّ الرياضة المعتدلة والقليلة. ولا يمكن أن تضبط بشيءٍ لاختلافها في حق كل إنسان.

«وأعدل الحركة الجسدية المشي الرفيق وركوب الخيل ومصارعة الجواري [17] .

«وأما حركات النفس فكالسرور والهم والغضب والخوف والحسد والحب. فـأما السرور فإنه يقوِّي النفس ويخصب البدن وتدب فيه الحرارة الغريزية دبيباً خفيفاً. وأما الهم

17) مصارعة الجواري : لعل الأمر يتعلق بنوع من الرياضة أطلق عليه هذا الاسم في اصطلاح أهل الأندلس.

فيضعف النفس والجسد ويهدمه... وأما الحبُّ فيرقق النفس ويكسبها ذِلة وسكونا ويولد الفكرة، فإن زاد كان عشقاً ينذر بالمالنخوليا.

«ومن لا حركة لنفسه فهو أشبه بالبهائم منه بالإنسان، بل أشبه بالنبات.

«وينبغي أن نستعمل الرياضة قبل الطعام وبعد خروج فضلات الجسد... فبذلك تبادر الأبخرة وبقية الفضلات إلى الخروج.

«ولا ينبغي أن تستعمل الرياضة على ضعف وجوع مفرطٍ، فإن ذلك يضعف البدن ويبرد الحرارة الطبيعية فَيُعْقِبُ ضرراً».

الاغتسال في الحمَّام

«**منافع الحمّام** : ينقي الجلد ويزيل الوسخ ويطهر البدن ويفتح مسامه، ويحلل الأبخرة... ويرطب الأبدان وينميها، ويزيد في حرها الغريزي، ويفرح النفس ويذهب الحزن.

«وينبغي أن لا يدخل أحد الحمَّام في يوم شديد الحر، فإنه يُيبس البدن، ولا في يوم شديد البرد والريح، فإنه لا يأمن من النزلات عند الخروج منه، ولا يدخله عند امتلاء المعدة، فإنه يولِّد السَّدد والحمى العفونية، ولا على جوع فإنه يُيبس البدن ويشعل حرارته ويولد حمّى يومٍ، ولا بإثر جماع ولا فصادة ولا مسهل ولا سهر ولا تعب، ولا يجمع بين استفراغين.

وليكن دخول الحمام على خلاء المعدة، ووفور القوة، ونشاط النفس، واعتدال الفصل، واعتدال النهار ضَحْوَتَهُ، فإذا دخلته فلا تتجرَّد [من الثياب] إلا في البيت الأول،

ولْتقعد فيه قليلاً، وتصب على جسمك من الماء المكسور بَرْدُهُ مشابهاً لهوائه، ولا تستعمل الماءَ الحار في البيت البارد، ولا الماء البارد في البيت الحار، ولا تَبلَّ رأسك في هذا البيت. ثم ادخل البيت الثاني، فإذا جلست فلتصب على رأسك ثلاث غرفات من الماء الحارّ أقصى ما تحتمله، ولا تصبَّ بارداً فاتراً، فإن البارد يسده، والفاتر يرخيه ويهيِّئه لانصباب النزلات وقبول الزكام، وأما الحار فإنه يسده ويفتح مع ذلك مسامّه لخروج الأبخرة التي تتحرك بحرارة الحمَّام، فيومن من الصُّداع، واستعملْ في هذا الماء الفاتر الرطب على بدنك مشابهاً لهوائه.

«وليكن غسل الرأس في البيت الثالث الحار بالماء الحار، ولا يمكث فيه إلا بمقدار ما يغسل الرأس، وليصب فيه على البدن الماء الحار المشابه لهوائه، فإنْ غلبك الحرُّ، وأدركك الضعف، وأصابك الصداع، فلتغسل وجهك خاصة بالماء البارد، ولتمشط رأسك في البيت الحار ولتخرج إلى البيت الأوسط للاحتكاك، ولتقعد بين يدي طَيَّابٍ عارف، وليمدك مدّاً رفيقا، ثم يجمع وسخك ويزيله، ولا يشد ظفره في الحك، فإن ذلك يؤذيك، فإذا فرغ من ذلك كله فليعم جسمك بالدّلك بكفه، ثم يكثر صب الماء الفاتر عليك حتى ينقيَ جسمك، ثم تخرج إلى البيت البارد فتقعد فيه يسيراً وتصب على جسدك من الماءالرَّطب المشابه لهوائه؛ فإن كان فصل الحر وكان بدنك نقيّاً من الأخلاط غير ممتلئ ولا مسدود، فلا بأس أن تغسل بالماء البارد ولا تمسه برأسك، فإن الاغتسال بالماء البارد في آخر الحمَّام يعدل حرارته، ويرطب البدن ويصرف الحر إلى باطن البطن لتحليل ما بقي من الفضلات، وينشط النفس وينبه الحواس.

«وإن كان بدنك مسدوداً ممتلئاً، وكان يصيبك عند صب الماء البارد بإثْر الحمَّام بردٌ ورعدة، فإياك والماء البارد على كل حال، فإنه يولِّد الحميات، ولا بأس أن تستعمله في زمان دون زمان بعد التحفظ بالشروط. والإدمان عليه كل مرة غير مأمون.

«فإذا فرغت من ذلك كله فلتطلب ثيابك وتنشف جسمك برداء كتّان، وتجفف شعرك، ثم تلبس ثيابك وتغطي رأسك، وتخرج وأنت تسدُّ أنفك بيدك لِيَلاً يدخل عليك البرد والريح فتصيبك النزلات، ولكي تنعكس الحرارة مع النفس إلى باطن بدنك فتحلل ما بقي من الفضلات.

«ولتغسل رجلك في المُشَلَّحِ (18) بالماء البارد ولتقعد خارج الحمّام ساعة حتى تسكن عنك الحرارة ويهدأ نفَسك وترجع إلى حالتك الطبيعية.

«وللدَّلْك منفعة عظيمة في الأبدان، وقد كان الأوائل يستعملونه كما يستعملون الرياضة لحفظ الصحة. واستعماله يكون إما بدهنٍ أو بغير دهن، وإما في حمّامٍ أو في غير حمّام».

تدبير الأُم والطفل

«إذا صح عندك أن المرأة حاملٌ، فلتكف عن استفراغها بفصد أو حجامة أو قيءٍ أو إسهال، ولا بأس بتليين طبيعتها، واحذر عليها الفزع الشديد، والأصوات القوية، وشم الروائح الحادة إلى أن يكمل حملها أربعةَ أشهرٍ.

«وينبغي أن تعتني أولاً بمعدتها بالسكنْجَبين، ومربَّى الورد، وجوارش السَّفرْجل والتفَّاح وتلطيف الغذاء... وإذا وَلَدَتْ فَلْتُسْقَ بما يحلل النفخ وينقي الفضول، فبذلك يصفو لونها ويصلح.

«وينبغي أن تكون أغذية المرضع من أجود الأغذية وأبعدها عن الفساد، وترتاض قبل غذائها رياضة معتدلة، فبذلك يصلح لبنها، وليكن هذا تدبيرها إلى الفطام.

18) المقصود بالمُشَلَّح : مكان نزع الثياب في الحمّام، من «شَلَّح» فلاناً : عرّاه.

«وأما الطفل فينبغي، إذا ولد، أن يُنْثَرَ على بدنه شيءٌ من ملحٍ لكي يصلبَ لما يلقاه من الحرِّ والبرد، وهذا على رأي جالينوس.

«وقال ابن زهر (19) : «دُهْن البَلّوط يفعل هذا الفعل من غير أن يلدغ كما يلدغ الملح.

«وما يفعله الناس الآن من نثر الحناء على بدنه عوضاً عن هذا كله ففعلٌ جَيِّد، لكن ينبغي أن يكون معها مقدار ثُلُثِها رَيْحَاناً مسحوقاً، ومقدار سدسها ملحاً.

«ويجب أن يكون غذاء هذا الطفل اللبن فقط، من غير أن يدخل عليه طعام، فإن ذلك يسدده ويورثه التُّخَم والجَرَب والقُروح. وأكثر مرض الأطفال وموتهم سريعاً، من الأطعمة التي تدخل عليهم، بل يبقى الطفل على لبن أمِّه ـ وهو الغذاء الذي أعدَّته الطبيعة ـ حتى تطلع أسنانه.

«وينبغي أن يغسل في كل يوم بالماء الفاتر في هواءٍ معتدل.

«وأما رياضته فيكفي منها تحريكه في المهد قبل إرضاعه، فإذا ارتاض واستحم أُرضِعَ. ثم يلزم السكون وينام.

«وينبغي استعمال الألحان والأصوات المطربة والمحركة للنفس أثناء التحريك في المهد، فالأول يصلح النفس والثاني يصلح البدن.

«وإذا ظهرت أسنان الطفل فلا بأس بأن يطعم من الأشياء الرطبة اللينة، كلباب البُر مغموساً في لحم قد طبخ ببقل، وتنفعه أيضاً أمراق الفراريج الصِّغار، وتصنع له

---

19) هو أبو مروان عبد الملك ابن زهر الإيادي، مؤلف كتاب الأغذية، وكتاب التيسير في المداواة والتدبير، وغيرهما، توفي عام 557 هـ / 1162م.

بلاليط من الكعك والفانيد، وتوضع في يده ليمصها. ويُدلك لسانه على الريق بـالعسل وسحيق الزنْجَبِيل ليسهل عليه الكلام.

«وإذا أُطعم طعامـاً فلا يكثر عليـه معـه من لبن أُمـه، وليُرضَع بعـده ليكون لـه بمنزلـة الشراب مع الطعام. وليكن إطعامه الطعـام بتـدريج مثل أن يطعم يومـاً ويترك على لبنه ثلاثة أيام، ثم يطعم يومين ويترك على لبنه ثلاثة وهكذا... حتى لا يضرّه.

«وإذا فُطم فلا تقطع له اللبن بمرة، وليترك على الطعام يوماً ويُرضع معه في الثـاني، ثم يترك يومين ويرضع معه في الثاني، ثم يترك يومين ثم يرضع في الثـالث، وهكـذا حتى يصير الاغتذاء بالطعام عادة، فيقتصرَ عند ذلك عليه. ولتكنْ أطعمتـه لينـةً معتـدلـة. وهكذا يكون تدبيره إلى أن يقوى على المشي ـ وذلك في السنـة الثـالثـة ـ وبعـد ذلـك يأخذ في الرياضة كل يوم عند قيامه من النوم، ثم يُدلـك ويحمم وبعـد ذلـك يتنـاول غذاءه على ما يجب، ثم يُزْجَرْ عن الحركة بعد الغذاء، ويمنع من شرب الماء بـإثره، فـإذا غلب على الظن أن طعامه قد نزل عن معدته شرب.

«ولا ينبغي أن يُحمل الطفل في الزجر والتأديب قبل سبع سنين، فإذا أكملها فلا بـأس بأن يدخل المسجد [20] ويوصى مؤدبـه أن لا يعنف عليـه، فـإن ذلـك يكسر نشـاطـه ويمنع من حسن نشره، حتى يبلـغ عشر سنين فـلا بـأس بـالـزجر المعتـدل في التـأديب والتعليم. وليكن هذا تدبيره إلى كمال أربع عشرة سنة».

20) يقصد بالمسجد : المدرسة أو الكتاب.

رحلة ابن رُشَيد[1]
تاريخ حافل للثقافة والفكر في القرن السابع

تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة
تقديم : عبد الكريم غلاّب

في بداية الستينات تعرفت على الصديق العالم المحاضر الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة في زيارة علمية قام بها إلى المغرب. والدكتور ابن الخوجة يدخل باب الصداقة والودّ من غير استئذان، ومن أوسع أبوابه. ولذلك لم يكد يصل إلى المغرب حتى تعرف عليه، وتعرف على معظم المثقفين بالمغرب، في مختلف اتجاهات الثقافة. وطرق باب دار الفكر - مقر اتحاد كتاب المغرب آنذاك - وشهد وشارك في النشاط الثقافي والمناقشة الجادّة التي كانت تحفل بها الدار. وفي بضع ساعات أصبح وكأنه عضو في الاتحاد، وبين مؤسسيه، يعالج اهتمامات الاتحاد الثقافية لأنها نفس اهتمامات تونس الثقافية.

منذ تعرفنا على الدكتور ابن الخوجة وهو يتحدّث عن ابن رشيد، لأن اهتمامه العلمي، بعد أن حصل على الدكتوراه من باريس، انصبّ على الرحالة العالم المؤرخ السبتي ابن رُشيد، ولأن رحلاته للمغرب وإسبانية عن طريق المغرب، كانت من أجل ابن رُشَيد. فكان رحالة من أجل «الرحلة». ولم تقل رحلاته إجهاداً وبحثاً عن ابن رُشيد نفسه. ولعله وجد من المتاعب في وقت الطائرات ما لم يجده ابن رُشيد في وقت الجمال والقوارب الصغيرة !

---

1) ابن رُشَيْدْ، أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري السبتي، «مِلْءُ الْعَيْبَة بِمَا جُمِعَ بِطُول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة»، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، جزءان، الثاني سنة 1402 = 1982. الثالث سنة 1983، تونس.

ذلك أن ابن رُشَيد أتعب نفسه، وأتعب الناس. وفي مقدمة من أتعبهم، ابن الخوجة. فكتب رحلة فريدة من نوعها، وتعرضت رحلته لما تتعرض له الكتب الفريدة النادرة، تحولَتْ في الآفاق، وَفُقِد بعضها في مختلف الآفاق، وَتَلِفَت أوراقٌ منها واختلطت أخرى.

البحثُ عن الضائع والتَّالِفِ والمختلط من هذا الكتاب الفريد، وإعادته سالماً مصحَّحاً الى الدارسين والباحثين، هو بعض متاعب الدكتور ابن الخوجة، وهو يحقق رحلة ابن رُشَيد المسمَّاة ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة.

ومن هنا أيضا جاءت الرحلة الطويلة التي قام بها الدكتور ابن الخوجة في مدى عشرين سنة لتحقيق رحلة قام بها مؤلفها في مدى ثلاث سنوات (683 هـ ـ 686 هـ) لأن متاعب الدكتور ابن الخوجة في البحث عن الأصل وجمع نسخه، ومقابلتها وتحقيقها وبحثها، لم تكن تقل عن متاعبها مع المطبعة التي تقف في كثير من الأحيان ـ رغم التقدم الفني ـ عاجزة عن إخراج كتاب علمي، في وقت لا تعجز فيه عن طبع كتب أُخرى ليست بمستوى كتاب «ملء العيبة».

☆ ☆ ☆

وقد قام ابن رُشَيد برحلته في عصر بني مرين (بين بداية القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الخامس عشر). واجتاز المغرب في هذا العصر ظروفاً سياسية صعبة نظراً للتحولات التي كانت تكتنف منطقة الغرب الإسلامي جميعه بما فيه الأندلس. ونظراً لرغبة المرينيين في بعث المجد السياسي الكبير الذي كوَّنه للمغرب المرابطون، وبلغ قمته في عهد الموحدين، كانت رغبتهم في الحفاظ على الأندلس وفي توحيد المغرب العربي، وفي استمرار نشر الإسلام في إفريقية، كان كل ذلك يملأ عهدهم السياسي في بدايته بالمتاعب ولو أنهم عرفوا نحو قرن من الاستقرار والازدهار والعمران والغنى. ولكن

السياسة ليست كل شيء في ازدهار الحياة الثقافية، فقد عرف العهد تبَادلاً ثقافياً مهماً، وسعة في الأفق، وحرية واسعة لإيواء كثير من المثقفين الذين قدموا من الأندلس، وفي استقطاب كثير من المثقفين من مختلف أنحاء البلاد، ورفع مكانتهم وإعلاء شأنهم. وتنفس المثقفون المغاربة الصعداء، فتبادلوا المعرفة بينهم، وهاجروا في سبيلها. وكان منهم رحالون كبار، يذكر التاريخ من مشاهيرهم ابن رُشَيد والعبدري وابن بطوطة.

وما من شك في أن الرحالين ـ الحجاج بخاصة ـ كانوا كُثراً، ومنهم علماء ومثقفون. ولكن الكتاب منهم كانوا ـ فيما يبدو ـ قلة. ويعطي هؤلاء الثلاثة صورة عن اتساع أفق الثقافة، وعن دقة الملاحظة والرغبة في المعرفة والاتصال الفكري (ولو أن ابن بطوطة دون زميليه في مجال الاتصال العلمي والأدبي، ويفوقهما في مجال الاتصال الاجتماعي ودقة الملاحظة وقوة المغامرة).

ولا غرابة في ذلك، فقد انتج عصر المرينيين حياة عقلية واسعة، وظهرت فيه شخصيات بارزة، وعاش في المغرب من غير المغاربة أفذاذ استفادوا من المغرب علماً، وأفادوا بعلمهم وأدبهم، فكانوا بذلك مدينين للمغرب.

عرف هذا العصر من الأدباء والعلماء ـ مثلا ـ، مالك ابن المرحل السبتي أو المالقي، (ولد سنة 604 هـ)، وقد تعاصر مع ابن رُشَيد، وتبادل معه صداقة علمية. وعبد العزيز الملزوزي المكناسي (توفي سنة 697 هـ)، وابن رشيق الأديب العالم المؤرخ الهجاء (توفي سنة 696 هـ) بتازة، وابن عبد الملك المراكشي (634 هـ ـ 703 هـ)، صاحب «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة»، وأبا العباس أحمد بن البناء المراكشي (654 هـ ـ 721 هـ)، أكبر رياضي عرفه الغرب الإسلامي. وممن وجد في المغرب في هذا العصر، علماء من الشرق والغرب، من الأندلس وتونس، في مقدمتهم ابن خلدون

(732 هـ ـ 808 هـ)، وقد قضى بالمغرب أزهر حياته التكوينية والسياسية والثقافية، فانتقل إلى فاس وسنه ثلاث وعشرون سنة، أي سنة 755 هـ، وغادر المغرب سنة 763 هـ، وهي سنوات حافلة بالانقلابات والاضطرابات السياسية، وحافلة أيضاً بالمثقفين والعلماء والأُدباء الذين أخذ عنهم ابن خلدون في جامعة القرويين، ذات المجد العلمي الزاهر؛ وفي مقدمتهم كذلك لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي (713 – 776 هـ = 1313 – 1374م) وقد تردد على المغرب سفيراً، حتى استقر به منفياً مستفيداً وكاتباً ومؤلفاً وشاعراً. وكتب مجموعة من الكتب في التاريخ والأَدب والطب. وهو كزميله ابن خلدون مغربيان فكرياً وثقافياً. يقول الأستاذ عبد الله عنان في كتابه عن ابن الخطيب : «إن الفترات التي قضاها ابن الخطيب من حياته في المغرب لم تكن فترات عابرة، بل كانت بالعكس فترات أصيلة، سواء بالنسبة لتطور حياته، أو بالنسبة لإنتاجه الفكري. ذلك أن ابن الخطيب قد وضع معظم مؤلفاته بالمغرب، وتأثر إنتاجه الفكري بظروف حياته، المستقرة أحياناً، المضطربة غالباً في ذلك القطر المغربي الذي أحبه، والذي شاء القدر أن يطوي فيه حياته، وأن يثوى في أرضه الثواء الأَخير.. وقد قضى ابن الخطيب أخصب حياته في المغرب، وهو يعد بلا ريب، من مفاخر المغرب، كما أنه من مفاخر الأَندلس». ومنهم ابن مرزوق الخطيب التلمساني (ولد سنة 710 هـ)، وقد أقام في المغرب منذ سنة 754 هـ، وألف في المغرب كتاباً مهماً عن الدولة المرينية، وخاصة أبا الحسن. وغامر في الميدان السياسي حتى إنه سجن مرتين على غرار ما حدث مع ابن خلدون وابن الخطيب.

في هذه البيئة العلمية وجد ابن رُشَيد، وتعلم وتثقف واتصل، بما برهنت عنه رحلته من رغبته في الاتصال العلمي. وكانت رحلته نتيجة هذه البيئة العلمية التي عرفت كذلك كثيراً من المنافسات في التحصيل والتأليف. وقد أكبره كثير من المعاصرين، لعلمه ولكتابه الفريد الذي يؤكد شخصيته وثقافته. وقد شهد له بهذه المكانة ابن الخطيب في «الإحاطة»، فلم يترك صفة علمية إلا وصفه بها من الحفظ والنقل، والأَصالة

والضبط، والإسناد والعدالة وجمع الكتب، والاضطلاع بالعربية واللغة والعروض، والتفسير والأدب والتاريخ والقرآن...

ولهذه المكانة العلمية استدعي إلى غرناطة حيث ولي مناصب علمية مهمة، منها القضاء. ثم عاد لأسباب سياسية إلى مدينته سبتة سنة 708 هـ فاراً بنفسه من المحنة.

رحلة ابن رُشَيد نوع خاص من الرحلات التي اشتهر بها المغاربة. هي رحلة علمية، رغم أن الدافع الظاهر لها هوالحج وزيارة قبر الرسول. وأغلب الرحالين المغاربة كانوا يوفقون بين أنواع الرحلات ـ وخاصة الحجازية منها ـ فتكون رحلاتهم علمية دينية في نفس الوقت، لأنهم لا يفرقون بين العلم والدين. فالعلم عندهم تدين، والدين عندهم علم. ولذلك فأغلب الرحالين الذين ذهبوا للحج أطالوا طريقهم فمروا بعواصم العلم ليستفيدوا ويفيدوا، وليدرسوا ويعلموا في نفس الوقت.

وامتاز ابن رُشَيد بأنه لم يهتم إلا قليلاً بالرحلة «السفرية» في كتابه هذا، وإنما انصب اهتمامه على الرحلة العلمية من خلال العلماء والمثقفين الذين اتصل بهم، وحاورهم رواية ودراية وتعلماً واستجازة، فاستفاد منهم وأفاد عنهم من خلال التراجم التي كتبها، فترك لنا تراثاً علمياً مهماً يعتبر ثروة عن الحياة الثقافية والفكرية في المنطقة العربية الإسلامية الممتدة من الخليج إلى المحيط في القرن السابع الهجري.

وشمولية الثقافة والعلم في العصر الإسلامي الوسيط، لا يعادلها إلا شمولية فكر العلماء والمثقفين في ذلك العصر. وابن رُشَيد السبتي المغربي من بين هؤلاء المثقفين الذين كانوا يجمعون بين الأدب والفقه والحديث، ولذلك كانت اتصالاته تشمل الفقهاء والأصوليين والمحدثن والمتصوفين، والأُدباء والشعراء، والنحاة والرواة، وكل من يتصل بسبب إلى العلم.

الرحلة كانت امتحاناً لرجل عالم لم يكن يقل ثقافة ومعرفة عن الذين اتصل بهم وتعرف على علمهم وثقافتهم. فهو ابن سبتة وفاس. وهما المدينتان اللتان أنارتا سبيل الفكر والمعرفة في قرون من تاريخ هذه البلاد. ولد في سبتة سنة 657 هـ، ومات في فاس سنة 721 والحكم يومئذ للمرينيين، وقد جمعوا بين ثقافة المرابطين والموحدين وعطائهم الفكري والفني للمغرب.

وثقافة أبي عبد الله محمد بن عمر بن رُشَيد جمعت بين علوم العربية والحديث والفقه والأدب. ولهذا كان يتجول في مختلف دور المعرفة القريبة من بلدته، فَدَرَسَ بالأندلس وفاس ومراكش. وكان طموحه أكبر من وطنه. فقام برحلته الفريدة، التي قصد منها إلى المعرفة بالإضافة إلى الحج، فمن سبتة إلى المرية إلى بجاية وتونس، فالأسكندرية فالقاهرة فالقدس فدمشق وغيرها من المدن السورية، ثم المدينة المنورة ومكة المكرمة. وعاد منها عن طريق مصر وطرابلس والمهدية وتونس وبونه. ثم ركب البحر إلى مالقة ورنْدة والجزيرة الخضراء فسبتة.

ثلاث سنوات قضاها في هذه الرحلة العلمية، قابل فيها عشرات العلماء والمحدثين والرواة والباحثين والأدباء. فكان يبحث في هذه الرحلة عن العلم، ولكنه لم يكن يكتفي بما يسمع، وإنما يكتب ويلاحظ ويترجم للذين اتصل بهم، حتى جمع هذه المَعْلَمَة الفريدة في تاريخ الثقافة والفكر في القرن السابع.

الرحلة في الحقيقة لا تجمع تراجم من صِنْف التراجم التي تجدها في كثير من كتب التراجم. وإنما هي مذكراتُ شاهد عصر عن علماء اتصل بهم وأخذ عنهم. فليست مصادره الكتب والآثار. ولكن مصدره الأساسي الاتصال المباشر، والاتصال أصدق طريق للمعرفة. وكان غرضه من هذا الاتصال ـ كما يقول الأُستاذ ابن الخوجة في المقدمة ـ الانتفاع بما عندهم من أخبار وأحاديث، وفهارس وسماعات ، وتقييد الأسانيد والانتظام في سلكها بما يحصل عليه من إجازات.

قراءة ترجمة واحدة من هذا الكتاب الحافل بالتراجم تؤكد منهجه في الاستقصاء والبحث والاستفادة والتسجيل.

ولنأخذ مثالا من ذلك ترجمته لأبي بكر بن حبيش التي افتتح بها الجزء الثاني. فقد زاره ابن رُشيد ولزمه مدة إقامته بتونس. واهتم في التعريف به بذكر اسمه ونسبه، كما سمع منه وكما قرأ عنه، ثم يذكر منشأه فيقول عنه إنه من مُرسية، نشأ بها وتولّى القضاء فيها وتجول ببلاد الأندلس، ثم انتقل إلى بجاية، ثم إلى تونس واستقر بها.

تقرأُ هذه الترجمة فتعرف عن صاحبها علمه، وأخلاقه وشيوخه، وتلاميذه ومجالسه، والكتب التي درسها على شيوخه ودرسها لتلاميذه. ويعرف الرحالة، في إيجاز، بهؤلاء الشيوخ ومنزلتهم في العلم. ويعنى بالأخص بشعر المترجم له، يرويه كما يروي كثيرا من القصائد والمقطعات والأبيات التي رويت للمترجم له، أو أنشدت بمجالسه. وهذا الأُسلوب الاستطرادي الأدبي ينهج فيه نهج الأمالي، ويعنى فيه بالأخص بالشعر المعاصر له. وبذلك جاءت هذه التراجم ديواناً حافلا، لا أظن أن مؤرخي هذا العصر يستغنون عنه في دراستهم للحياة الأَدبية. وما من شك في أن رحلة ابن رُشَيد ستكون المصدر الأهم ـ وربما الأوحد ـ لهذه النصوص الأدبية.

رغم هذا الاستطراد، الذي لا يكاد يخرج فيه المؤلف عن التعريف بعلم المترجم له وثقافته الأدبية، فإن منهجه يخضع لكثير من الضبط. فبعد أن يحدثنا عن نسب المترجم وأصله، يلخص في عبارات دقيقة جماع شخصيته العلمية والأدبية، وفي ذلك نتعرف على الرجل قبل أن يدخل في تفاصيل صلته به وكتبه وشيوخه وأشعاره.

والمثال من ترجمة ابن حبيش : قال عنه بعد أن تحدث عن نسبه وموطنه : «وكان متفنناً في العلوم، منصفاً فيما يَعِن من الفهوم، متقدم القدم في صناعة البيان، متمكن

اليد من ناصية الإبداع والإحسان، تلج دُررُ كلمه أصداف الآذان بغير استئذان، فريدٌ في دهره، أميرٌ في نظمه ونثره. أما النظم فبيده عِنانه. وأما النثر فإن مال إليه توكف له عَنانه، مع تواضع زائد، على صلة مجده عائد».

هذه الفقرة تكاد تختص كل جملة منها بمعنى، فترسم بذلك صورة متكاملة عن شخصية الرجل العلمية والأدبية والخلقية والمجدية. ورغم ما يبدو فيها من سجع غير نافر ولا متكلف، فإنها دقيقة في التعبير والتعريف.

ولا يكاد الكاتب يلتزم هذا السجع، فإن أسلوبه سلس مترسل مركز، ينتقل بسرعة من موضوع إلى موضوع. ولذلك فالتراجم الحافل بها مركزة هادفة.

منهجية الرحالة في كتابة هذه التراجم، أنه خص كل جزء تقريباً ببلد. فالجزء الثاني مثلاً خاص بتونس عند زيارته لها في طريقه إلى الحج. والجزء الثالث عن الأسكندرية والقاهرة، والخامس خصصه للحرمين الشريفين. والسادس خصصه للعودة من الأسكندرية إلى تونس عن طريق طرابلس والمهدية، ويترجم فيه لكثير من الأعلام، حتى الذين لقيهم في المركبة التي أقلته من الأسكندرية إلى طرابلس. ويعود إلى تونس فيترجم لمن لقيهم من جديد. والسابع خصصه للعودة من تونس إلى سبتة عن طريق عنّابة ومالقة ورنْدة والجزيرة الخضراء. وبذلك تستطيع عند الإلمام بكل هذه التراجم، أن تتعرف على الحياة العلمية والأدبية المعاصرة في القطر بخاصة، ثم في الوطن العربي الذي زاره بعامة.وتستطيع بسهولة أن تستخلص من كل ذلك ثقافة العصر ومستوى الإبداع الأدبي، كما تستطيع أن تتعرف على الصلات بين الأندلس والمغرب وتونس ـ مثلا ـ من خلال الرجال الذين تنقلوا بين هذه الأقطار. كما تستطيع أن تتعرف على اهتمامات العلماء في كل قطر منها. بعضهم يغلب عليه الحديث وبعضهم الفقه، وآخرون الأدب. وتستطيع إلى جانب ذلك كله أن توازن بين

مستويات التفكير والرواية، ومستويات الإبداع الشعري على الأخص، بين هذا القطر وذاك ممن تناولهم الرحالة في كتاب «ملء العيبة».

مقارنة جزئية بين تونس ومصر، نأخذ فيها مثالاً من مصر وآخر من تونس، لنؤكد أن المقارنة بين العلماء والمثقفين عموماً، قد تسفر عن رؤية واضحة عن الاتجاهات العلمية والأدبية ومستواها واتفاقها أو اختلافها بين مختلف الأقطار العربية، في عصر لم تكن فيه المطبعة ولا المواصلات، مما يؤكد وحدة الثقافة وتقارب المستوى.

نأخذ من مصر الأسكندرية، ضياء الدين أبا الحسن علي الخزرجي، وهو غرناطي، انتقل في شبابه إلى مصر، مما يزيد في تأكيد هذه الوحدة الثقافية من خلال رجال العلم والأدب. وثقافته، كما يؤكد ابن رُشيد، مشتركة، حديثاً وروايةً ولغة وأدباً.

يهمنا من أدبه شعره الذي روى منه ابن رشيد قصيدتين ومقطعات. مضمون هذا الشعر يكاد ينحصر في التوجيه الديني والخلقي والتفكير في قيم الحياة. وقد يكون هذا الاتجاه جاء في آخر حياة الشاعر، فقد التقى به ابن رشيد وقد بلغ الخامسة والتسعين من عمره. وكف بصره أو ضعف، ولكنه كان ما يزال في وعيه الكامل وسلامة ذاكرته.

أما أسلوب شعره فيمتاز بالجزالة والتمكن من اللغة، والانسياب والدقة في التعبير عن المضمون.

يتحدث عن الدنيا فيقول :

فأي عيش بها ما شابه غير	وأي صفو تناهى لم يصر كدرا
كم سالم أسلمته للردى فقضى	حتفاً ولم يقض من لذاتها وطْرا
ومترف قلبت ظهر المجن له	ـ فعاد بعد علو القدر محتقَرا

طوبى لمن جال في فكره فنأى عما تغيب يوماً منه أو حضرا
وقام في حندس الظلماء مجتهدا يردد الذكر والآيات والسُّوَرا
حتى إذا الليل ولى منه أكثره وراقب الوقت لما قارب السحرا
أهدت له نسمات اللطف ساعة هل من سائلٍ قد دعا مولاه واعتذرا ؟

وفي قصيدة يعارض فيها «بانت سعاد» لكعب بن زهير يمدح فيها النبي ﷺ، يقول في مقدمتها :

سيان عندي ان بانت وان وصلت فوصلها بنصال الصد مفصول
ما إن يدوم لها عهد وإن غدرت فهو الوفاء وعهد الغيد ممطول
فاعجب لمن بالغواني قد غدا كَلِفا وعقدهن، وإن آلين، محلول

ونجد في الخاتمة هذه الأبيات يخطاب سامعي القصيدة :

يا سامعيها سَلوا عن كل واقعة منها، فربَّ سؤالٍ فيه تحصيل
وأخلصوا دعوة منكم لناظمها فعزمه بحلول الشيب محلول
وحين عاين شمس العمر قد جنحت إلى الغروب شدا والقلب متبول

أنت ترى أن الشاعر يجيد في أسلوبه الرائق السلس، رغم ولعه بالجناس وتقابل الألفاظ وتداعيها. ولكنك لا تكاد تشعر بتكلف أو تمحل في التعبير عن المضمون الذي هدف إليه الشاعر مهما يكن مضموناً عادياً مكرورا.

ويخيل إلي أن الشاعر الخفاجي ظل متأثراً بالأندلس يعيش ـ أدبياً ـ على ذكريات الشعر الغرناطي الرائق.

أما مثال تونس فنأخذه من ابن حبيش (ج 2 ص 83 ـ 126). عالم مشارك فقيه، وأديب محاضر شاعر، وكاتب أندلسي الأصل من مرسية. نشأ بها وولي القضاء، ثم تجول في الأندلس، وانتقل إلى بجاية، واستقر في الأندلس. لخص ابنِ رشيد خصائصه الفكرية والأدبية في هذه الفقرة الدقيقة التي نقلناها آنفاً. ويزيد في التعريف به هذه العبارة أكثر دقة: «وكان شيخنا أبو بكر جيد الفكر، حاضر الذكر، وكان أيام طلبه مصروف العناية إلى الدراية، ولكن مع ذلك لم يخل من السماع والرواية. ولو تشاغل بالرواية لا اتسع له المجال، فإنه لقي أعلاماً من الرجال».

ويتحدث المؤلف عن شيوخ ابن حبيش، ويعرف بهم في فقرات قصار، كما يتحدث عن الكتب التي درسها وسمعها من أساتذته وشيوخه، والكتب التي درسها تؤكد سعة الأُفق الثقافي والمشاركة العلمية للمترجم. فهم علماء وأدباء ونحويون ولغويون، وهي كتب علم وأدب وفقه ونحو ولغة.

ورغم أن ابن حبيش التزم في آخر حياته الا ينظم شعراً إلا في توحيد الباري ومدح الرسول وآل بيته، إلا أن ما روى له ابن رشيد من شعر في غير هذه الموضوعات، يؤكد قوة عارضته، وصدق موهبته، وسعة اطلاعه، وجمال قصيده.

وقد روى مقطعات من قصائده تؤكد هذا. منها هذه التي نختارها لتقدم لنا صورة عن شعر هذا العصر :

وأحورَ وسنان الجفون سقيمها	مهفهف أثناء الوشاح هضيمها
من الإنس لم يدر الفلاة، وقد سبى	لحاظاً وجيدا من مهاها وريمها
ضرعتُ إليه في الوصول فردني	مردُ مليء بالحجاج عليمها

وهذه أبيات أخرى :

نفسي فداك أما ترى صوب الحيا قد رام أن يحكي تميم نداكا

والجو منسكب الدموع كأنه يهواك أو يرثي لمن يهواكا

واليوم منهزم كأن ذماءه صبري وقد عنت له عيناكا

والليل يبدي ظلمة في وحشة كفؤاد صبك أو كيوم نواكا

وهذه قطعة وصفية رائعة :

أنعم بيوم له في الحسن آثار تقضى به لك آمال وأوطار

وجه الزمان ـ وقد راقت محاسنه ـ له سفور وللإصباح إسفار

والأرض في بركات منكم، فبها في الليل والمحل أنوار ونوار

والروض يهدي نسيماً ليس يشبهه في الطيب إلا ثناء منك معطار

والطير يفتن في الفتان من نغم تفسيرها لك إجلال وإكبار

والشرق ذو شفق في البحر مؤتلق كأنما الماء شبت فوقه النار

والشمس تطلع كالدينار أخلص من محض النضار فهامت فيه نظار

تبدو مع الماء طوراً ثم يرفعها أوج ويدفعها موج وتيار

ما كان للبحر إذا حاكى يديك ندى أن يمسك الشمس فيه وهي دينار

من هذه النماذج ندرك قيمة شعر هذا الشاعر الفذ، وتمكنه من لغته ومعانيه. وشعره ينقلنا بسهولة إلى الأندلس في عز مجدها الأدبي. وتؤكد هذه النماذج تفوق شعراء تونس آنذاك، وأغلبهم من أصل أندلسي، على شعراء المشرق العربي آنذاك، ويمثلهم

بالأخص ـ حسب ما بين أيدينا من أجزاء الكتاب ـ شعراء مصر القاهرة والأسكندرية.

ولابن رشيد منهج علمي في كتابة هذه التراجم ـ التي هي أشبه بمذكرات علمية يعتمد فيها على مجهوده الخاص ـ الاتصال والرواية المباشرة والسماع ـ أكثر مما يعتمد على الكتب ورواية الآخرين.

المنهج العلمي يتمثل في :

ـ التعريف بالشخصية تعريفاً دقيقاً : المولد والنشأة والأصل والتدقيق في التاريخ. ثم الوصف المادي والخلقي. ومثال التدقيق في تاريخ المترجم له قوله : سألت الشيخ ضياء الدين الخزرجي عن مولده، فقال : «سني خمس وتسعون سنة. فعلى هذا يكون في حدود التسعين وخمس المائة». ويدقق في تاريخ مقالبته للشيخ فيقول : «وذلك في الثامن من جمادى الأخيرة سنة أربع وثمانين وستمائة».

وفي ترجمته للشيخ جمال الدين العطار (ج 3 ص 299) : «قراءة عليه بلفظي في جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه بفسطاط مصر في صبيحة يوم الجمعة التاسع عشر لرجب عام أربعة وثمانين وستمائة. وهو أول حديث سمعته عنه...».

ومثل هذه الدقة نجدها في ترجمته لأبي الفضل الدميري حيث يقول : «ومما سمعته عليه جزء من حديث أبي الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي الفقيه ـ وذلك في اثر صلاة الجمعة في السادس والعشرين لرجب عام أربعة وثمانين وستمائة بفسطاط مصر، بزاوية الإمام الشافعى من مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه ـ قلت له، أخبركم أبو الفضل مكرم

بن محمد بن حمزة بن أبي الصقر القرشي ـ قراءة عليه وأنتم تسمعون، في رابع ذي الحجة سنة خمس وعشرين وستمائة بجامع السراجين من القاهرة المعزية».

فأنت ترى أنه يدقق في الساعة واليوم والتاريخ والمكان والجزء من المكان والقطر. وهي دقة لا نكاد نجدها إلا عند بعض المحققين من رواة الحديث أو عند الباحثين من رجال العلم المحدثين.

ـ التعريف بعلم المترجم له. ويتبديء بعلوم الحديث والرواية مثلا، إن كان المترجم من رجال الدين وعلم الحديث. وفي هذا الجزء يتحدث عن شيوخه الذين روى عنهم ودرس في مجالسهم. ولا يغفل، وهو يتحدث عن صلة المترجم بشيوخه، ذكر تاريخ هذا الاتصال ـ وهي دقة وضبط قلما تجدهما عند الأقدمين ـ مما يساعد على التثبت في ضبط التطور الثقافي من خلال ضبط تاريخ الاتصال بين العلماء وتاريخ رواية الشعر عن الشاعر نفسه مثلا، وتاريخ وجود الكتب التي سمعها الراوي عن المروي عنه. وقد يكون بعضها قد ضاع الآن، ولكنا نتعرف على وجودها في عهد ابن رشيد أو في عهد الشخصية التي يترجم لها. ثم يروى عنه ما أنشده من شعره فيكتبه رواية عن الشاعر نفسه. وتبلغ به الدقة أحياناً في الرواية فيقول مثلاً : «أنشدنا شيخنا ضياء الدين هذا ـ الخزرجي ـ قصائد من قيله، وأمر أن يكتب لنا بعض شعره ودفعه إلينا.. فما قرىء لي عليه، وأنا أسمع : (ج 3. ص 46) «الشيخ الخزرجي كان قد نيف على الخامسة والتسعين، وكف بصره». ولذلك تجد الكاتب يدقق في طريقة الرواية، وفي كل كلمة يقولها : أمر أن يكتب لنا. ودفعه إلينا... قرىء لي عليه وأنا أسمع.

ـ من باب الدقة في منهجه العلمي نجده ينسب كل عالم إلى بلده الأصلي ويذكر التاريخ الذي هاجر فيه، هو أو جده ليلتحق بالقطر الذي التقى به فيه. فهذا أبو بكر القسطلاني الذي لقيه وصحبه وروى عنه في القاهرة، ينسبه إلى قسطيلية من

بلاد الجريد. وأصل آبائه منها. ويسأله في ذلك فيملي عليه : «جدي أمين الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الحسن، خرج من توزر وجاء إلى مصر بكتاب من عمه الشيخ الصالح أبي بكر بن الحسن..» (ج 3. ص 415). وعن الخزرجي يقول : «مولده ببيغو (مدينة بالأندلس من عمل غرناطة)، رحل عن الأندلس قديما واستقر أخيرا بالأسكندرية» (ج 3، ص 43).ويقول في ترجمة أبي محمد الخلاسي : «وممن لقيته بتونس حماها الله، الشيخ الصالح الصوفي الزاهد الفاضل أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى الخلاسي.. ثم رحل وحج ونزل تونس». (ج 2. ص 321). وعن الأشعري يتحدث فيقول : «الأديب الأبرع أبو العباس أحمد بن محمد بن ميمون الأشعري المالقي. انتقل منها صغيراً. أظنه ابن اثنتي عشرة سنة مع أبيه رحمه الله. فنزل تونس وبها قرأ وتعلم..» (ج 2، ص 409).

وهكذا يستطيع مؤرخ الثقافة العربية أن يتعرف على هذه الموجات العلمية التي جعلت المغربي أو الأندلسي مثلاً ينتقل إلى تونس أو مصر، والتونسي ينتقل إلى تونس أو مصر، والتونسي ينتقل إلى مكة أو المدينة أو الشام. وعن طريق هذه المعرفة الدقيقة نتفهم جيدا مسار الثقافة العربية الإسلامية ووحدتها، كما نتفهم جيدا الهجرات الكثيرة سواء فراراً من احتلال الأندلس مثلا، أو طلباً للمعرفة في البيئات التي كانت الثقافة فيها مزدهرة.

- ويدخل في منهجه العلمي أسلوب المحاضرة أو الامالي. ورغم أنه يستطرد، ويطيل أحياناً في الاستطراد، إلا أن ما يستطرد فيه يتصل بالموضوع الأصيل الذي يتحدث عنه. في ترجمته لأبي بكر ابن حبيش مثلا، يورد طريفة من طرائف المساجلة الشعرية. فقد روى أن ابن حبيش امتنع عن قول الشعر في غير توحيد الباري أو مدح نبيه وأهل بيته. ولكن حينما يخاطبه أحد رواده شعرا يجيب عنه تلميذه الخاص أبو محمد عبد الواحد بن محمد بن مبارك. وفي ذلك يورد ابن رشيد قصيدة له بعث بها إلى

ابن حبيش «أستدعي أنسه، وأحرك الكريمة النفيسة نفسه، وأشكر لقاءه وبره واحتفاءه» ومطلعها :

وصلتَ أبا بكر، غريباً لتونسا فاقررت عيناً بالقدوم لتونسا

فأجابه ابن مبارك على لسان شيخه :

وردت فأوردت المنى ما تبجسا لديك من الفضل الذي جل مونسا

وكتب إليه الوزير أبو عبد الله بن الحكيم قصيدة يتطلع فيها إلى زيارته مطلعها :

ما للغريب إذا تذكر آله وبلاده، لم يستطب أحواله
وإذا تنسم نفحة من أرضه أضحى يردد للجوى أعواله
وغدا يسح مدامعا ينسيك من وبل السحاب بسكبها هطّالة

فأجابه ابن مبارك تلميذ الشيخ بقصيدة طويلة مطلعها :

ألف السقام فما يريد زواله ولهانٌ ينعم إذا تعذب بالَه
دنف أطاع من الصبابة أمرها أتراه لا يعصي إذن عذّاله
نادته منك لواحظ منهوكة نهكته حتى ما تبين خياله

هذا النوع من الاستطراد كان معروفاً عند مؤلفي ذلك العصر، ولكنه لا يبعد بابن رشيد عن منهجه العلمي الدقيق. إذ أنه يريد أن يؤكد به ظاهرة انصراف ابن حبيش

عن نظم الشعر في غير ما التزم به، ولكنه ينتدب لذلك تلميذاً له يرضيه أن يجيب قصاده من الشعراء بشعر جيد.

ـ الفكرة المعلمية في الكتاب جعلته غزير الفائدة، حافلا بالمعلومات التي تعتبر شهادة معاصرة، مما يكسبها قيمتها العلمية. والمعلومات التي تحفل بها هذه الرحلة تتناول الحياة العلمية في الوطن العربي جميعه من الأندلس حتى بلاد الحرمين. ولا تكاد توجد ترجمة لعلم من الأعلام الذين اتصل بهم إلا تحدث فيها عن شيوخه تعريفاً بهم، وعن الكتب التي درسها تقويماً وتعريفاً وتأريخاً، وعن الكتب التي ألفها. وقد تكون بعض هذه الكتب قد ضاعت، ويبقى التعرف عليها في مصادر قليلة في مقدمتها وأصحها ـ لأنها شهادة معاصر كما قلنا ـ رحلة ابن رشيد.

ولنأخذ كمثال، ترجمته لأبي جعفر اللَّبلي (ج 2، ص 250)، يتحدث عن الاتصال به في تونس في أسطر قليلة، ولكنه يخصص الترجمة الطويلة لمعلومات فريدة يبدأها بمن سمع منهم في بلاد الأندلس، وفي سبتة، ثم ببجاية وتونس والأسكندرية والقاهرة ودمشق، ويعرف بهؤلاء الأعلام الذين لقيهم اللبلي. بعد ذلك يتحدث عن كتبه، ما صنف منها بالمغرب وما كتبه بالمشرق زيادة في الدقة والضبط. وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الكتب التي رواها، يعرف بهذه الكتب ومؤلفيها، ومن رواها عنهم اللبلي وقرأها عليهم، كتب أدب ولغة ونحو وحديث وقراءات وفقه. ومن الكتب التي قرأها اللبلي على شيوخه ندرك الأفق الثقافي الذي عرفه الوطن العربي في القرن السادس والسابع، والمتعة العلمية التي كان يجدها العلماء وهم ينتقلون راحلين بين المحيط والخليج، يبحثون عن العلماء أينما وجدوهم، يستمعون منهم، ويدرسون عليهم الكتب، ويسجلون إملاءاتهم، ويناقشونهم قضايا العلم والأدب، يقولون الشعر ويروون عنهم شعرهم وشعر غيرهم.

ورحلة ابن رشيد من الكتب النادرة التي تقدم لنا هذا النموذج من المعرفة. ولذلك تعتبر مصدراً مهماً لتاريخ الثقافة العربية والإسلامية في العصر الوسيط.

بقي أن أشير إلى الجهد الذي بذله العلامة الدكتور الحبيب ابن الخوجة في إخراج الرحلة إخراجاً علمياً. وهو جهد يتحدث عنه الكتاب نفسه. ولكن الإشارة إليه تزيد في التعريف بهذا التراث العلمي الذي بذل فيه المحقق فوق ما بذل المؤلف من جهد. فقد نهج ابن الخوجة نهجاً علمياً في البحث عن مخطوطات الكتاب، حتى وقع على جزء من المخطوطة الأصل التي هي مسودة المؤلف. وعانى في النسخة خلطاً ليس غريباً في كتاب كتب منذ نحو سبعة قرون، فقد أدرجت في بعض الأجزاء أوراق أجنبية ليست من الرحلة، وسقط منها أوراق كان من الضروري أن يبحث عنها في مخطوطات أخرى. وكان على المحقق أن يقارن بين الخطوط التي كتبت بها النسخة التي اعتمد عليها، وكتب جزء منها بخط المؤلف، ولكنه يختلف قليلا أو كثيراً عما عرفه من خط المؤلف.

لم يصل المحقق لهذه النسخة إلا بعد معاناة. فقد بحث عن الكتاب في فاس ومراكش، وعن بعض الأجزاء منه في الأسكندرية والقاهرة والحرمين الشريفين. وانتهى به التطواف - بعد الأستانة والمكتبات الكبرى في أوربا - إلى الإسكوريال، حيث وجد أجزاء أو قطعاً متفرقة على الرفوف، غير مرتبة، وتحمل أرقاماً مختلفة، وفيها الأجزاء الثاني والثالث والخامس والسادس والسابع. وقد تأكد للمؤلف أن النسخة مغربية، كانت لدى المؤلف في سبتة وفاس مسودة بخطه. ما عدا الجزء الثالث فهو بخط غيره. والنسخة على ذلك مبتورة من أولها ووسطها. إذ ينقصها الجزء الأول، وهو الذي يتحدث فيه عن بداية رحلته من سبتة إلى بجاية، والرابع وهو الذي يتحدث فيه عن رحلته من مصر إلى بلاد الشام، بما فيها دمشق والقدس والخليل ونابلس.

وقد بذل المحقق مجهوداً كبيراً في ضبط الأعلام والتعريف بها والتعليق على كتب هؤلاء الأعلام مع ذكر المصادر التي اعتمد عليها، مما ضاعف من حجم الكتاب وأكمل معلوماته. وأنهى الجزئين اللذين صدرا حتى الآن (الثاني والثالث) بمجموعة من الفهارس العلمية للألقاب والبحوث التي اشتهر بها العلماء، وللأعلام التي وردت في كل جزء من الكتاب، وللأماكن والبلدان، وللكتب التي أشير إليها في النص، وللآيات والأحاديث والآثار والأشعار التي وردت في النص، وللتراجم التي تضمنها الكتاب.

وبذلك تكون رحلة ابن رشيد مطبوعة طبعاً علمياً وفر لها المحقق كل ما يملك من جهد مشكور. نرجو له كامل التوفيق وصبر أيوب مع المطبعة حتى ينهي هذا العمل الجليل الذي بذل فيه - إلى جانب جهوده العلمية الأخرى - جهد العلماء وصبر الباحثين وتفاني المخلصين. ولعل أكبر جزاء لهذا الجهد العلمي أنه قدم عملا كبيراً لتاريخ الثقافة والفكر في الوطن العربي مما لا يوفيه حقه أي جزاء.

القانون الوضعي

كونستنتان تساتسوس

القيم المطلقة أساس الفكر الإنساني، وهي في تصورها العملي واجبات مطلقة كالعدالة والقوانين الخلقية... لكن هذه القيم تصبح نسبية عندما نضعها في مجال التنفيذ.

لا شك أن القيمة الإنسانية العليا هي الحرية، والحرية حرية ذاتية تتعلق بالأخلاق، وحرية اجتماعية تتعلق بالعدالة. لكن إلى جانب هذه المطلقات، فإن الإنسان والتاريخ ينتميان إلى عالم الواقع الملموس، وهو نسبي، يتصارع مع الواجبات المطلقة، إلى أن يدخل بين الجانبين عاملٌ «تنظيمي»، ذو قوة ضرورية كافية، ليفرض عليهما التساكن والتوافق. وعندئذ تتحول الحرية من الطور المطلق إلى الطور النسبي، لتستجيب لشروط الواقع، وتلبس لباس القانون، وذلك بخضوعها لظروف الزمان والمكان، واعتمادها القوة والقهر الجسدي لتعلّقها بمجتمع إنساني تتجاذبه النزعات والأطماع.

فاعتماد القهر يتنافى مع القيم المطلقة، والتعلق بمجتمع متعدد الأهواء يقتضي وضع قواعد عامة صياغةً وتنفيذاً.

أما العدالة، وقد انتقلت من المُطلَق النظري إلى النسبي الواقعي، فإن نزعات الحاكمين، وإجراءات الأمن التي يعوِّلون عليها، وإخضاع الناس جميعاً، ـ باختلاف أحوالهم وقضاياهم ـ لقواعد عامة مُطلَقة، كل ذلك يحُدّ من مفهوم العدالة.

لكن لا مناص لتحقيق العدالة من تلك القواعد الموضوعة، والإجراءات الأمنية الزجرية، والسلطة ذات القوة الرادعة والنفوذ السياسي.

فالقانون الوضعي مجموعة قواعد تضعها السلطة، وتدوم ما دامت متوفرة لها أسباب التنفيذ، وما دامت مناسبة في مجملها. فبطلان إحدى القواعد لا يؤدي إلى بطلان الكل. والقانون الوضعي ليس هو القانون الطبيعي. القانون الطبيعي قواعد خلقية، يعمل الناس بمقتضاها في مجتمع مثالي لا يحتاج إلى سلطة تنظيمية. والقانون الوضعي يميز بين الشيء العادل والشيء القانوني : فالأول قابل للتعدّد : العادل وغير العادل، وهما يختلفان باختلاف الناس. والثاني واحد لا يتعدّد لأنه من صميم القانون الوضعي.

مفهوم الجدل في تقاليد الفكر المغربي

محمد علال سيناصر

بعد التذكير بشخصية الشيخ عبد القادر الفاسي، انطلاقاً من الكتاب الذي نشره جاك بيرك تحت عنوان : «العلماء المؤسسون»، يعالج العرض القصير المقدم، بعد الترجمة الفرنسية لرسالة الشيخ المذكور، ـ في الجدل ـ منزلة هذا العالم في تاريخ الفكر المغربي.

أكبر الظن أن الشيخ عبد القادر الفاسي يشكل منعرجا في تقاليد التفكير المغربي التي ربما عكست محاولة صحوة شاملة. يتناول العرض تحليل الرسالة نفسها، بناءها، تحديد الجدل فيها، طبيعته وعلاقته بالممارسات المنطقية. لكن التحليل يقتصر على مفهومي الدليل وفساد الاعتبار ـ الدليل طبعاً بالمعنى المتفق عليه عند علماء الشريعة، وفساد الاعتبار كما تؤديه نظرية الاستدلال في مفهوم الأُصوليين ـ. يتجلى عبر هذا التحليل أن للمفاهيم الأُصولية ما يناظرها في اهتمامات المنطق الرياضي المعاصر، والمناقشات التي أثارها حول بعض القضايا العصرية المهمة كتحديد «الحقيقة» مثلاً لا حصراً.

تاريخ الهيموكَلوبين «س» وجغرافيتها

جان برنارد

أصبح المتخصصون في الهيموكَلوبين (هـ ب) يعنون بالتاريخ والجغرافية كعنايتهم بالكيميا العضوية وعلم الوراثة. ذلك لأن أصناف الهيموكَلوبين (المشار إليها بالحروف الأبجدية) تختلف باختلاف تركيبها الكيماوي، وبعضها يخصّ مناطق وأجناساً معينة، ويحمل أمراضاً معروفة.

فبغض النظر عن الهيموكَلوبين الطبيعية، وهي الهيموكَلوبين أ (هـ ب أ) ـ الموجودة في دم أكثر الناس إلى جانب الكريات الحمر الأسطوانية الشكل ـ فإن الهيموكَلوبين س (هـ ب س)، موضوع هذا البحث، تخص بعض زنج إفريقيا وتؤثر في شكل الكريات الحمر فتصير منجلية الشكل، وتصبح الكريات هشة معرضة للانحلال، والإنسان صاحب هذه الهيموكَلوبين يصاب بفاقة الدم، وهو مرض خطير يؤذي بحياة الآلاف من الأطفال. وإذا كان هذا شأن الهيموكَلوبين س في افريقيا وغيرها ـ كما سنرى ـ فإن الهيموكَلوبين E تستأثر ببعض مناطق آسية كالڤيتنام والكمبودج وماليزيا والتايلند.

أما من حيث الوراثة، فإن الهيموكَلوبين س تنتقل من الأبوين إلى الأولاد وفق قوانين «مندل» الوراثية. فالإنسان السليم يحمل في دمه مورثتين (جينَيْن) هـ ب أ. ويُدْعى متجانس الزّيج (هـ ب أ/هـ ب أ). أما الأسر التي في دمها الهيموكَلوبين س

(هـ ب س) فإنها تتركب من أفراد مُتَجَانِسِي الزيج (هـ ب أ / هـ ب أ)، وآخرين متبايني الزيج (هـ ب أ/هـ ب س). فالمتباينو الزيج ورثوا من أحد الأبوين الهيموكَلوبين الطبيعية أ، ومن الآخر الهيموكَلوبين المَرَضية س، فدمهم يشتمل على الصنفين.

أما المتجانسو الزيج (هـ ب س/هـ ب س) فهم يحملون الهميوكَلوبين الشّاذة وحدها. ويورث الأفراد المتباينو الزيج أولادهم داء فاقة الدم ذات الكريات الحمر المنجلية، ولا يعتريهم مع ذلك أي عَرَض من أعراض المرض، فهم وسطاء. أما المتجانسو الزيج (هـ ب س/هـ ب س) فهم مَرْضَى، تظهر فيهم أعراض المرض ومضاعفاته فيموت أكثرهم.

ومن حيث الجغرافية، فإن الهيموكَلوبين س توجد في أفريقيا، لا سيما في المناطق الاستوائية في رقعة محدودة معروفة. وتوجد أيضا في الأمريكتين وفي بعض مناطق أوروبا (صقلية واليونان وتركيا) وجنوب الهند. وربما كانت تجارة الرقيق سبب نُزوح الهيموكَلوبين س من إفريقيا إلى أمريكا، ولعل وجودها في اليونان راجع إلى اشتمال الجيوش اليونانية قديماً على جنود أفارقة. أما وجود الهيموكَلوبين س في الهند فقد فسّر بتفاسير مختلفة، منها أن الإنسان ذا الهيموكَلوبين س، انطلق في عصور ما قبل التاريخ من بؤرة أصيلة في اليمن، ونزح إلى الهند شرقاً وإلى إفريقيا غرباً.

إن جغرافية الهيموكَلوبين س وجغرافية البُرَدَاء متشابهتان. ففي بعض واحات جزيرة العرب، يواكب عدد المصابين بالبُرَدَاء عدد الأفراد ذوي الهيموكَلوبين س. لقد ظهرت البُرَدَاء منذ عشرات الآلاف من السنين، وهي من أقدم أمراض الإنسان. وأول ما ظهرت، كان سببها طُفَيليٌّ من نوع «ڤيڤاكس»، ثم اعترى هذا الطفيلي طفور، فأصبح من نوع «فالسيپاروم»، وهي جرثومة أكثر فتكاً بحاملها. وفي الوقت نفسه، تغيرت الهيموكَلوبين فأصبحت من صنف س لتتقوى بذلك المناعة حيال جرثومة البُرَدَاء، لذلك نرى أن المصابين بالبُرَدَاء ذوي الهيموكَلوبين س أقوى وأمنع من غيرهم.

الإبداع التقنولوجي والقيم الإنسانية

المهدي المنجرة

كل إبداع يقطع الصلة بما هو موجود. فهو يراجع ما هو قديم، أو يبني ما هو جديد كل الجدة.ولا أحد يشك في تأثير الإبداع التقنولوجي على القيم الإنسانية، إنما هناك خلاف في تقييم هذا التأثير، فمن قائل بوجود تأثير بالتغيير، تتأثر فيه القيم، وتؤثر هي بدورها على الإبداع، ومن قائل بأن التأثير ليس بالتغيير، إنما هو بإنتاج أعراض وحسب.

التناقض بين الإبداع التقنولوجي والقيم يكمن في أن الإبداع تغيير كما أسلفنا، وأن القيم محافظة على أنماط اجتماعية وسلوكية، وهي تعتمد أساساً على أنماط تربوية معروفة متكررة.

إن الأنماط التربوية المعاصرة لا تساعد على الإبداع. ولا بدّ لها من قبول عنصري الاستشراف والمشاركة. وقد كان هذا هو مجال الاجتهاد في الإسلام، قبل أن يتفشى عصر التقليد.

كان العلم أب التقنولوجيا ومصدرهـا. وأصبحت التقنولوجيـات اليوم تتوالـد فيما بينهـا بدون الرجوع إلى العلم. ولا بدّ للتقنولوجيـات من التخلي عن هـذا الاستقلال، ولا بـدّ للعلم أيضاً من الانفتاح على مشكلات المجتمع وهمومه.

إن مسيرة الإبـداع في المجـال الاجتماعي والثقـافي لا توازي مسيرة الإبـداع التقنولوجي. والمشكلـة ليست في الإبـداع التقنولـوجي، إنهـا في القيم.. إنهـا في معرفـة عـدد سكان المعمورة الذين يستفيدون من هذا الإبداع في كفاحهم اليومي من أجل الحياة.

القسم الثاني

وقائع الأَكاديمية

من خطب استقبال السادة الأعضاء الجدد

استقبلت أكاديمية المملكة المغربية السيد أحمد صدقي الدجاني، من فلسطين، عضواً من أعضائها. ورحب به السيد الحاج مَحمد باحنيني عضو الأكاديمية، في الخطاب المنشور أسفله، وأجاب السيد أحمد صدقي الدجاني، بخطاب الشكر، وفق ماتقتضيه الأعراف. وستنشر المجلة خطب استقبال الأعضاء الجدد في الأعداد القادمة إن شاء الله.

خطاب السيد الحاج مَحمد باحنيني

أيها الإخوة

تستقبل أكاديميتنا اليوم بكثير من المسرة وكثير من المودة، وكثير من الاعتزاز والتقدير عضواً ينتمي إلى أرض تعتلق بعقيدتنا وإيماننا اعتلاق استحصاد واستحكام، وينتسب إلى شعب يتبوأ من قرارة نفوسنا وسويداء قلوبنا أكرم متبوإ وأعز مقام. وهذه التحية التي نستقبل بها الوافد الشقيق، والصاحب الموافق، والصديق الصادق، والعالم الأديب الدكتور أحمد صدقي الدجاني، إن اتجه قصدها إلى أرضه، وانتحت شاخصة نحو شخصه، في كلمة واصلة لا يختلف فيها الفرع عن الدوحة، ولا ينفصل المولود عن مسقط الرأس، ومعق التميمة، إن هي إلاّ تحية يؤمل من ورائها أن تلم بعض الإلمام، بالمكسب الذي هيأه القدر لهذه الأكاديمية، وبالثراء الوارد عليها بانضمام ألمعي من أبناء فلسطين، إلى زمرة من سلكهم التشريف في نظام هذه المؤسسة وإن نفاسة هذا المكسب إن كانت راجعة إلى موطن انتساب العضو الجديد، فإنها راجعة

من جهة أُخرى، إلى أن الأخ المحتفى به، ينتمي إلى وطن فسيح جامع لاتحده الحدود، ذلك هو وطن المفكرين والباحثين الذين يسددون النظر ويصوبون التفكير إلى قضايا متعددة تستأثر بالاهتمام، وتتحلق حولها العقول والأفهام، ثم لايقفون عند تسليط النظر وإعمال الفكر، وإنما يتبعون الاستقصاء والتحليل، والتحقيق والتدقيق، بإفراغ عصارة الفكر، وثمرة الاستنباط، وصوب الإحساس، وفيض الوجدان، في القوالب التي يهفو إليها عشاق القراءة، ويشتد نحوها طلب المنتجعين لأفانين الثقافة.

إن وطنك أيها الأخ العزيز، ليكابد منذ أمد طويل، بما أناخ عليه من احتلال وانقض عليه من استعمار، ألوانا من المحن وضروباً من البطش وأصنافاً من الغطرسة والاستبداد، وإن آثار التصرف الغاشم، والتعسف العارم، والعدوان الآثم، لتستبين صارخة فيما ينوب شعب فلسطين من نوائب وأرزاء، ويحل به من مكاره، وينزل بساحته من خطوب. لقد سار فيه الاستعمار الصهيوني سيرة الفاتح الجبار العنيد، وعاث فيه بالتشريد والتقتيل، والتنكيل والتخريب، واستعان على محاولة إخضاعه بفادح العدة والعتاد، وبأخس الخلائق والنحائز، وأرذل الطبائع والغرائز. وطفق يداول بين أساليب المكر والخداع والقمع والاضطهاد، ثم اشرأبت مطامعه إلى إحكام الاغتصاب وإتمام السطو والاستلاب،فقاده الصلف والكبرياء إلى نهج سبيل القانون الذي لايستند إلا إلى الاشتطاط السافر، والتحكم الجائر، وهو في هذا كله لا يكترث لما يوغر الصدور، ويشيع الإحن، وتجيش به الضمائر.

وهذه الشناعة الممتدة الأطناب لا بدع أن يضيق معها الذرع، وتشمئز النفس، وتثور الثائرة، وتنهض الإرادة الصلبة الصارمة ذياداً عن الكرامة واستنكافا من الاستعباد واعتزاماً لتحرير الأرض واسترجاع الحق السليب، ولا بدع أيها الأخ العزيز أن يسمعك الواجب نداءه وينتظمك نظام من نذروا حياتهم للكفاح، ويختارك القدر وأنت المفكر النافذ، والكاتب البارع، زعيماً من زعماء الثورة الأبرار.

وما هذه المحنة التي تمنى بها أرض الأنبياء وأرض الديانات السماوية، وما هذه النكبة التي يتجرع قسوتها شعب فلسطين العاني الجريح، بالمحنة الوحيدة، ولا بالنكبة البكر، المعروفتين على امتداد التاريخ، فقد تقدمتها محن ونكبات قبل الفتح الإسلامي وبعده تولى كِبْرَهَا غزاة اقتحموا البقاع التي بارك الله حولها نافرين إليها من أقطار قريبة أو بعيدة. ولكن الله قيض لها في الأزمنة الكالحة، والأحقاب الطالحة، من أنقذها بعزيمة الإيمان، وصريمة الاستمساك بأمثل المبادىء والقيم، ومضاء الحمية والإباء، وإخلاص الانتصار للحق فخلصها من براثن الجور الصراح، والعسف البواح، ومكن لكلمة الله وثبت أركان حضارة الإسلام، وما أكثر ما يثب إلى ذاكرتنا من صور الماضي المجيد، ومن أسماء أبطال متألقة، كلما تجدد في فلسطين ما يحزب من أمر، وتكرر ما يعتري من حسرة وألم، وما أسرع ما تطيف بنا في هذه الحال سيرة هؤلاء الأبطال الذين أنار الله قلوبهم بالإيمان، وأظهرهم على أسرار الرسالة الإسلامية، ووكل إليهم بعد النبي الأعظم، صلوات الله عليه وسلامه، حماية الإسلام، والدعوة إلى شريعته، فعرفوا الدنيا في أثناء الجهاد المستميت وعقب استتباب الأمن والطمأنينة، بمُثُل الدين الحنيف وقيمه، وسلكوا في الناس مسالك القادة الملهمين، والهداة المهتدين، وما أيام أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وصلاح الدين الأيوبي ومن تبعهم بإحسان، بالأيام التي يطويها النسيان، وتندٌّ عن ذاكرة العصور والأجيال.

وإذا كانت أرضك أيها الأخ العزيز، أرض العروبة والإسلام، قد تعرضت في غابر الأزمان، وتتعرض الآن لشر مستطير، وواجهت وتواجه أكبر التحديات، فمع اليوم غد، ولكل أجل كتاب.

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بِالْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ   وَيَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

أفردتَ أيها الأخ العزيز في كتابك «رحلات ولحظات ممتدة» فصلا تحدثتَ فيه عن القدس الشريف الذي وصفته بأنه رمز فلسطين، وأودعت هذا الفصل ما تحمله بين

جوانحك لأُولى القبلتين وثالث الحرمين، من حب لاعج وهوى لازب، وما يتصباك من معالم وآثار مدينة السلام، وساعة مغادرتك ذات يوم لرحابها وعرصاتها، والجو مكفهر، والظرف عصيب خطرتْ ببالك هذه الأبيات :

أقول لصاحبي والعيس تهوي	بنا بين المنيفة فالضِّمار
تمتع من شميم عرار نجد	فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد	وريّا روضةٌ غِبَّ القطار

وهي أبيات تشف عن جوىً دفين، وشوق رسيس، وحنين ملحاح، وهل يسع الزائر الذي تيمه القدس الشريف إلا أن يذكر عند مفارقته لهذه المدينة تلك الأبيات الرائعة التي جالت بخاطرك أو هذه الأبيات التي تناسبها عذوبة لفظ وقوة تعبير :

قفا ودعا نجداً ومن حلَّ بالحِمَى	وقلَّ لنجد عندنا أن يودّعا
بنفسيتلك الأرض ماأطيب الربى	وما أحسن المصطاف والمتربّعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني	على كبدي من خشية أن تصدعا

وما أخلق مدينة السلام بهذا الشغف الذي يلاقينا في تضاعيف ما خصصتها به من تحبير، وهو شغف يشاطرك المسلمون عامة، والمغاربة على بكرة أبيهم خاصة، استعذاب الشعور به لما يربطهم بها من روابط دينية وثيقة العرى، ولما بين أهل القدس وأهل المغرب من صلات قربى ماسة استحكمت على توالي الأجيال وتجرم الأزمان.

فإذا آلمنا اليوم، ما تقاسيه فلسطين، ويعانيه القدس الشريف، بسبب ضراوة الاحتلال، وشراسة الاستعمار، فإن الألم المبرح، واللوعة المضة، متعمقان في أعمق مشاعرنا بوصفنا مسلمين، يعنينا ما يعني جميع المسلمين، وبوصفنا سكان حي موسوم باسمنا من أحياء مدينة السلام، وإن أوقافنا بهذا الحرم وما أصاب ديار المغاربة من تخريب، وما تحمّله مواطنونا من تضحيات، كل هذا مضافاً إلى غيره من الأسباب،

يضاعف اعتزازنا بالانتماء إلى القدس، ويذكي في نفوسنا وهج التطلع إلى أن ينتهي الاحتلال، وتبيد الأوهاق والأغلال، ولما للمغرب من اعتلاق بهذه البقاع المباركة، ولما يعلمه المسلمون من اهتمام بالغ لصاحب الجلالة الحسن الثاني أطال الله بقاءه، بقضية فلسطين بصورة عامة، وقضية الأراضي المقدسة بوجه خاص، ولما يعرفون من إقدامه وحزمه، وحسن تأتيه وعزمه، اجتمعت كلمتهم على أن يسندوا إليه رئاسة لجنة القدس آملين أن يكتب الله لخطاه التوفيق والتسديد، ولمساعيه النصر المؤزر والفوز المبين.

حضرة الأخ العزيز

إذا كانت الأواصر الواصلة بيننا وبينك داعية إلى الابتهاج والاعتزاز بانضمامك إلى أعضاء أكاديمية المملكة،فإن الوشيجة الأخرى التي تملأ قلوبنا مسرة وابتهاء ستشد أزر إخوتك الأعضاء وتضيق نفَسا إلى أنفاسهم وأثرا محموداً إلى مالهم من آثار. وهذه الوشيجة تتمثل في الانقطاع إلى التفكير الذي ينصب على قضايا مختلفة، ويفحصها فحص النطاسيين من الأطباء، ثم لا يدعها إلا بعد أن يفضي إلى رأي ممحص،ونتيجة وفاها البحث والدرس مايجب لها من حق. وتتمثل هذه الوشيجة بالإضافة إلى ماسلف، في الحرص علىإشراك القراء في حصيلة الاستقراء والاستنباط، وذلك بالعرض والبيان الكفيلين بضمان الاستفادة والاستمتاع، وشحذ القرائح، واستنفار الهمم إلى الأخذ والرد، والكسب والعطاء، فأنت أيها الأخ العزيز بما واليته من إمعان نظر وتفكير، وواصلته من بيان وتبيين، مستحق أكبر استحقاق للاستظلال بظلال هذه الشجرة التي ستكون أنت إن شاء الله أحد الساعين إلى جعلها شجرة وارفة شامخة.

لقد عُنيتَ بقضايا كثيرة، أخشى إن حاولت التصدّي لها كلِّها بالعرض، أن لا أبلغ الشمول والإحاطة، ويكفي أن أشير إلى أن القضايا والشؤون التي تعلق بها اهتمامك، تتصل اتصالاً وثيقاً بفلسطين والتحرير والوحدة، وبحاضر العرب ومستقبلهم،

وبالحضارة وتحديات الحضارات، وبالإنسان في ماضيه ومصيره،وبالتربية واللغة العربية،والتبادل الثقافي وآثاره في تعارف الأُمم والشعوب وتواصلها، وهذه القضايا والشؤون تناولتّها في جملة صالحة من المقالات والمؤلفات على ما تتهيبه من الكتابة، وشغفتَ بالتاريخ الحديث والمعاصر، فاتخذته ميدان تخصص، كما شغفت بالدراسات المستقبلية، وانبريت لهذين المحبوبين الأثيرين لديك، فأوسعتها تدريسا وتصنيفا.

وكتب الله لك أيها الأخ العزيز، أن تضرب في أطراف الأرض، فزرت أقطاراً عربية وأقطاراً أُوربية.وتنقلت في هذه الأقطار وتلك، تنقل من يرى في الرحلة وسيلة ناجعة من وسائل الثقافة، وسبيلا لاحباً من سبل اقتناء المعرفة، وكلما أنهيت رحلة من رحلاتك العديدة تناولت الصحائف البيضاء، وأجريت قلمك عليها واصفاً ما شاهدت وأفدت، وناقلاً إلى القارئ حظّاً غير قليل مما أثارته المشاهدة المتأنية في نفسك من أطياف الحاضر والماضي، ومما وقر في ذاكرتك من وجوه التشابه والاختلاف والتقارب والتباعد، وإن من حسن حظ القارئ أن يجد بعض ما ادخرتَ من رحلاتك في لحظاتك الممتدة وهي لحظات يتقراها المطالع فيستمتع بامتدادها خير استمتاع.

هذه طائفة من قضاياك وقضايانا وثلة من شؤونك وشؤوننا، توليتَها باهتمام العربي المخلص لقوميته وعقيدته، وعكفت عليها بدقة الباحث المتمرس بأساليب البحث القويم، وبمهارة الكاتب الذي يؤثر من ألوان البيان، التركيبَ السائغ، والتعبير الناصع الذي لا يشكو استبهاماً ولا تعقيداً، وإن خير ما يؤمل لك أن تمتع بالعمر المديد والفوز العاجل بأعز المطالب وأغلى الرغائب، في عالم تحبه،عالم قوامه التفاهم والتسامح والوئام، وملاكه السعي النزيه المستقيم، لما فيه سلامة البشر وتألق الحضارة.

خطاب السيد أحمد صدقي الدجاني

السيد الرئيس

الزملاء الأفاضل

منذ أن خلق الله الإنسان، واستخلفه في الأرض، وميزه بالعلم فعلمه الأسماء كلها، وعلمه البيان، وعلمه ما لم يعلم، وليس هناك أشرف من طلب العلم، ولا أروع من مطارحة الفكر وصولاً إلى المعرفة وكشفا للحقيقة وتسخيراً للعلم من أجل إسعاد الإنسان.

يحق لي إذن أن أبدأ حديثي في هذا المقام الجليل بالتعبير عن اعتزازي بالشرف الذي أولاني إياه جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله وأوليتموني إياه على الصعيدين الشخصي والعام، واستقبالي في هذه الأكاديمية التي هي بكم «مركز لسمو التفكير في كل ما ينير للإنسانية سبيل سعادتها». وإن اعتزازي بهذا الشرف على الصعيد الشخصي إنما يكتسب قيمته الكبرى من المعنى الذي يمثله على الصعيد العام باعتباري واحداً من أبناء شعب فلسطين الذي يناضل من أجل تحرير وطنه واستتباب السلام العادل في منطقتنا وفي عالمنا. ذلك أن شعب فلسطين حريص وهو يواصل نضاله على أن يتابع القيام بدوره الحضاري الذي قام به كجزء من أمته العربية على مدى عصور التاريخ.

يسرني ويشرفني أن أنقل تحيات شعب فلسطين إلى شعب المغرب الشقيق، وإلى جميع شعوب عالمنا الذين يتمثلون هنا برجالات «بلغوا بفضل دراساتهم وإنتاجهم وأعمالهم أسمى الرتب، وأسدوا إلى بلادهم أجل الخدمات»، فأسهموا بنصيبهم في إغناء التراث الإنساني. كما أنقل تحيات من بيت المقدس التي هي ومن حولها في رباط دائم إلى يوم القيامة، إلى هذه المدينة المباركة وإلى كل رباط في المغرب، وإلى كل مدينة ترفع راية الحرية والأمن والسلام في عالمنا.

الزملاء الأفاضل

إن لقاءنا على صعيد الفكر في رحاب هذه الأكاديمية يكتسب أهميةً بالغة، تتناسب مع ما للعلم من مكانة في عصرنا، الذي شهد تفجر ثورة العلم. ولقد أوصلت هذه الثورة إلى تغيُّر متسارع في حركته يفرض نفسه على جميع أشكال الحياة في عالمنا. كما تتناسب مع عظم التحديات التي تواجه الإنسان المعاصر بفعل ثورة العلم. وهل هناك تحدٍّ أعظم من تحدّي الفناء الذي يواجه الجنس البشري بفعل أسلحة الدمار التي صنعها الإنسان ؟ كذلك تتناسب هذه الأهمية مع اتساع الآفاق التي تستشرفها هذه الثورة العلمية في أبعادها الثلاثة.. بُعد تقصير المسافات في كوكبنا، وبعد اكتشاف أعماق بحار هذا الكوكب، وبعد اختراق الفضاء المحيط به ضمن هذا الكون الرحيب. واضح أن هذه الأهمية البالغة للعلم تجعلنا ندرك بعمق - وأكثر من أي وقت مضى - معنى قوله تعالى : ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾. كما ندرك مبرر أولئك الذين قسموا شعوب عالمنا إلى «أولئك الذين يعلمون وأولئك الذين لا يعلمون».

لقد برزت في عالمنا بفعل هذا التغيُّر المتسارع، وبفعل تحديات الخطر النووي، مشكلات حادة في مقدمتها مشكلة الجوع ومشكلة الخوف، فكان أن طُرحت بقوة قضية الأمن الغذائي وقضية الأمن النفسي، واشتد شوق الإنسان إلى النعمة التي منَّ

الله بها على البشرية من خلال حديثه عن قريش حين ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾. ولقد وضح أن وراء هذه المشكلات التي يعاني منها عالمنا مشكلة رئيسية تتمثل في أزمة القيم التي تتحكم في الحضارة الحديثة. فهذه الأزمة تلقي بظلها الثقيل على جميع المشكلات الأخرى وتؤثر على محاولات إيجاد حلول لها. وهي تهدد وجود الإنسان وترهق فكره، وتفرض عليه أن يعاني من المسغبة والمرض والجهل المتفشي في أكثر من نصف البشرية، ومن الاستغلال والتسلط والعنصرية والاحتلال والفوارق الضخمة بين الأمم. ولقد تجلت أزمة القيم هذه في سيطرة منطق «القوة الغاشمة والمصلحة»، وفي تراجع منطق «الحق والعدل».

إن الحاجة ملحة لمعالجة هذه المشكلات، وهي تستحق تضافر جهود أولئك الذين يدركون أخطارها على الإنسان أينما كان. ومن هنا تبرز أهمية الأهداف السامية التي حددتها هذه الأكاديمية لعملها، ومنها، كما جاء في الظهير الشريف، «تشجيع تنمية البحث والاستقصاء في أهم ميادين النشاط الفكري وصولاً إلى معرفة أدق وأعمق وأشمل للنفس الإنسانية ولطبيعة الاجتماع الإنساني والعمران. ومنها العمل على إقرار تكافل مستمر بين هذه النشاطات في دائرة احترام القيم الأخلاقية والروحية الأساسية، وصولاً إلى الاستقامة.

لقد عودتنا دراسة التاريخ أن نتعمق فهم بعد الزمان، ونتتبع تفاعل الإنسان معه ومع بعد المكان، لنصل إلى إدراك سنن الحركة التاريخية ونتمثل عبرة التاريخ. وأوصلتنا هذه الدراسة إلى الانشغال بالدراسات المستقبلية التي تقوم على معرفة صور الحاضر وتحليلها، والربط بينها وبين مجرى الحركة في الماضي، لنصل إلى تشوف المستقبل وطرح ملامحه، وفي اعتبارها أن لإرادة الفعل عند الإنسان دورها في صياغة هذا المستقبل وكذلك لخاصية الحلم التي يتميز بها الإنسان، وإذا كان الذي يعرف من أين يعرف إلى أين، فان الذي يتشوف المستقبل يكون أكثر فهماً لكيفية التعامل مع الحاضر.

اسمحوا لي من موقع دراستي أن أطرح بإيجاز أفكاراً أرى أنها تتعلق بالعمل من أجل معالجة مشكلات عالمنا.

أولا - لابد أن ينطلق الإنسان في التعامل مع مشكلاته من إدراك لطبيعة العصر الذي نعيش فيه، فالمعاصرة بهذا المفهوم ضرورية لنجاحه، ولقد أوصلت ثورة الاتصال - وهي جزء من ثورة العلم - إلى مزيد من ترابط الشعوب في عصرنا فأدى ذلك إلى عالمية المشكلات، وإلى ظهور إحساس بالوحدة بين الشعوب في مواجهة هذه المشكلات، وفي الوقت نفسه إلى بروز شعور قويٍّ بالتمايز بين الشعوب وخصوصية كل شعب. كذلك أوصلت دراسة الاجتماع الإنساني إلى حقيقة تعدُّد الحضارات، وإلى إخفاق محاولة فرض نموذج واحد منها، ومن ثم إلى ضرورة قيام حوار بينها يوصل إلى توفير الشروط المناسبة لتحقيق تفاعلها في ظل حضارة إنسانية شاملة هي حضارة العصر.

إن لنا إذن أن نعمل بجد لبناء عالم متعدِّد القوى لايحكمه الاستقطاب وإنما يحكمه التكامل، وتبرز فيه روعة تنوع البشر ضمن إحساسهم جميعا بالوحدة.. والسبيل إلى بلوغ ذلك هو تحقيق التعارف بين الشعوب، فالله سبحانه خلق الناس من ذكر وأُنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا. كما أن السبيل إلى بلوغ ذلك أيضا، تحقيق التعاون فيما بينها على البر والتقوى بمقاومة الإثم والعدوان.

ثانيا - لابد أن يضع الإنسان نصب عينيه وهو يتعامل مع مشكلاته الغاية القصوى لجميع الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها، وهي إسعاد الإنسان في ذاته وفي مجتمعه بأن يعيش حرّاً مسؤولاً، كما خلقه الله سبحانه قادراً على إطلاق طاقاته وذلك من خلال توفير سبل الرزق له وتأمينه من الخوف على ذاته وعلى مجتمعه.

لقد شهد عصرنا تزامن تدفق موجة التحرير مع تفجر ثورة العلم في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ومع تدفق هذه الموجة أصبح التحرير هو روح العصر.

إن لنا أن نعمل بجد كي تبلغ موجة التحرير مداها فتشمل كل بلد مستعمَر يعاني من الاحتلال، وتذهب بالمحتلين الغزاة، وتمحو آثار العنصرية فتنقذ العنصريين من شرور أنفسهم. وإن لنا أيضا أن نعمل بجد لحماية حرية الذات الإنسانية، ومواجهة الأخطار التي تهدد هذه الحرية على مختلف أنواعها.

ثالثا - لابد أن ينطلق الإنسان في التعامل مع مشكلاته من إدراك للطبيعة الإنسانية، ومن فهم لتكامل أبعاد النفس الإنسانية. ومن هنا تأتي أهمية مضاعفة الأشغال بدراسة علم الإنسان وبيئته ليتوازَى التقدم في هذا الميدان مع ما تحقق من تقدم في ميادين العلوم الأُخرى.

إن لنا أن نعمل بجد لتزكية النفس الإنسانية، ولإيجاد إنسان العصر المتوازن الذي يحقق السلام في نفسه بين ضروراته وأشواقه، والذي يحسن التعامل مع الطبيعة من حوله مدركاً معنى تسخيرها له، والذي تتكامل في نفسه الأبعاد الروحية والعقلية والخلقية والجمالية والبدنية والمهنية من خلال تربية ذاته وتنمية شخصيته.

ينبغي علينا أن ندرك ما للقيم الروحية من أهمية بالغة في بناء هذا الإنسان ليكون إنساناً مومناً معاصراً قادراً على الاستجابة لتحديات العصر، ومن ثَمَّ على حمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها.

إن دعوتنا للعودة إلى القيم الروحية الأصيلة التي تجسد معنى التسليم لله سبحانه وتعود بالإنسان للتناغم مع من حوله ومع ما حوله باعتباره جزءاً من هذا الكون تحكمه قوانينه، يجب أن تنطلق من الإيمان الكامل بمبدأ «لا إكراه في الدين»، كي نجنب هذه الدعوة أخطار الفهم الخاطئ للتمسك بالقيم الروحية الذي يتحول عند بعض الناس تعصباً مقيتاً وعدواناً أثياً على هذا المبدأ.

كذلك فإن دعوتنا هذه تطرح بإلحاح قضية الأصالة والمعاصرة، وكيفية التعامل مع التراث الإنساني. ولابد لنا أن ننطلق في معالجة هذه القضية من حقيقة أن التراث لايكون حياً إلا في أمة تنبض بالحياة، وأن التجديد ضرورة أساسية يفرضها تفاعل الإنسان مع الزمان والمكان، وأن سر تقدم الإنسان هو في إعماله الفكر، وفي النظر بالعقل، وفي الاجتهاد بالرأي.

لقد أحسن المغرب تمثل دوره حين أقام هذه الأكاديمية مستشعرا الحاجة للإسهام في تحقيق التقدم الإنساني، ومستوحياً موقعه في مفترق القارات، وواعياً قيمة إرثه الحضاري العظيمة. وثقتنا كبيرة في أن ينمو هذا العمل ويعم خيره، ويتكامل مع جهود أمتنا العربية من أجل القيام بدورها في عالمها.

إن الشعب الفلسطيني شقيق شعب المغرب ليتطلع أيضاً أن يقوم بدوره من على أرض فلسطين المحررة. ولقد كانت فلسطين عبر عصور التاريخ وطنا لشعبها يعيش فيه أبناؤه من يهود ونصارى ومسلمين في أخوة ومساواة، وكانت أيضا قبلة ومحجاً للمومنين في شتى أنحاء الأرض، ومطمعاً للغزاة وممراً. ولقد كان دور شعب فلسطين أن يسهم في تعميم الرسالة الأخلاقية التي جاءت بها الأديان السماوية، وأن يوفر حرية العبادة في الأماكن المقدسة لجميع المومنين في جو من التسامح الرائع، وأن يناضل الغزاة حين يعتدون.

وها هو اليوم يتابع القيام بدوره فيقاوم الاحتلال ويسهم في معالجة مشكلات عصرنا ساعياً إلى استتباب السلام العادل في أرضه وفي العالم.

إن لنا أن نثق بقدرة الإنسانية على مواجهة الأخطار المحدقة بها وعلى صنع مستقبلها إن هي آمنت وعملت الصالحات، وتواصت بالحق، وتواصت بالصبر.

إن الأهداف التي تجمعنا في هذا المحفل أهداف سامية، وهي تستحق منا أن نبذل كل ما في وسعنا لبلوغها.

تحية من القلب للمغرب الحبيب ارضا وشعبا وملكا

تأبين المرحوم أحمد الطيبي بنهيمة (*)

عبد الوهاب بنمنصور

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة،

من مظاهر يقظة الأمم ووعي الشعوب واهتمام الجماعات، عنايتها بتكريم المخلصين من أبنائها، وتوفير الحياة الرخية والعيش الرغيد لهم في حياتهم، ثم بالإشادة بهم والتنويه بأعمالهم وتخليد آثارهم بعد وفاتهم، اعترافاً منها بما أخلصوا لها، وإقراراً بما جاهدوا في سبيلها، ومكافأة على ما نصروا من حقها ورفعوا من قدرها وأسدوا من خير لها، وسطروا من آثار حميدة في سجلات أمجادها ومفاخرها. إذ بهذه المكافأة وذلك الإقرار، تشحذ القرائح، وتقوى العزائم، وتتحرك الهمم، ويجد الخلف في السلف القدوة الطيبة، والأسوة الحسنة التي تلهمه المثل العليا وتهديه إلى سبل الفضل والكمال.

ولئن وصم المغاربة في الماضي بإهمال تاريخهم، وطمس معالم رجالهم لأسباب احتار المحللون في تأويلها، فإن من بشائر الخير وإمارات اليمن أنهم أقبلوا في العصر الحاضر بجد ومضاء عزم، على رفع ما انسدل من الحجب على فترات مبهمة من تاريخهم

(*) توفي السيد أحمد الطيبي بنهيمة رحمه الله - يوم الخميس 17 صفر 1401 هـ - الموافق 25 دجنبر 1980م، وفي الذكرى الأربعينية لوفاته، وهو يوم الجمعة فاتح ربيع الثاني 1401 هـ - الموافق 6 فبراير 1981م، أقيم حفل تأبين بوزارة الدولة في الشؤون الخارجية، وألقى خطاب التأبين باسم الأكاديمية السيد عبد الوهاب بنمنصور، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

الوطني، وتسليط الأضواء الكاشفة على وقائع معينة منه، تركت بصماتها في مجتمعهم، وتتبع آثار رجالهم بحثاً وتنقيباً داخل الوطن وخارجه، وتقديمها غضة طرية في حلل قشيبة إلى الأجيال الصاعدة، بعدما جر عليها النسيان ذيله وتركها في زوايا الإهمال قرونا طويلة.

وما اجتماعنا في هذه الأمسية بهذة القاعة لتأبين الفقيد العزيز السيد أحمد الطيبي بنهيمة رحمه الله، إلا مظهر من مظاهر يقظة المغرب الجديد، ووعيه وعنايته بتمجيد العاملين المخلصين من رجاله، وتقديم الصور الحية إلى الجيل الناشئ ليقتدي بها، ويتأسى ويقتبس من سير أصحابها الجذى التي تنير له ما ادلهم من السبل في درب الحياة الوعر الطويل.

ومن أحق من أحمد الطيبي بنهيمة وأمثاله بالتمجيد والتكريم ؟

طفل ينتمي إلى أسرة عزيزة في بلدها، وجيهة بين أهلها، يفتح عينيه على شعبه المجيد في فترة حالكة من أسوإ فترات تاريخه، أناخ عليه فيها جيش الاحتلال بكلكله، ولفّه فيها ليل الاستعمار في ظلامه، يبغي امتصاص دم العزة من عروقه، ويسعى لقتل الكرامة في نفسه، فيقبل على طلب العلم والتماس المعرفة ليتزود بالسلاح الفعال، الذي يمكنه فيما يقبل من الأيام، من تقويض أركان الاحتلال ودحر جحافله، وقلع أوتاد الاستعمار ومحو آية ليله البهيم.

فتى وسيم المحيا، بهي الطلعة، يخرج من وطنه كما تخرج الزهرة من كمها، وينتقل إلى أرض الغربة ليزداد علما ويتسع معرفة، فلا تنسيه وسامته التي تسلب ألباب العذارى، وطراوته التي يغار منها الغصن الرطيب قضية وطنه المقدسة، فيقبل على الانصهار في البوتقة الاستقلالية للعمل مع المغتربين من أبناء وطنه، من طلبة مجدين، وعمال كادحين، وتجار طيبين، على إسماع صوت وطنه العزيز، وكشف ما

يعانيه من محن ويكابده من بلاء تحت حكم جلاديه القساة، وقاهريه الغزاة، يعمر بذلك وبالعلم أوقاته، ويصرف فيهما ليله ونهاره، معرضا نفسه للمهالك، مقتحما أشق الطرق وأوعر المسالك.

رجل يعبىء قواه ويجمع طاقاته - وقد منَّ الله على وطنه بالحرية والانعتاق - لإقامة صرح الدولة الجديد، بعدما أمعن المستعمر الغاصب قرابة نصف قرن في زعزعة الصرح القديم وتشويهه وسلبه مقومات الحياة والحيوية، فينضم إلى الزمرة الطيبة التي فاوضت على إعادة المغرب إلى وضعه الطبيعي بين دول العالم الحرة السيدة، ثم انضم إلى الثلة الفاضلة من الرجال الذين عملوا بتؤدة وصمت على إقامة الدبلوماسية المغربية على أقدام ثابتة، فشارك في تنظيم وزارة الخارجية، وساهم في مفاوضات عديدة، مظهراً من المواهب الرفيعة والخصال الحميدة ما أهله ليكون سفيراً ووزيراً للخارجية ووزيراً للأنباء ومندوباً دائماً للمغرب لدى هيأة الأُمم المتحدة، ثم أمينا عاماً دائماً لأكاديمية المملكة المغربية.
زوج فاضل وأب مثالي، يملأ البيت بسمة وإشراقاً، ويشيع في جنباته الحب والثقة والأمل، وينمي شعور من يغطيهم سقفه بالسعادة وحلاوة العيش، ويسهر على إعداد الصغار منهم لحمل أعباء المستقبل والاضطلاع بتكاليف الحياة.

مواطن صالح يحس بما يحس به مواطنوه، فيقاسمهم آلامهم ويسعى لتخفيفها، ويشاطرهم آمالهم ويعمل لتحقيقها، يصرف في ذلك جاهه ويجود في سبيله بما تملك يده، ويمضي من أجله وقته، لا يحجم عن مسح دموع يتيم، ولا يني عن مواساة أرملة، ولا يقف دون مساعدة فقير وبذل معروف.

مسؤول يقدر الواجب ويبذل جهده للقيام به، متعاوناً مع مرءوسيه، ناصحاً لهم، حانياً عليهم، مجتهداً في قضاء حاجاتهم بالحق، موجهاً إياهم في سلوكهم الإداري الوجهة المثلى التي تفيدهم وتفيد منه إدارتهم.

إنسان فهم الحياة على حقيقتها، ودرس طبيعة البشر ونفذ إلى أغواره وخبايـاه، فمضى على درب الحياة آملاً باسماً، يعفو عن الهفوات، ويلتمس الأعذار، ويتجـافى عن الإحَن والضغائن، لا يمل جليسـه حـديثـه لما فيـه من حلاوة اللفـظ وعمق التفكير وبراعـة النكتة، ولا يود الصديق فراقه لما يجذبه من حسن طبعه، ويحس به من صفاء باطنه وطهارة سريرته.

أفلا يمجَّد رجل له مثل هذه الخلال، وتعقد لتمجيده والإشادة بذكره الندوات ؟

حضرات السادة :
إن أخانا وصديقنا أحمد الطيبي بنهيمة رحمه الله، كان أخاً لنا جميعاً، وصـديقـاً، وكان قبل ذاك وبعده رجلا مخلصاً لملكه، وفتى وفياً لشعبـه ووطنـه، فـالمصيبـة بـه عـامـة والرزء شامل، ونار الوجد عليه والأسف لفراقه لا يخفف منها إلا الأمل في أن نلقـاه في الآخرة في جنات النعيم.

فعزاء لملكه، ولشعبه، وعزاء لأسرته وأصدقائه.

﴿يـا أيتهـا النفس المطمئنـة ارجعي إلى ربـك راضيـة مرضيـة، فـادخلي في عبـادي وادخلي جنتي﴾.

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أعمال أكاديمية المملكة المغربية

تأسست أكاديمية المملكة المغربية بظهير شريف بمثابة قانون رقم 1.77.299 بتاريخ 24 شوال عام 1397 (8 أكتوبر 1977). وترأس الجلسة العمومية الرسمية لافتتاح دورتها التأسيسية راعي الأكاديمية جلالة الملك الحسن الثاني دام له العز والتأييد، صبيحة يوم الإثنين خامس جمادى الثانية عام أربعمائة وألف، الموافق 21 أبريل سنة 1980.

وألقى جلالة الملك حفظه الله خطاب الافتتاح الذي بارك فيه انطلاق أعمال الأكاديمية، للإسهام «في تألق الفكر وازدهار العرفان والتقارب بين الأفراد والشعوب، والتفاهم المفضي إلى سعادة الإنسان» (1).

وعملا بهذه التوجيهات، شرعت الأكاديمية في ممارسة نشاطها بدءا بالبحث عن منهجية العمل، وتدرجا في الاتجاه إلى الدراسات والبحوث العلمية غاية وهدفا، مستعينة بالوسائل التالية :

- مكتب الأكاديمية الذي يتألف من أمين السر الدائم وأمين السر المساعد ومدير الجلسات.

---

1) من الخطاب الملكي السامي في افتتاح الدورة التأسيسية.

- اللجنة الإدارية المكونة من أمين السر الدائم رئيسا وأمين السر المساعد وثلاثة أعضاء.

- لجنة الأعمال المركبة من أمين السر الدائم رئيسا وأمين السر المساعد ومدير الجلسات وثلاثة أعضاء.

- الجلسة العادية التي يجتمع فيها أعضاء الأكاديمية المقيمون دوريا بدعوة من أمين السر الدائم (2).

- لجنة القيم الروحية والفكرية.
- لجنة التراث.
- لجنة التربية والثقافة والعلوم والتقنلوجيا.
- لجنة اللغة العربية.
- لجنة المجلة والمطبوعات.

وتتألف هذه اللجان من أعضاء الأكاديمية المقيمين الذين يرغبون في العمل ضمن نشاطها. وتجتمع بدعوة من أمين السر الدائم، وتنتخب كل سنة مكتبا لها مكونا من رئيس ومقرر.

دورات الأكاديمية وندواتها

لقد أسهمت هذه الأجهزة في وضع معالم نشاط الأكاديمية، وتبلور هذا النشاط في الدورات والندوات وغيرها من المحاضرات والمنشورات.

---

2) من مقتضيات الظهير الشريف المؤسس للأكاديمية.

الدورة الثانية لسنة 1980

انعقدت بمدينة فاس في الفترة الواقعة ما بين 17 و19 محرم عام 1401، الموافق 25 ـ 27 نونبر سنة 1980. استقبلت الأكاديمية فيها أربعة أعضاء جدد (3)، هم السيد كونستنتان تساتسوس من اليونان، والسيد أحمد صدقي الدجاني من فلسطين، والسيد محمد شفيق من المغرب، والسيد اللورد شالفونت من المملكة المتحدة، في جلسة عمومية رسمية، ألقوا فيها كلمات ردوا بها على خطب الاستقبال التي فاه بها في حقهم على التوالي كل من السيد موريس دروون، والسيد الحاج محمد باحنيني، والسيد عبد الوهاب بنمنصور، والسيد محمد علال سيناصر. ترأس جلسات الدورة السيد عبد الوهاب بنمنصور.

وناقشت الأكاديمية في هذه الدورة تقريرا للسيد جورج ڤوديل حول القضايا القانونية والالتزامات الخلقية المهنية التي يطرحها تطور الاتصال البعدي (التليماتيك).

واستمعت الأكاديمية إلى تقرير لجنة التراث الذي قدمه الزميل السيد محمد ابن شريفة متحدثا فيه عن مفهوم التراث المغربي الذي يشمل «كل ما من شأنه أن يكشف عن دور المغرب في الآداب والعلوم والفنون» (4). وأخبر المقرر أن اللجنة استقر رأيها على اختيار ثلاث مخطوطات من التراث المغربي لتعمل على نشرها وتحقيقها وهي :

أ) ـ «كتاب التيسير في المداواة والتدبير» لابن زهر.
ب) ـ «كتاب الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي (قسم الغرباء).
ج) ـ ديوان الشاعر الأندلسي عبد الكريم القيسي البسطي.

---

3) أنظر جدول الأعضاء في العدد الإفتتاحي من مجلة الأكاديمية، صفحة 65.
4) تقرير لجنة التراث.

وقد أثار هذا التقرير نقاشا حول مفهوم التراث وما ينبغي أن تهتم به اللجنة من موضوعاته.

واستمعت الأكاديمية في جلسة عادية ـ ضمت أعضاء الأكاديمية المقيمين والمشاركين ـ إلى تقرير لجنة القيم الروحية والفكرية. وقدم تقرير اللجنة مقررها السيد محمد العربي الخطابي الذي أشار إلى اهتمامات اللجنة المتجهة إلى النظر في بعض مظاهر السلوك الخلقي والفكري وضرورة الحفاظ على سلامة القيم الروحية والفكرية.

وبين أن اللجنة قد استقر رأيها على اعتماد برنامج العمل التالي :

من حيث المضمون :

أ ـ الإهتمام بالفكر الإسلامي ومدى إسهامه في القيم الروحية والفكرية والإنسانية.

ب ـ تقويم الدراسات المنجزة في هذا الميدان.

من حيث الشكل :

أ ـ تحديد الأسبقيات، وتكليف هيآت من المتخصصين للقيام بإنجازها تحت إشراف الأكاديمية.

ب ـ تنظيم ندوات علمية مفتوحة لغير أعضاء الأكاديمية.

وقد ناقشت الأكاديمية هذا التقرير وأقرته.

الدورة الأولى لسنة 1981

انعقدت الدورة الأولى لسنة 1981 بمدينة الرباط في الفترة الواقعة بين 23 ـ 24 ربيع الثاني عام 1401، الموافق 1 ـ 2 مارس سنة 1981، واستقبلت الأكاديمية فيه

أربعة أعضاء هم : السيد محمد المكي الناصري، والسيد عبد الرحمن الدكالي، والسيد عبد اللطيف الفيلالي، وكلهم من المغرب، والسيد أحمد مختار امبو من السينغال. وتولى استقبالهم على التوالي السيد محمد العربي الخطابي والسيد عبد الله كنون والسيد محمد شفيق والسيد محمد الفاسي.

وانتخبت الأكاديمية أثناء هذه الدورة العضو السيد عبد اللطيف الفيلالي أمين السر الدائم خلفا للمرحوم السيد أحمد الطيب ابن هيمة.

ندوة عن «القدس تاريخاً وفكراً»

بتوجيه من راعي الأكاديمية جلالة الملك الحسن الثاني رئيس لجنة القدس، تدارس أعضاء الأكاديمية موضوع القدس من جوانبه التاريخية والثقافية والحضارية، انسجاما مع المهام المنوطة بأكاديمية المملكة المغربية ومقتضيات الظهير الشريف الصادر بتأسيسها. وقد أدار اجتماعات هذه الندوة السيد عبد اللطيف ابن عبد الجليل مدير الجلسات، وعالجت الندوة الجوانب التاريخية والروحية والإنسانية للقدس الشريف مهد الديانات السماوية.

الدورة الثانية لسنة 1981

انعقدت الدورة الثانية لسنة 1981 بالرباط في الفترة الواقعة بين 29 محرم و2 صفر عام 1402، الموافق 27 ـ 30 نونبر سنة 1981. واستقبلت فيها الأكاديمية ثلاثة من الأعضاء المقيمين هم : السيد أبو بكر القادرى والسيد الحاج أحمد ابن شقرون والسيد عبد الله شاكر الكرسيفي الذين تولى تقديمهم على التوالي السيد عبد الهادي التازي والسيد عبد الرحمن الفاسي والسيد محمد المكي الناصري.

ندوة «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر»

تفضل جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله فوافق على اقتراح لجنة القيم الروحية والفكرية بتنظيم ندوة علمية مفتوحة في موضوع «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر». وشارك في هذه الندوة المنعقدة بالرباط خلال الدورة الثانية للأكاديمية لسنة 1981، إلى جانب أعضاء الأكاديمية، طائفة من رجال الفكر والرأي من ذوي الاختصاص من مختلف الجنسيات والمشارب.

وقد جمعت وقائع هذه الندوة ونشرت بحوثها ودراساتها في كتاب ضمن ندوات أكاديمية المملكة المغربية، مرتبة حسب ورودها في برنامج الندوة. وأثبتت بلغاتها الأصلية ومعها ملخصاتها مترجمة إلى لغات عمل الأكاديمية الأخرى، وفق ما قررته الأكاديمية في هذا الشأن. ويقع الكتاب ـ وقد صدر في نونبر 1981 ـ في حوالي ثلاثمائة وخمسين صفحة.

وأدار اجتماعات الندوة العضو الزميل السيد محمد العربي الخطابي مدير الجلسات.

الدورة الأولى لسنة 1982

انعقدت الدورة الأولى لسنة 1982 بالرباط في الفترة الواقعة بين 3 و6 رجب عام 1402، الموافق 27 ـ 30 أبريل سنة 1982، واستقبلت فيها الأكاديمية السيد جان بيرنارد من فرنسا الذي رحب به السيد عبد اللطيف بربيش، والسيد أليكس هالي من الولايات المتحدة الأمريكية الذي رحب به السيد ليوبولد سيدار سنگور، والسيد روبير أمبروكجي من فرنسا الذى رحب به السيد موريس دروون، والسيد

عز الدين العراقي الذي رحب به السيد إدگار فور، والسيد الكسندر دومارانش، الذي رحب به السيد أوطو دوهابسبورغ.

وقد انتخبت الأكاديمية أثناء هذه الدورة العضو السيد عبد اللطيف بربيش أمين السر الدائم خلفا للعضو السيد عبد اللطيف الفيلالي الذي أعلن العاهل الكريم لدى استقباله بأنه سيضطلع إلى جانبه بمهام أخرى.

وانتخبت الأكاديمية خلال هذه الدورة أيضا العضو السيد عز الدين العراقي أمين السر المساعد خلفا للسيد عبد اللطيف بربيش.

ندوة «الماء والتغذية وتزايد السكان» ـ القسم الأول

تفضل العاهل الكريم جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله فعرض على أنظار أعضاء الأكاديمية مشكلات الماء والتغذية وتزايد السكان لدراستها خلال هذه الدورة.

وقد كانت هذه الندوة، على غرار سابقتها، مفتوحة في وجه الدارسين والباحثين من غير أعضاء الأكاديمية، حيث أسهم فيها خمسة عشر خبيرا وباحثا تحدثوا عن قضايا ندرة الماء وقلة الغذاء، وتكاثر السكان، حريصين على مقابلة هذه الموضوعات بعضها ببعض، وعرض قضاياها عرضا ميدانيا مدعوما بالأرقام والإحصاءات والجداول البيانية، باحثين في جوانبها التقنية والعلمية، وجوانبها الأخرى الحضارية والاجتماعية والإنسانية.

وقد نشرت أكاديمية المملكة المغربية وقائع القسم الأول من هذه الندوة في كتاب ضمن ندوات أكاديمية المملكة المغربية، يقع في حوالي ثلاثمائة وخمسين صفحة بلغات

عمل الأكاديمية الأربعة، وقد صدر في أبريل 1982. وأدار اجتماعات الندوة العضو الزميل السيد عبد اللطيف ابن عبد الجليل مدير الجلسات.

الدورة الثانية لسنة 1982

انعقدت الدورة الثانية لسنة 1982 بمدينة مراكش في الفترة الواقعة بين 8 و11 صفر عام 1403، الموافق 24 ـ 27 نونبر سنة 1982، استقبلت الأكاديمية فيها ثلاثة أعضاء هم السيد دونالد فريدركسن من الولايات المتحدة الأمريكية، وألقى خطاب استقباله السيد جان بيرنارد، والسيد عبد الهادي بوطالب من المغرب الذي استقبله بخطاب السيد عبد الهادي التازي، والسيد إدريس خليل الذي تولى استقباله السيد عبد اللطيف ابن عبد الجليل.

ندوة «الماء والتغذية وتزايد السكان» ـ القسم الثاني

بتوجيهات ملكية سامية تابعت أكاديمية المملكة المغربية دراسة مشكلات الماء والتغذية وتزايد السكان بحثا عن الحلول الناجعة للقضايا المطروحة في الندوة السابقة.

وقد دعي للإسهام في هذه الندوة فريق الخبراء الباحثين الذين سبق أن شاركوا في ندوة أبريل الماضية، وأضيف إليهم فريق آخر من الاختصاصيين من داخل المغرب وخارجه. وتعمل الأكاديمية الآن على طبع وقائع القسم الثاني من هذه الندوة.

أدار اجتماعات هذه الدورة العضو الزميل السيد محمد ابن شريفة.

دورة الأكاديمية لسنة 1983

لم تعقد الأكاديمية خلال سنة 1983 إلا دورة واحدة بمدينة فاس في الفترة الواقعة بين 11 و14 رجب عام 1403، الموافق 25 ـ 28 أبريل سنة 1983. استقبلت أثناءها السيد روجي كارودي من فرنسا الذي تولى تقديمه السيد محمد العربي الخطابي، والسيد عباس الجراري الذي قدمه السيد محمد الفاسي، والسيد بيدرو راميريز ڤاسكيز من المكسيك، الذي قدمه السيد المهدي المنجرة.

ندوة «الإمكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية»

تفضل جلالة الملك فعرض على أعضاء الأكاديمية دراسة موضوع الإمكانات الإقتصادية والسيادة الدبلوماسية في ندوة علمية مفتوحة خلال دورة سنة 1983.

وقد أسهم في بحث هذا الموضوع إلى جانب بعض أعضاء الأكاديمية من ذوي الاختصاص، فريق من الخبراء وعلماء القانون من المغرب والخارج. وستتولى الإدارة العلمية في الأكاديمية نشر وقائع هذه الندوة في المستقبل. وقد أدار اجتماعات هذه الدورة العضو الزميل السيد عبد الهادي بوطالب.

هذا وقد لبى داعي ربه، وهو يزور البقاع المقدسة، العضو الزميل السيد عبد الرحمن الدكالي، صباح يوم الثلاثاء 14 جمادى الثانية عام 1403، الموافق 29 مارس سنة 1983.

وأقامت الأكاديمية، في إحدى جلسات الدورة، حفلا تأبينيا (5) تحدث فيه العضو الزميل السيد عبد الله كنون عن الجانب الأدبي للفقيد، والعضو الزميل السيد محمد المكي الناصري عن الجانب السلفي، والعضو الزميل السيد عبد الوهاب ابن منصور

5) ستنشر بحول الله الكلمات التأبينية الثلاثة في العدد القادم من المجلة.

عن الجانب الوطني، وقرأ السيد عبد الله الكامل الكتاني قصائد من ديوانه تعبر عن شاعريته ومواقفه الوطنية ووفائه للعرش العلوي المجيد.

أعضاء الأكاديمية الجدد (☆)

السيد دونالد فريدركسن : الولايات المتحدة الأمريكية
ـ أستاذ الطب. مدير المعهد الوطني للقلب سابقا. مدير المعهد الوطني للصحة بالولايات المتحدة سابقا. عضو مجلس الأكاديمية الوطنية للعلوم. عضو المجلس العلمي للبيت الأبيض.

السيد عبد الهادي بوطالب : المملكة المغربية
ـ كاتب. أستاذ القانون الدستورى والمؤسسات السياسية. شغل عدة مناصب دبلوماسية ووزارية. المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

السيد إدريس خليل : المملكة المغربية
ـ دكتور في العلوم الرياضية. أستاذ بجامعة محمد الخامس وأستاذ زائر بعدة جامعات أجنبية. مؤلف لعدة بحوث في الرياضيات.

السيد روجي كَارودي : فرنسا
ـ مفكر وكاتب. مدير المعهد الدولي للحوار بين الحضارات.

☆) تكملة لجدول الأعضاء الوارد في مجلة الأكاديمية، العدد الافتتاحي.

السيد عباس الجراري : المملكة المغربية
- أديب وباحث. أستاذ الأدب المغربي بجامعة محمد الخامس.

السيد بيدرو راميريس ڤاسكيز : المكسيك
- مهندس معماري. أستاذ الهندسة المعمارية بجامعة ميكسيكو. عميد الجامعة سابقا. وزير الأشغال العمومية وإعداد التراب الوطني سابقا. له عدة آثار هندسية مشهورة.

محاضرات الأكاديمية

افتتحت أكاديمية المملكة المغربية برنامج المحاضرات في جلستها العادية المنعقدة بعد ظهر يوم الخميس 23 رمضان المعظم عام 1402 هـ، الموافق 15 يوليوز سنة 1982، بمحاضرة للعضو الزميل السيد محمد إبراهيم الكتاني في موضوع «إحياء الاجتهاد».

وانطلاقا من شهر يناير سنة 1983 م، شرعت الأكاديمية في تنظيم محاضرات شهرية ألقيت بقاعة المرحوم أحمد الطيب ابن هيمة بوزارة الخارجية، في مساء آخر جمعة من كل شهر، وفق الترتيب الآتي :

- «أثر الفقه المالكي في التشريعات الغربية» محاضرة ألقاها العضو الزميل السيد عبد العزيز ابن عبد الله يوم 13 ربيع الثاني عام 1403، الموافق 28 يناير سنة 1983.

- «تقدم علم الأحياء وتعريف الإنسان» محاضرة ألقاها العضو الزميل السيد جان بيرنارد يوم 12 جمادى الثانية 1403، الموافق 25 يبراير سنة 1983.

- «الإنسانية حاضرا وغدا» محاضرة ألقاها العضو الزميل السيد محمد عزيز الحبابي يوم 17 جمادى الثانية عام 1403، الموافق 1 أبريل سنة 1983.

- «المنطق المتناقض للمقاولات العمومية» محاضرة ألقاها العضو الزميل السيد جورج ڤوديل يوم 14 شعبان عام 1403 الموافق 27 ماي سنة 1983.

- «التربية في العصر القديم، فيما بين النهرين ومصر واليونان» محاضرة ألقاها العضو الزميل السيد محمد شفيق يوم 13 شوال عام 1303 الموافق 24 يوليوز سنة 1983.

- «التربية في العصر القديم، في روما وآسيا»، محاضرة ألقاها العضو الزميل السيد محمد شفيق يوم 22 ذو الحجة عام 1403، الموافق 30 شتنبر سنة 1983.

- «أسباب ركود الحضارة الإسلامية»، محاضرة ألقاها العضو الزميل السيد فؤاد سِزْكين يوم 21 محرم عام 1404، الموافق 28 أكتوبر سنة 1983.

- «علم النوازل بالمغرب»، محاضرة ألقاها العضو الزميل السيد الحاج أحمد ابن شقرون يوم الجمعة 23 ربيع الثاني عام 1404، الموافق 27 يناير 1984.

وستتابع الأكاديمية هذا النشاط الثقافي في المواسم المقبلة بإذن الله، كما ستعمل الإدارة العلمية على نشر هذه المحاضرات باللغة التي ألقيت بها في سلسلة «محاضرات الأكاديمية».

هذا وأثناء زيارته للملكة المغربية، استقبل الرئيس معمر القذافي بقصر الضيافة بالرباط يوم السبت 20 رمضان عام 1403، الموافق 2 يوليوز 1983، أعضاء الأكاديمية المقيمين. وبعد أن رحب الرئيس الليبي بالسادة الأعضاء، عرض عليهم

الظروف التي تعيشها الأمة العربية، كما عرض التجربة الاقتصادية والاجتماعية التي تجتازها الجماهيرية الليبية. وتميز هذا الاجتماع بعدة تساؤلات طرحها أعضاء أكاديمية المملكة المغربية على الرئيس الليبي بخصوص موقفه من قضية الوحدة الترابية المغربية.

أحاديث الخميس

بعد أن عكف السادة الأعضاء في الجلسات العادية على وضع أعمال اللجان ومتابعتها وتنظيم مضامين الندوات، قرروا تخصيص جلسات أيام الخميس للسادة الأعضاء الذين لهم بحوث ويودون إطلاع زملائهم عليها، ولفت انتباههم إليها لمناقشتها.

وكان حديث العضو الزميل السيد محمد المكي الناصري يدور حول بعض الجوانب الخاصة في آراء ابن خلدون وأفكاره، وذلك يوم الخميس 25 صفر عام 1404 هـ، الموافق 1 دجنبر 1984 م.

وقدم العضو الزميل السيد عباس الجراري بحثا بعنوان : «إشكالية الفكر الإسلامي بين المعرفة والمنهج»، وذلك بتاريخ 13 جمادى الأولى 1404 الموافق 16 فبراير 1984.

أعمال قيد الإنجاز

1) النشر

☆ العدد الأول من مجلة «الأكاديمية»، هذا الذي بين أيدي القراء، محتويا على دراسات وبحوث خص بها بعض الأعضاء مجلتهم.

- كتاب «الذيل والتكملة»، الجزء الثامن ـ قسم الغرباء، تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، بتحقيق العضو الزميل السيد محمد ابن شريفة، قيد الطبع ـ ولا يلبث المهتمون به أن يجدوه بين أيديهم قريبا.

ـ «معلمة الملحون» ـ القسم الأول، للعضو الزميل السيد محمد الفاسي. الكتاب سيصدر قريبا.

ـ «كتاب الماء وما ورد في شربه من الآداب» للسيد محمود شكري الألوسي، تحقيق العضو الزميل السيد محمد بهجة الأثري، سيقدم الكتاب إلى المطبعة.

ـ «كتاب التيسير في المداواة والتدبير» للوزير أبي مروان عبد الملك ابن زهر. بناء على اقتراح من لجنة التراث، قررت الأكاديمية تحقيق هذا الكتاب وطبعه. وقد علمت الأكاديمية، بعد أن قطع تحقيق الكتاب مراحل هامة أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عازمة على إصدار هذا الكتاب بتحقيق المرحوم الدكتور ميشيل الخوري، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وعناية الدكتور حسني سبح رئيس المجمع، ومراجعة الدكتور عبد الكريم اليافي عضو المجمع، ومساعدة الآنسة سكينة الشهابي من العاملات في المجمع. ونعتقد أن لهذا العمل الذي تقوم به الأكاديمية مزايا أخرى لا يغني عنها التحقيق العلمي للكتاب الذي صدر أواخر السنة الماضية 1983 عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وأن كلا من الطبعتين ستكمل الأخرى. وفي ذلك إثراء للمكتبة العلمية العربية.

2 ـ إسهام الفكر الإسلامي في القيم الروحية والفكرية الإنسانية

وجهت أكاديمية المملكة المغربية اهتمامها إلى هذا الموضوع منذ تأسيسها، وعهدت إلى لجنة القيم الروحية والفكرية متابعته ووضع خطة علمية لبحثه.

وقد انتهت اللجنة إلى وضع مشروع تمهيدي عمم توزيعه على الاعضاء، وكلفت ثلاث هيآت مكونة من أعضاء اللجنة وبعض ذوي الإختصاص في الموضوعات المدروسة بوضع خطة تفصيلية لمدارسة :

أ) ـ أثر الفقه الإسلامي في التشريع الغربي.

ب) ـ أثر الفلسفة الإسلامية في الغرب.

ج) ـ إسهام العلوم الإسلامية في تطور العلوم والرياضيات والفلك.

هذا وقد تم توزيع العدد الإفتتاحي من مجلة «الأكاديمية» ـ وهو عدد وثائقي ـ توزيعا واسعا للتعريف بالأكاديمية، وكذلك الشأن بالنسبة للمطبوعات الخاصة بالندوات، وقد أرسلت إلى المكتبات والجامعات والمجامع برسم التبادل، ووضعت في سوق الكتب لتعرض على القراء كافة.

ونشير هنا إلى أن خزانة الأكاديمية شرعت في اقتناء الكتب الأمهات وتسلم الكتب المهداة إلى الأكاديمية.

وسام الأكاديمية

وقد دأب صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، مؤسس الأكاديمية، على رعاية نشاطها، ومتابعة أشغال ندواتها، واستقبال أعضائها، وخاصة منهم الأعضاء

الجدد على إثر انتسابهم إليها، تقديرا منه أعزه الله، وتشجيعا لهم على القيام بالمهمة العلمية الموكولة إليهم خير قيام.

وقد أبى جلالة الملك إلا أن يوسم بيديه الكريمتين جميع أعضاء أكاديمية المملكة المغربية بوسام الأكاديمية، مساء يوم الجمعة 10 صفر عام 1403 الموافق 20 نونبر سنة 1982 بالقصر الملكي بالرباط، في حفل استقبال خصهم جلالته به في ذلك اليوم أثناء انعقاد أشغال الدورة الثانية للأكاديمية لسنة 1982.

وبتعليمات ملكية سامية تقرر اعتماد الترتيب الذي تقدم به الأعضاء للسلام على جلالته، خلال هذا الاحتفال، ترتيبا رسميا لأعضاء الأكاديمية.

وهكذا يتوالى الإنعام الملكي على هذه المؤسسة التي تعتز برعايته السامية لها، واهتمامه الكريم بنشاطها، مما يجعلها حريصة أشد ما يكون الحرص، في الحال وفي المآل، على أداء رسالتها الحضارية والإنسانية خير أداء.

أعضاء الأكاديمية المراسلون

صدر في الجريدة الرسمية عدد 3670 وتاريخ 16 جمادى الثانية عام 1403 هـ = 2 ماي سنة 1983 م، ظهير شريف مؤرخ في 28 ربيع الثاني عام 1403 هـ (الموافق 12 يبراير سنة 1983)، بمثابة نظام للأعضاء المراسلين في أكاديمية المملكة المغربية من الشخصيات المغربية أو الدولية ذوي المكانة العلمية. وها هو نص الظهير :

ظهير شريف رقم 1.83.11 صادر في 28 من ربيع الآخر 1403 (12 يبراير 1983)
يتعلق بالأعضاء المراسلين لأكاديمية المملكة المغربية

الحمد لله وحده

الطابع الشريف وبداخله
(الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن الله وليه)

يعلم من ظهيرنا الشريف هذا اسماه الله وأعز أمره أننا : بناء على الظهير الشريف رقم 1.77.229 الصادر في 24 من شوال 1397 (8 أكتوبر 1977) بمثابة قانون يتعلق بإنشاء أكاديمية المملكة المغربية ولا سيما الفقرة الأولى من فصله الأول، أصدرنا أمرنا الشريف بما يلي :

الفصل الأول

يجوز أن يعين عضوا مراسلا لأكاديمية المملكة المغربية كل شخص يستطيع بفضل معارفه ومواهبه وآثاره أن يعين ويساعد هذه المؤسسة السامية على الاضطلاع برسالتها.

ويجوز أن يكون الأعضاء المراسلون مغاربة أو أجانب، وتتولى جلالتنا الشريفة تعيينهم باقتراح من أمين السر الدائم.

ولا يجوز أن يتجاوز عدد الأعضاء المراسلين عدد الأعضاء المقيمين أو المشاركين حسبما هو محدد بالفصل 4 من الظهير الشريف الموما إليه أعلاه رقم 1.77.229 الصادر بمثابة قانون في 24 من شوال 1397 (8 أكتوبر 1977).

الفصل الثاني

يجوز للأعضاء المراسلين أن يحضروا أعمال الأكاديمية وأن يساهموا في جميع المناقشات التي تجرى في جلساتها من غير أن يشاركوا في التصويت.

الفصل الثالث

للعضو المراسل الحق في حمل لقب «عضو مراسل لأكاديمية المملكة المغربية»، ويجب عليه أن يتقيد بجميع القواعد والإلتزامات المعنوية التي يخضع لها أعضاء الأكاديمية.

ويفقد العضو المراسل صفته بقرار يصدر من جلالتنا الشريفة بناء على اقتراح من أمين السر الدائم.

الفصل الرابع

يأخذ الأعضاء المراسلون تعويضات عن المصاريف المترتبة على تنقلهم ومقامهم للمشاركة في أعمال الأكاديمية.

الفصل الخامس

ينشر ظهيرنا الشريف هذا بالجريدة الرسمية.

وحرر بمراكش في 28 من ربيع الآخر 1403 (12 يبراير 1983)

وقعه بالعطف :
الوزير الأول،
الإمضاء : المعطي بوعبيد

السادة مديرو الجلسات

- السيد عبد الهادي التازي . . . من 5 جمادى الثانية 1400 إلى 8 رمضان 1400
21 أبريل 1980 إلى 21 يوليوز 1980

- السيد محمد العربي الخطّابي . . من 8 رمضان 1400 إلى 11 ذي الحجة 1400
21 يوليوز 1980 إلى 21 أكتوبر 1980

- السيد عبد الوهاب ابن منصور من 13 ذي الحجة 1400 إلى 14 ربيع الأول 1401
23 أكتوبر 1980 إلى 21 يناير 1981

- السيد عبد اللطيف ابن عبد الجليل . . . . من 14 ربيع الأول 1401 إلى 16 جمادى الثانية 1401
21 يناير 1981 إلى 21 أبريل 1981

- السيد عبد الكريم غلاّب . . . من 18 جمادى الثانية 1401 إلى 29 ذي القعدة 1401
23 أبريل 1981 إلى 28 شتنبر 1981

- السيد محمد العربي الخطّابي . . من 29 ذي القعدة 1401 إلى فاتح ربيع الأول 1402
28 شتنبر 1981 إلى 28 دجنبر 1981

- السيد عبد اللطيف ابن عبد الجليل . . . . من 30 ربيع الثاني 1402 إلى 10 شعبان 1402
25 فبراير 1982 إلى 3 يونيو 1982

- السيد عبد الرحمن الفاسي . . . من 10 شعبان 1402 إلى 19 ذي الحجة 1402
3 يونيو 1982 إلى 7 أكتوبر 1982

- السيد محمد ابن شريفة . . . . من 19 ذي الحجة 1403 إلى 28 ربيع الأول 1403
7 أكتوبر 1982 إلى 13 يناير 1983

- السيد محمد المكي الناصري . . . من 28 ربيع الأول 1403 إلى 29 جمادى الثانية 1403
13 يناير 1983 إلى 13 أبريل 1983

- السيد عبد الهادي بوطالب . . من 29 جمادى الثانية 1403 إلى 7 ذي الحجة 1403
13 أبريل 1983 إلى 15 شتنبر 1983

ـ السيد أحمد الأخضر غزال . . . من 7 ذي الحجة 1403 إلى 10 ربيع الأول 1404

15 شتنبر 1983 إلى 15 دجنبر 1983

ـ السيد إدريس خليل . . . . . من 10 ربيع الأول 1404

15 دجنبر 1983
